مَعَارِكُ العَرَبِ ضِدَّ الغُزَاةِ

دكتور محمّد عمارة

دار قتيبة

معارك العرب
ضد الغزاة

مَعَارِكُ العَرَبِ ضِدَّ الغُزَاة

دكتور محمّد عمارة



الطبعة الثانية
١٠٤٨هـ - ١٩٨٨

توزيع
دار قتيبة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ـ ص.ب: ١٣٤١٤
بيروت ـ ص.ب: ١٣٥٠١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

حقيقة لا يعيد التاريخ نفسه، ومهما تشابهت أحداث الماضي بأحداث الحاضر فإنها ليست تكراراً معاصراً وحديثاً لوقائع التاريخ القديم. غير أن في الحياة البشرية وما يكتنفها من صراعات قوانين عامة وموحدة تحكم ما في هذه الحياة من صراعات، ولذلك كان الوعي بهذه القوانين أمراً ضرورياً لفهم واقع الصراعات المعاصرة، وتقدير احتياجاتها وضروراتها والبصيرة بمستقبلها وتطورها، ومن ثم تحصيل وامتلاك الأدوات اللازمة لجعل نهايات هذه الصراعات في مصلحة الشعوب والقوى المتقدمة في هذه الحياة..

فالوعي الضروري واللازم والمطلوب، إذاً، هو الوعي بقوانين التاريخ. وإذا كانَ الأمر خاصا بذلك الصراع العميق والعنيف القائم في عصرنا الراهن بين الشرق العربي وبين الاستعمار، بشكليه القديم والحديث، وإذا كان هذا الصراع قديما، وليس وليد عصرنا الراهن فقط، فإن الوعي بالقوانين التاريخية التي حكمت هذا الصراع، خصوصاً في العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث، يصبح أمراً ضرورياً وملحاً لإدارة أحداث الصراع الراهن لمصلحة الإنسان العربي، وحتى تمكن ليقظته الحديثة من القيام وصد الغزو الاستعماري الحديث كما تمكنت يقظته في العصور الوسطى من هزيمة الموجة الاستعمارية التي جاءته في ذلك الحين مستترة بستار الدين.

فالقضية إذا ليست مجرد قراءة التاريخ الذي يحكي صراع العرب ضد

الاستعمار الذي جاء إلى العالم العربي في العصور الوسطى تحت ستار صليب المسيح، وفي بداية العصر الحديث خلف رايات التجارة وسفن التجار، وإنما القضية هي الوعي بالقوانين التي حكمت هذا الصراع، وذلك من خلال تقديم الصفحات البارزة التي سجلت المعارك الكبرى والأساسية في فصول هذا الصراع، وهي المهمة التي نحاول النهوض بها على صفحات هذا الكتاب.

فالأمر إذاً ليس ترفاً فكرياً يقدمه الكاتب إلى القارىء حول هذه الصفحات من التاريخ، وإنما هي **محاولة نستعين فيها بالمنهج العلمي في دراسة التاريخ، على استخلاص القوانين العامة التي حكمت صراع العرب ضد الغزاة منذ الحروب الصليبية حتى بدايات عصرنا الحديث [من معركة «حطين» حتى معركة «رشيد»..] وذلك كي يسهم الوعي بهذه القوانين في تحصيل أسباب النصر في الصراع الذي يعيشه الإنسان العربي في هذه الحقبة الراهنة من حقب التاريخ..**

والمسألة ليست تعسفاً في صياغة هذه القوانين، أو تعداد العناصر والكليات والإدعاء بأنها هي القوانين التي حكمت هذا الصراع، وإنما الأمر الذي تنهض به صفحات هذا الكتاب **هو عرض صفحات المعارك الكبرى التي دارت في صراعنا ضد الغزاة، من «حطين» إلى «رشيد»، مستندين في ذلك إلى أقدم وأوثق المصادر التي شاهد أصحابها وعاصروا هذه المعارك، وشاركوا عملياً أو فكرياً في هذه الصراعات، ثم ترك الأمر بعد ذلك للقارىء يستخلص من هذه المعارك القوانين التي حكمت الصراع بين أطرافها، وأيضاً تقدير الصالح والجوهري من هذه القوانين كي نستعين بها ونعي على ضوئها صراعنا الراهن فنوجه أحداثه تجاه النصر الذي نأمله، كما صنع أسلافنا ضد موجات الغزو التي اجتاحت وطننا في زمنهم، فانتصروا عليها في المعارك الكبرى التي يتحدث عنها هذا الكتاب.**

* * *

فمنذ قرون طويلة وعصور موغلة في أعماق التاريخ كان الصراع قائماً بين الشرق والغرب، ولقد ظلت لهذا الصراع دوراته وموجاته ومعاركه رغم تعدد النظم والحضارات التي شهدتها مواطن الغزاة الذين ظلت أعينهم جميعاً على الشرق طامعين في ثرواته وكنوزه وموقعه الاستراتيجي الذي يحكم مركز هذا الكوكب الذي نعيش فيه.

ولقد كان صراع الغرب ممثلاً في الدولة البيزنطية ضد الشرق ممثلاً في الدولة الفارسية القديمة، فصلاً من فصول هذا الصراع، امتد على طول قرون عديدة سبقت ميلاد المسيح.. ولقد استطاع الغرب بقيادة الاسكندر الأكبر المقدوني أن يحرز في القرن الثاني قبل الميلاد انتصاراً باهراً للغرب ضد الشرق عندما كون امبراطوريته الشرقية الواسعة الأرجاء.. وهي الامبراطورية التي جعلت سيادة الغرب تدوم أكثر من ثمانية قرون..

وعندما ظهر الإسلام تسلح العرب بأسلحته المادية والمعنوية وأخذوا على عاتقهم مهمة تحرير الشرق من نير الحكم البيزنطي، ففتح المسيحيون المصريون أذرعهم لجيش عمرو بن العاص، ونصروه ضد البيزنطيين، وحارب عرب سوريا الغساسنة ـ وهم نصارى ـ في صفوف الجيش العربي المسلم ضد نصارى الروم، وفي مدة وجيزة استطاع العرب أن ينفضوا عن كاهل الشرق رداء الغزو الاستعماري الغربي الذي ألقاه على كاهله الاسكندر الأكبر في القرن الثاني قبل الميلاد.

وفي العصور الوسطى، وعلى امتداد قرنين من الزمان (١٠٩٦ ـ ١٢٩٢م) تجدد الصراع من جديد، وجاء الغرب الاستعماري هذه المرة متخفياً تحت صلبان المسيح، محاولاً ستر أطماعه الاستعمارية الاستيطانية بالدين، ومتسلحاً في هذه الموجة الجديدة بفروسية الإقطاع وفرسانه في العصور الوسطى، وبعد أن أحرز الانتصارات، واستولى على مساحات من الأرض أقام عليها الإمارات الصليبية اللاتينية، التي فصل بها المشرق العربي عن مصر والمغرب، وبعد أن قبض بواسطة بورجوازيته ومدنه التجارية على مقدرات التجارة العالمية المارة بالشرق العربي، بعد أن تم له ذلك استيقظ الشرق،

فتسلح بأسلحة ذلك الصراع، وقامت في الوطن العربي تلك الأنظمة من الحكم التي استندت إلى الفروسية والفرسان، فكانت الدولة «الزنكية - النورية» بالمشرق العربي، و«الدولة الأيوبية» في مصر والمشرق العربي.. وكانت المعارك الفاصلة التي حسمت هذه الموجة من موجات ذلك الصراع لصالح العرب ضد الغزاة الغربيين..

وفي صراع الغرب الاستعماري هذا ضد العرب والعروبة، استعان بالأقليات والقبائل والفئات العنصرية التي لا يكن لها أي ود، ولا تربطه بها أية روابط فكرية، كما حدث عندما تحالف مع «التتار» الوثنيين ضد العرب الذين يدينون بدين سماوي؟!.. كل ذلك في سبيل الغزو والاستعمار والاستيطان..

وفي بدايات العصر الحديث تعرض الشرق العربي لموجة جديدة من الغزو الغربي، رفع أصحابها هذه المرة رايات التجارة والتجار. فكان ذلك الصراع القائم والمستمر منذ حملة بونابرت على مصر ثم الشام.. وفي هذه الموجة والمرحلة من هذا الصراع استعان الغرب، ولا يزال، بالأقلية العنصرية المتمثلة في اليهود الصهيونيين، رغم تاريخ هذا الغرب في اضطهاد اليهود، وحصرهم في بلاده ومدنه بالجيتو كالمنبوذين، وصفحات تاريخه المليئة بالعداء للسامية.. كل ذلك، أيضاً، في سبيل الغزو والاستعمار والاستيطان..

وطوال جميع مراحل هذا الصراع كانت عين الغزاة على مصر، تحاول عزلها عن المشرق العربي، حتى لا تتم للعرب قوتهم بوحدتهم، فكانت الكيانات الصليبية قديما تمتد من البحر المتوسط حتى ميناء «أيلة» على خليج العقبة، وحديثاً تقوم في هذا الموقع الدولة الصهيونية لتحقق نفس الأهداف، وهي تطمح في التمكين لهذا العزل بإعطاء «الجدار العازل» المزيد من العرض والطول؟!..

وطوال المعارك التي شهدها هذا الصراع كانت وحدة الجبهة القومية العربية، وبالذات وحدة المشرق مع مصر، وتساند الجبهة الشرقية مع الجبهة

الغربية هي المقدمة الضرورية لإحراز النصر على هذا الغزو الاستعماري وذلك الجسم الغريب المزروع قسراً في قلب الوطن العربي الكبير.

* * *

ونحن لن نستطرد في هذا التقديم لنتحدث عن القوانين العامة والكلية التي حكمت وتحكم ذلك الصراع الحضاري والسياسي والعسكري الدائر بين الشرق والغرب منذ قرون وقرون.. وإنما نترك ذلك لصفحات هذا الكتاب التي تقدم هذه القوانين للقارىء من خلال الحديث عن المعارك، وذلك حتى تكون لدى القارىء الإمكانية في التطبيق على واقع الصراع الذي نعيش فيه..

وما أوجه الشبه بين استراتيجية الأعداء بالأمس واستراتيجيتهم اليوم.. وأوجه الشبه بين يقظة الشرق في العصور الوسطى ويقظته المعاصرة المنشودة... وأوجه الشبه بين معارك الأمس ومعارك اليوم والغد.. ما هذه الأشياء التي يستخلصها القارىء من صفحات هذا الكتاب إلا التعبير الدقيق عن وحدة القوانين التي حكمت وتحكم ذلك الصراع التاريخي والطويل بين الغرب الزاحف على الشرق لاستعماره واستغلاله وبين الشرق العربي المناهض والمناضل ضد كافة أشكال الغزو وألوان الاستعمار.. وبقدر نجاح هذه الصفحات في استعادة قوانين ذلك الصراع إلى الذهن العربي المعاصر، لاستخدامها في الصراع الراهن، يكون النجاح الذي توخيناه من وراء كتابة هذه الصفحات.

القاهرة ـ فبراير ١٩٧٢م

دكتور
محمد عمارة

معركة القادسية

[١٥هـ ٦٣٦م]

قبل ظهور الإسلام كان الخطر والتحدي يحيط بالعرب من كل الجهات، ويتقدم شيئاً فشيئاً ليهدد حريتهم واستقلالهم، بل ووجودهم بالزوال! . .

ففي الشرق: كانت الامبراطورية الفارسية تسيطر على عرب العراق والخليج، وفي بعض الفترات امتدت سيطرتها إلى اليمن في الجنوب. .

وفي الغرب والشمال: كان الروم البيزنطيون يفرضون سيطرتهم على عرب الشام. .

وفي الجنوب: احتلت الحبشة، لفترات طويلة، جنوب شبه الجزيرة العربية ـ [اليمن] ـ. . .

ولم يبق حراً ومتسقلاً من بلاد العرب سوى وسط شبه الجزيرة، الذي كان وعراً وفقيراً وصحراوياً، تسكنه قبائل شديدة المراس في الحرب، عاشقة للحرية، رافضة لأية قيود تفرضها أي حكومة من الحكومات، خصوصاً إذا كانت هذه الحكومة غير عربية. . ومع ذلك. . فلقد حاولت الحبشة في ٥٧١م ـ عام الفيل ـ أن تغزو وسط شبه الجزيرة، وتحتل مكة. . ولولا هزيمتها يومئذ لسيطر الأعداء على بلاد العرب كلها.

لكن هذا الخطر وذلك التحدي قد نبه في الأمة العربية عوامل اليقظة وروح المقاومة ونمَّا بين أبنائها صلات التضامن وروابط الاتحاد.. وفي فترة وجيزة شهدت بلاد العرب هذه الأحداث:

● هزيمة جيش أبرهة الحبشي وغزوة الفيل ٥٧١م.. وهو نفس العام الذي ولد فيه الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام؟!..

● وتحرير اليمن من الاحتلال الحبشي بقيادة البطل العربي سيف بن ذي يزن [٥١٦ - ٥٧٤م]..

● وقيام روابط التضامن بين حكومة مكة، بزعامة عبد المطلب بن هاشم [٥٠٠ - ٥٧٩م] وبين حكومة اليمن..

● ونمو الروابط والعلاقات السلمية بين قبائل العرب في وسط شبه الجزيرة، وخاصة بعد الاتفاق على وقف الحروب والمنازعات والغارات أربعة أشهر من كل عام، هي الأشهر الحرم: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وفي هذه الأشهر كانت تقام المعارض والأسواق، ويتم الحج إلى الكعبة، وتعقد المسابقات بين الشعراء والحكماء في الأسواق الشهيرة: عكاظ، ومجنة، وذي المجاز.. الأمر الذي ساعد على تبلور الشخصية العربية الموحدة، وزاد من روابط التضامن والتقارب والاتحاد..

● وكان أول انتصار للعرب على الفرس في يوم ذي قار ٦١٠م.. وهو نفس العام الذي ظهر فيه الإسلام؟ ويومها استبشر الرسول خيراً وتنبأ بأن هذا النصر سيكون فاتحة انتصارات أكبر، تحرر العرب من الفرس، وتنتقم لتاريخ طويل سيطر فيه الفرس على عرب الشرق والجنوب.

● ثم.. كانت الدولة العربية الإسلامية التي أقامها المسلمون بالمدينة، بعد الهجرة، هي سلاح العرب الأول الذي استطاعوا به مواجهة الخطر والتحدي، بل ومطاردة مصادر هذا الخطر وذلك التحدي، ومن ثم: فتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق، أصبحت القيادة فيها للعرب، وليس للفرس أو الروم!..

فلقد توحدت القبائل العربية خلف قيادة هذه الدولة.. وبعد أن تأكدت هذه الوحدة على عهد أبي بكر الصديق [١١ـ ١٣هـ ٦٣٢ـ٦٣٤م] أصبح في استطاعة الدولة العربية الإسلامية أن تتطلع إلى تحرير الأرض العربية الواقعة تحت سيطرة كل من الفرس والروم منذ قرون: العراق العربي في المشرق، والشام العربي في الغرب والشمال.. ولقد نهضت الدولة بهذه المهمة التحريرية على عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب [١٣ـ٢٣هـ ٦٣٤ـ ٦٤٤م]..

● فمنذ أواخر عهد أبي بكر كانت المناوشات والمعارك قائمة بين العرب وبين الفرس والروم، ولقد استطاع الجيش العربي أن يحرز عدداً من الانتصارات في عدد من المواقع بجنوبي العراق ـ في الحيرة، والبويب ـ بقيادة البطل العربي المسلم المثنى بن حارثة الشيباني [١٤هـ ٦٣٥م].. وأن يحرز كذلك عدداً من الانتصارات، في فلسطين، أهمها الانتصار في أجنادين.

● لكن عهد عمر بن الخطاب هو الذي شهد الانتصارات الحاسمة، التي حررت العرب من الفرس والروم، وثأرت لتاريخ طويل أذلوا فيه العرب قبل ظهور الإسلام، وجددت شباب المنطقة، سياسياً وحضارياً، بفكر الإسلام.. ففي الوقت الذي فتح فيه انتصار العرب على الروم في موقعة اليرموك [١٥هـ ٦٣٦م] الباب لزحف عربي شامل حرر كل الشام، كان العراق ينتظر هو الآخر معركته الحاسمة التي تقرر: لمن الغلبة؟ للفرس؟ أم للعرب المسلمين؟!..

فعرش فارس كان قد تولاه ملك جديد، هو يزد جرد بن شهريار [٦٣٢ـ٦٤٢م] وكان يدرك خطر اليقظة العربية القادمة لانتزاع العراق من الفارسيين، فجمع كلمة الفرس على الاستعداد لإخماد هذه اليقظة قبل أن تحقق انتصارها الحاسم.. ومن ثم بدأت حشود الفرس العسكرية تضغط على الجيش العربي الذي يقوده المثنى بن حارثة الشيباني.. فأرسل المثنى إلى عمر بن الخطاب يخبره أن كفة الفرس قد رجحت، ويطلب الامدادات.. وأضيف إلى الموقف عامل جديد، وهو مرض المثنى بن حارثة، مرضاً بدا أنه مرض

الموت!.. وأدرك عمر بن الخطاب خطر المواجهة المنتظرة، والوشيكة، وأيقن أنها حاسمة في تاريخ طويل لصراع طويل!.. فعزم على أن يخرج بنفسه لقيادة المعركة التي وضح أن مكانها سيكون [القادسية] - [غربي النجف، وعلى بعد ثمانية عشر ميلا ونصف ميل من مكان الكوفة] - فهي معركة حاسمة، يزيد من أهميتها أنها ستدور في مكان حاسم، فإما أن يفتح نصر العرب فيها الباب لتحرير العراق، ومطاردة أركان النظام الفارسي الإقطاعي.. وإما أن تفتح هزيمتهم فيها الباب لاسترداد الفرس السيطرة على جنوبي العراق ومنطقة الخليج.. فالقادسية - كما قال الخليفة عمر - : «باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب.. وهي منزل رغيب خصيب حصين، دونه قناطر وأنهار ممتنعة»!..

وبالفعل، خرج الخليفة إلى موضع يسمى «صرار»، على بعد أميال من المدينة، في الطريق إلى العراق، فأقام معسكراً، وشرع يجري الاستعداد لتأليف جيش القادسية.. ولكن الصحابة أشاروا عليه بمخاطر قيادته المباشرة للجيش في ميدان القتال، وطلبوا إليه البقاء في العاصمة، وأن يقود المعركة أحد الصحابة من أبطال الغزوات والفتوحات المشهورين.. ورشحوا سعد بن أبي وقاص [٢٣ق. هـ - ٥٥هـ ٦٩٣ - ٦٧٥م] فهو أسد من أسود الحرب وعلم من أعلام الفتوحات..

* * *

ولقد نهض عمر، ومعه ولاة الأقاليم، وقادة الحاميات، ورؤساء القبائل بتوجيه كل الطاقات لتجهيز الجيش.. فالفرس قد جمعوا جموعهم، حتى بلغ تعداد جيشهم هناك مائة وعشرين ألف مقاتل، إذا أضيف إليهم أتباعهم وخدمهم ومعاونوهم بلغوا مائتي ألف!.. وهم قد حشدوا في هذا الجيش ملوكهم وحكام أقاليمهم وأبرز الأساورة وأمهر المقاتلين... واستعانوا في هذا الجيش بثلاثة وثلاثين فيلا، كي تفسد على الخيول العربية يقظتها وصمودها عندما يشتد القتال!.. وجعلوا قيادة هذا الجيش الجرار لأبرز قوادهم: رستم بن الفرّخزاذ، قائد الجيش الامبراطوري.. ورفعوا رايتهم الشهيرة

[درفش كابيان] وكانت من جلد النمر، مرصعة بالجواهر، يستبشر بها الفرس، ولا يرفعونها إلا في الأمر الشديد!.. ومن خلف هذا الجيش قامت المدن تقيم الحصون، وتؤلف الجيوش، وتجمع الامدادات..

وأمام هذا التحدي اتخذ عمر بن الخطاب قراره، فقال: «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب»!.. فهي، إذن مواجهة بين أمتين وحضارتين!.. وكل يستجمع لها أقصى ما لديه من امكانيات.. وبعث عمر إلى مختلف أقاليم الدولة وولاتها أن «ينتخبوا ويختاروا جيش القادسية من خيار العرب».. فكل قبيلة تقدم أبرز رؤسائها وأمهر مقاتليها وفرسانها وخير خيولها وأمضى سيوفها، وكذلك تصنع القرى والمدن في مختلف الأنحاء.. بل لقد احتشد في هذا الجيش، أيضا، أصحاب الرأي، والشرف، والسلطة، والخطباء، والشعراء، والحكماء!.. وضم عمر إليه أكثر من سبعين مقاتلاً من الذين شهدوا غزوة بدر!.. وأكثر من ثلثمائة من صحابة الرسول!.. وسبعمائة من أبنائهم، وثلثمائة من الأبطال الذين شهدوا مع الرسول فتح مكة!.. حتى لقد أصبح هذا الجيش خلاصة الأمة العربية المسلمة.. وكتب الذين شهدوا جنوده عن المزايا التي تحلوا بها، فقالوا إنهم لم يروا فيه من يتصف بصفة من ثلاث: الجبن، أو الغدر، أو الغلول -[اختلاس الغنائم والأموال]-!..

ولقد استغرقت عملية الحشد والانتخاب والاستعداد هذه ثلاثة أشهر، عسكر أثناءها سعد بن أبي وقاص في [الثعلبية] على طريق مكة.. وعندما اكتمل له الاستعداد أوصاه الخليفة بأن يتبع سنة الرسول في المساواة بين الناس، والوفاء بالأمان لمن طلبه من العجم، وحذرهم من الغدر وعدم الوفاء بعهود الأمان..

وزحف الجيش بقيادة سعد بن أبي وقاص، إلى العراق..

* * *

وعندما اقترب الجيش العربي من مواقع الفرس، كان المرض قد اشتد على المثنى بن حارثة الشيباني وقبل أن ينقلوه إلى منازل أهله حرص على أن

يكتب إلى سعد بن أبي وقاص بخبرته في قتال الفرس، ويقدم له مشورته حول المعركة المنتظرة، ورشح لـه المكان الـواقع بين القادسية ونهر العذيب معسكـراً لجند المسلمين.. وانضم جيش المثنى إلى جيش سعد، وأصبح في هذا الجيش كثيرون من الأبطال الذين شهدوا أيام العرب ومواقعهم ضد الفرس، حتى قبل ظهور الإسلام!.. وانضم إليه، كذلك، عديد من فقراء الفرس، دون أن يدخلوا في الإسلام، وقبائل عربية كثيرة، كانت دياناتها المسيحية، فأصبح الجيش المسلم، جيشاً للعرب بأديانهم المتعددة، بل وجيشاً لكل الثائرين على ظلم الفرس واستبدادهم واقطاعهم ونظامهم الطبقي القاسي والرهيب!.

وفي مواجهة المائتي ألف فارسي، عسكر، عند القادسية، أكثر قليلاً من ثلاثين ألفـاً، تمثلت فيهم خلاصـة العرب يومئذ، يقودهم سعـد بن أبي وقاص!..

* * *

لكن الخليفة الذي كان يود أن يقود المعركة بنفسه، لم يكتف بما بذل في الإعداد لها من جهود، فلقد خطط أن يشارك في القيادة، يوماً بيوم، وعلى نحو يكاد أن يكون مباشراً، رغم وجوده في المدينة!.. فكان يخصص وقته من الصباح حتى منتصف النهار لجمـع الأخبار عن جيش القـادسية، وتحليلهـا ودراستها مع الصحابة والمشيرين.. وكان يتوق إلى الإسهام بالرأي في تفاصيل الإعداد للقاء الفرس وقتالهم مع قائد الجيش سعد بن أبي وقاص، لكن طبيعة ميدان المعركة وتضاريس أرض القتال ومواقع العدو وأنواع الأسلحة لم تكن معلوماتها متوفرة لديه، فكتب إلى سعد بن أبي وقاص يطلب منه أن يكتب له بكل ما لديه من التفاصيل، حتى يضع أمامه صورة خريطة للميدان ومن فيه وما فيه، كي يتيسر له الإسهام بالرأي والتوجيه!.. وجاء في رسالة عمر إلى سعد: «.. إنه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به إليك: قلة علمي بما هجمتهم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم.. فاكتب إلي: أين بلغك جمعهم؟ ومن رأسهم ـ [قائدهم] ـ الذي يلي مصادمتكم؟ وصف لنا منـازل ـ [مواقع] ـ المسلمين والبلد الذي بينكم وبين [المدائن] صفة كأني أنظر إليها!

واجعلني من أمركم على جلية -[بينة]-!...»... فكتب سعد إلى الخليفة بكل التفاصيل، وصف له المدن، والخنادق، والطرق، والجبال، والأنهار، والقادة، والناس، والسلاح... الخ.. الخ... وكانت المراسلات تتم يوميا بين الخليفة وسعد... حتى لنستطيع أن نقول: إن عمر بن الخطاب قد أقام بالمدينة «غرفة عمليات»، ووضع أمامه فيها خريطة لأرض معركة القادسية، وجعل يضيف إلى هذه الخريطة يوما بيوم كل ما يحدث على واقعها من تغيرات، وبذلك استطاع أن يسهم إسهاماً حقيقياً في قيادة القتال وهو على مسافة شاسعة من ميدان هذا القتال!..

فهو يكتب إلى سعد لينظم المقاتلين: عشرة، عشرة.. ولكل عشرة قائد.. وأن يعين الأمراء على: المقدمات، والميامن، والمياسر، والمجنبات، والساقات -[المؤخرة]-، والطلائع، والمشاة، والفرسان الخ.. الخ... ويحدد له ترتيب المقاتلين: فالأمير، يليه امراء الجماعات -[المقدمات، والميامن، والمياسر.. الخ]- يليهم أمراء العشرة، يليهم أصحاب الرايات، يليهم رؤساء القبائل.. الخ.. الخ..

وعندما تأتيه أنباء القتال بأسماء الذين أبلوا فيه بلاء حسناً، يرسل الجوائز؛ خيلاً وسيوفاً إلى الفرسان المبرزين!.. فيشعر المقاتلون أن أمير المؤمنين معهم في الميدان!..

ولم يكن الخليفة وحده هو الذي يعيش بكيانه وطاقاته تلك المواجهة الحاسمة بين العرب والفرس في القادسية، بل كانت معه في ذلك الأمة كلها.. حتى ليحكي المؤرخون أن الناس قد علقوا ثبات الدولة وزوالها على نتائج تلك المعركة، وأصبحت في كل بلد جماعة تخصصت في جمع أخبار القادسية وإبلاغها إلى عامة الناس!.. بل لقد علق الناس الكثير من أمور حياتهم عليها «حتى إن الرجل يريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى ما يكون من أمر القادسية»! -كما يقول المؤرخون-..

كانت معركة مصيرية، حشدت لها الأمة خير ما عندها.. وتعلقت بنتائجها الآمال والأفكار والمصائر والمشاعر والقلوب!..

وقبل أن يبدأ الصراع بأدوات القتال، بدأ بأدوات الفكر.. فلقد كانت للإسلام تقاليد مرعية: أن يبدأ المسلمون بدعوة عدوهم إلى الإسلام أو المسالمة، أولاً.. فإن أبى فالقتال.. وطلب الخليفة من سعد بن أبي وقاص رعاية هذه السنة، فبعث وفداً إلى ملك الفرس يزدجرد، فلما دعوه إلى الإسلام، غضب، وأمرهم بالإنصراف، قائلاً: لولا أنكم رسل لقتلتكم!.. لكن رستم، قائد جيش الفرس، أرسل إلى سعد يطلب منه أن يبعث إليه من يحاوره.. فذهب المغيرة بن أبي شعبة إلى حيث يجلس رستم في خيمته على سريره الذهبي، وتقدم ليجلس إلى جواره على السرير، فاستنكر الفرس ذلك، لمنافاته لنظامهم الطبقي الذي يجعل لكل طبقة مكاناً محدداً لا تتعداه!.. ومنعوا المغيرة من الجلوس على السرير، فحدثهم حديثاً جذب إلى العرب قلوب الطبقات الفارسية الفقيرة، وأغضب الأثرياء والاقطاعيين والمستغلين.. قال لهم: «إنا، معشر العرب سواء ـ[متساوون]ـ، لا يستعبد بعضنا بعضاً.. ولقد ظننت أنكم تتساوون مع قومكم، كما نتساوى.. ولقد كان الأحسن ـ بدلاً من أن تمنعوني الجلوس على سرير قائدكم ـ أن تخبروني أن بعضكم أرباب لبعض؟!.. إن هذا الأمر لا يستقيم، ونحن لا نصنعه.. ولقد تيقنت الآن أن أمركم مضمحل، فليس يقوم ملك على هذه السيرة، ولا على هذه العقول..»؟!... ولما سمع الفرس قول المغيرة، قال فقراؤهم: «صدق هذا العربي»! أما الأغنياء فتوجسوا خيفة من هذه البذرة الثورية التي بذرها في أرضهم، وقالوا: «والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه!. قاتل الله أسلافنا، ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون من أمر هذه الأمة العربية»؟!.

ثم تحدث رستم إلى المغيرة بمنطق ملوك الفرس مع عرب العراق قديماً قبل ظهور الإسلام، فحدثه عن أن الفقر والحاجة هي سبب خروج العرب للقتال، وأن باستطاعتهم أن يأخذوا لأنفسهم طعاماً ولدوابهم أعلافاً ويعودوا إلى وسط شبه الجزيرة تاركين العراق في أيدي الفارسيين.. لكن المغيرة حدثه عن الإسلام، وما أحدثه في العرب من انقلاب، وأسمعه كلمات القائد سعد بن أبي وقاص: «إن الله تعالى أحيانا بالإسلام، وأحيا به قلوباً كانت

ميتة، وأمات به قلوباً كانت حية»! ودعاه إلى أن يكون مع الأحياء فأبى، وتوعد المغيرة والعرب بالإبادة عندما يرتفع ضحى الغد، وأقسم على ذلك بالشمس والقمر! فانصرف المغيرة وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله!..

ولقد تكرر الحوار بين الأمتين والحضارتين مرة أخرى، عندما خرج رستم يتفقد جنوده، وأرسل إلى واحد من سادات العرب وأشرافهم في الجاهلية، هو زهرة بن عبد الله بن الجوية التميمي ـ وكان قد لقي الرسول وأسلم وجاء اليوم ليقاتل الفرس تحت قيادة سعد بن أبي وقاص ـ أرسل إليه رستم ليحاوره، فلقيه، ودار بينهما حوار تأكد للفرس من خلاله أن أخطر ما يهدد نظامهم ليس التوحيد الديني الذي جاء به الإسلام، ولكن: المساواة بين الناس!.. بدأ رستم الحوار:

ـ أنتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا.. وكان لهم في ذلك معاش!.

ـ صدقت، لكن أمرنا اليوم ليس كأمر أسلافنا، لقد بعث الله إلينا رسولاً، فدعانا فأجبناه.. وقال لنبيه: إني قد سلطت هذه الأمة على من لم يؤمن بديني.

ـ وما هو هذا الدين؟

ـ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله.

ـ حسن!.. وأي شيء أيضا؟

ـ والناس، بنو آدم وحواء، سواء.. إخوة لأب وأم!

ـ أما هذه فإن أهل فارس منذ أن تولى عليهم الملك أردشير وحتى اليوم لا يتركون أحداً من طبقة السِّفلة يخرج من نطاق طبقته، وذلك حتى لا يعادوا الأشراف!..

ـ لكننا لا نستطيع أن نكون كما تقولون!..

وهنا دعا رستم رجالات فارس، فعرض عليهم الفكر الاجتماعي الذي

يبشر به الإسلام في المساواة بين الناس، فهاجوا وماجوا.. وصمموا على القتال!..

وكما عبأ رستم أشراف الفرس وأغنياءهم عندما خوفهم من فكر الإسلام الاجتماعي.. أخذ سعد بن أبي وقاص في تعبئة جنده، بتذكيرهم بتاريخ قومهم مع الفرس فيما قبل الإسلام، وبما لهم من ثأر.. وبما للعرب من تقاليد في الشجاعة والفداء لا يرقى إليها الفرس مهما حشدوا وأوعدوا.. ولقد ألف للتعبئة فريقاً ضم أهل الرأي والنجدة والشعراء الخطباء.. فحدثوا الناس عن الإسلام الذي وحد العرب بعد التمزق والعداوات.. وعن المهمة التي تنتظرهم بفتح فارس كما فتح إخوانهم الشام.. وعن أن التنافس الحق والمشروع إنما يكون في الجهاد... وتحدث المؤرخون عن أن فريق التعبئة هذا كان يقرأ على الجند أفكاراً صاغوها وسموها «سورة الجهاد»!.. ففعلت فعلها في قلوب المقاتلين حتى زاد شوقهم للقاء الأعداء!..

* * *

واشتعل القتال بين الفريقين في معركة ندر أن سجل مثيلاً لها تاريخ العرب في الحروب والفتوحات.. ودام اشتعال القتل والقتال عدة أيام:

● ففي اليوم الأول ـ ويسميه المؤرخون [يوم أرماث] ـ هيأ سعد بن أبي وقاص جنده للقتال، بعد صلاة الظهر بنداء [الله أكبر].. كبر أربع مرات، وهم يرددون بعده التكبير.. وفي كل مرة يرفعون من درجة استعدادهم للقتال.. ولقد قال لهم: «إذا كبرت الرابعة شدوا النواجز على الأضراس، واحملوا وازحفوا جميعا حتى تخالطوا الأعداء»!.. ففعلوا، وبدأت المبارزة بين أبطال الفرسان..

وفي هذا اليوم لقى المسلمون من الفرس مكائد لم يتعودوها في القتال، وواجهتهم أسلحة لم تواجههم من قبل.. فالفرس قد زرعوا تحت أقدام خيل المسلمين المسامير!.. وربطوا خيلهم هم بعضها إلى بعض كي يمنعوها من الفرار!.. ثم دخلت الفيلة المعركة، على كل فيل تابوت به عشرون رجلا..

والخيل إذا رأت الفيلة، وقد توحشت من منظر الميدان وجو الحرب، أحجمت، ونفرت.. مما أدى إلى تفرق كتائب العرب الفرسان، حتى كادت بعض القبائل العربية ـ مثل بجيلة ـ أن تفنى.. لكن سعد بن أبي وقاص أسرع فأرسل من يتعلق بأذناب الفيلة، ويقطع أحزمة توابيتها، فسقطت التوابيت بمن فيها من الرجال، الأمر الذي أربك حركتها، وجعل يوم القتال الأول يمضي بخسارة في الصف العربي عن الممكن تعويضها باستخلاص العبر والدروس!..

وحل الظلام، فتوقف القتال.. وكانت الليلة الأولى التي سماها المؤرخون [ليلة الهدأة] لهدوءها وخلوها من القتال!..

● وفي اليوم الثاني ـ ويسميه المؤرخون [يوم أغواث] ـ بدأ القتال منذ الصباح.. وكانت معركة للفرسان دامت حتى منتصف النهار، ثم زحف المشاة فالتحموا في القتال من منتصف النهار حتى منتصف الليل!.. وفي هذا اليوم دارت الدائرة على الفرس.. فالفيلة لم تشارك في القتال، لأنهم كانوا لا يزالون يصلحون لها التوابيت التي حطمها العرب بالأمس.. وأكثر من هذا فلقد ابتكر العرب سلاحاً يشبه الفيلة! وذلك عندما صنعوا «هوادج» حملوها على ظهور الإبل، وألبسوها كسوة مجللة مبرقعة، وحملوا على كل واحد منها عشرة رجال، وانطلقت هذه الإبل بين صفوف الخيل الفارسية، فكانت تنفر من الخيل، وتحاول الهرب من السلاح، فتحدث في صفوف فرسان الفرس من الارتباك أعظم مما أحدثته بالأمس الفيلة في صفوف الفرسان المسلمين!..

ولم تكن ليلة ذلك اليوم هادئة كيوم أرماث، بل كانت حافلة بالقتال.. ولذلك سماها المؤرخون «ليلة السواد»!.. وكانت حصيلة [يوم أغواث]: قتل جمهور كبير من أعلام المقاتلين والفرسان في الجيش الفارسي.. حتى لقد بلغ قتلاهم وجرحاهم فيه عشرة آلاف!..

● وفي اليوم الثالث ـ ويسميه المؤرخون [يوم عماس] ـ استعد الفريقان للقتال، وكانت الأرض بين الصفين المتحفزين قد اصطبغت بالدم في مسافة

بلغت الميل في الطول! وقال المؤرخون عن لونها أنه «كالرجلة الحمراء». .

بدأ القتال. . وأبصر المسلمون مدداً يأتيهم من إخوانهم الذين انتصروا على الروم في الشام. . وكان المدد يصل إلى أرض المعركة على دفعات. . مائة بعد مائة، فيشتد أزرهم، وتقوى عزيمتهم، وتزيد في النصر الآمال. .

وكان الفرس قد أصلحوا توابيت الفيلة، وجاءوا بها إلى ساحة القتال، لكنهم أحاطوها بالحراس الذين يحرسون أحزمة توابيتها، ولقد أدى وجود هؤلاء الحراس من حول الفيلة إلى شل غرائزها المتوحشة لحرمانها من الإنفراد والانطلاق، فضعفت فاعليتها في إرباك فرسان المسلمين. . وكان سعد بن أبي وقاص قد استعلم من الفرس الذين أسلموا وانضموا إلى الجيش العربي عن أنجح السبل في كسر شوكة الفيلة في القتال، فأخبروه أن مقاتل الفيلة في العيون والأشفار، فاختار من المقاتلين المهرة من اقتحم الميدان فطعن الفيلين اللذين كانا يقودان باقي الفيلة في عيونها وقطع مشافرهما، ففرا مسرعين، واخترقا صفوف الفرس، ومن خلفهما كل الفيلة. فأحدثوا ارتباكاً شديداً في صفوف الأعداء!. . ولم تتوقف هذه الفيلة الهاربة إلا في عاصمة الفرس: [المدائن]!. .

وانتهى [يوم عِماس] بتكافؤ الفريقين في نتائج القتال.

● ثم كانت [ليلة الهرير]. . ـ وهي التي أعقبت [يوم عِماس] ـ وفيها تصاعد القتال إلى ذروة لم يصل إليها من قبل. . حتى ليحكي المؤرخون أن صليل حديد آلات القتال وسيوفه قد حاكى صوت صناع الأدوات الحديدة ـ [القيون ـ الحدادين]! ـ وقاتل الجيشان حتى الصباح. . واستغرق الجنود في القتال حتى لقد منعهم عن الكلام، وحل محل الكلام عندهم: الصوت الزاجز الذي يحاكي زئير الأسود. . والعرب تسميه «الهرير» ولذلك سموها [ليلة الهرير]!. . ولقد بلغ تلاحم الجيشين في القتال إلى الحد الذي خفيت فيه معالم سير المعركة عن كل من رستم وسعد بن أبي وقاص. . حتى كان الصباح فعلم سعد أن كفة المسلمين كانت الأرجح على كفة الأعداء!. .

● وأخيراً.. كان [يوم القادسية].. ولم يفصل بين بدء القتال فيه وانتهائه في [ليلة الهرير] سوى ساعة، استراح فيها المقاتلون، وتهيأوا لاستئناف القتال!.. فلما كانت ساعة الظهر من هذا اليوم أصبح النصر في متناول العرب، فشقوا قلب الجيش الفارسي، ووصل فرسانهم إلى حيث خيمة القائد رستم وكانت الريح العاصفة قد دخلت الحرب هي الأخرى، فهبت واقتلعت الخيمة!.. وحاول رستم الفرار فألقى بنفسه في نهر العتيق، فطارده الفارس العربي هلال بن علفة، فأمسك به، وقتله.. ثم صعد على سريره الذهبي وصاح: قتلت رستم ورب الكعبة!.. فكبر المسلمون، شكراً لله وفرحاً بالنصر، وحملوا السرير وطافوا بفارسهم الذي قتل قائد الجيش الامبراطوري، بينما كانت فلول الجيش الفارسي تعبر النهر هرباً، يقودها ملك من ملوكهم اسمه «الجالينوس» مخلفة وراءها عشرة آلاف قتيل جديد!..

وكان يوم القادسية هذا يوم الحسم في المواجهة التي دارت على تلك الأرض بين دولة إقطاعية ذات نظام طبقي ظالم وفكر مثقل بالكهنوت والاستغلال، وبين أمة شابة، خرجت جيوشها لتحرر الأرض والإنسان، ولتجدد شباب الدنيا بعدالة الإسلام ومساواته وفكره الديني المتسامح والبسيط.

وبعد نصر القادسية هذا انفتحت أبواب فارس، مدينة بعد مدينة وحصناً وراء حصن، أمام العرب. فتحوا [حلوان].. و[المدائن] ـ عاصمة الفرس ـ ثم [جلولاء].. وكلها مدن عربية، في العراق العربي.. حرروها بعد أن ظلت في الأسر الفارسي عدة قرون!..

ولقد تغيرت بهذا النصر في القادسية ـ ومن قبله بنصر «اليرموك» في الشام ـ صورة الأمم ومراكز الشعوب في الشرق.. فمن قبلهما كان العرب مستضعفين تفترسهم المخاطر والتحديات، وكانوا يقولون ـ كما يحكي المؤرخون ـ عن فارس: «فارس الأسد» وعن الروم: «الروم الأسد»!.. أما بعد هذا النصر فلقد قالوا عن عرب ربيعة ـ الذين أبلو في القادسية أحسن

البلاء ـ: «ربيعة الأسد»؟!.. فحدث التحول في مكانة العرب في التاريخ، وأصبحت لهم القيادة في الشرق بدلاً من الفرس والروم!..

* * *

ولقد كانت ليوم القادسية صوره التي ذهبت نماذج في البطولات والفداء..

● فالفارس العربي «أبو محجن الثقفي» كان معدوداً ومبرزاً بين الفرسان.. ولكنه كان عاشقاً للخمر، يشربها رغم تحريمها في الإسلام!.. ولقد نفاه عمر بن الخطاب من المدينة لشربه الخمر.. ثم التحق بجيش القادسية كي يشارك في القتال.. ولكنه عاد فشرب الخمر هناك، فغضب منه سعد بن أبي وقاص، وضربه، وحبسه في قصره ـ «قصر العذيب» ـ فلما اشتعل القتال، وحميت المعركة، أبصر أبو محجن، من محبسه، ما يلاقي المسلمون من تفوق الفرس في العدة والعتاد، فتاقت نفسه للجهاد، فتوسل إلى «زبراء» زوجة سعد بن أبي وقاص أن تطلق سراحه، وتعطيه فرس سعد كي يشارك في القتال، وأقسم لها أنه سيعود بعد أداء دوره كي يضع قدميه في الحديد من جديد!.. واستجابت «زبراء» لطلبه، فاخترق أبو محجن صفوف الفرس، وقاتل قتال الأبطال، وحطم الفيل الأبيض الذي كان يقود الفيلة التي تحدث الارتباك في صفوف الفرسان المسلمين.. ورآه سعد بن أبي وقاص من موقع قيادته، تساءل، حائرا: من هذا الفارس؟ ثم قال: أما الفرس ففرسي، وأما الحملة فحملة أبي محجن؟!.. وبعد المعركة وجد سعد أبا محجن في محبسه وقيده، لكن زوجته قصت عليه القصة، فقال لأبي محجن: والله لاضربنك في الخمر! بعدما رأيت منك، أبدا!.. فأجابه أبو محجن: وأنا، والله، لن أشربها أبدا؟!..

● وشهدت ساحة القتال كثيرا من المقاتلين والفرسان يعرضون أنفسهم على الموت، ويلحون إلحاحاً شديداً في طلب الشهادة، وهم في خلال ذلك ينجزون أخطر المهام ويصنعون في الحرب المعجزات!.. فأكثر من فارس قد

اخترق صفوف الفرس وحواجزهم طالباً خيمة القائد رستم كي يجهز عليه..
و «علباء بن حجش العجلي» يتقدم كي يبارز بطلاً من أبطال الفرس، فيصيب كل منهما الآخر.. ويموت الفارس من فوره، لأن الطعنة قد أصابت رئته.. على حين يظل «علباء» حياً، بعد أن فتحت بطنه وبرزت منها الأمعاء!..
ويجاهد البطل ليدخل أمعاءه إلى بطنه فلا يستطيع، فيستعين على ذلك بأحد المسلمين، ثم يمسك جلد بطنه بإحدى يديه، وسيفه بالأخرى، وبدلاً من أن يرجع إلى صفوف المسلمين يتقدم كي يقاتل الأعداء!.. ثم يموت وهو ينشد متحدثاً عن الطعنة التي يعاني منها:

أرجو بها من ربنا ثواباً　　　قد كنت ممن أحسن الضرابا!..

● والمؤذن... يقف على مرتفع من الأرض ليؤذن لصلاة الظهر فتصيبه سهام الأعداء!.. لكن المسلمين، بدلاً من أن يَسْتَخفّوا بالأذان، يتسابق كل منهم يريد أن يصعد إلى المكان المرتفع كي يتحدى سهام الفرس ويؤذن للصلاة! حتى لقد أوشكوا، من التنافس على ذلك، أن يقتتلوا بالسيوف!..
ولم يجد سعد بن أبي وقاص غير «القرعة» سبيلاً يختار بها من بينهم من له شرف الأذان للصلاة، تحت مرمى سهام الأعداء!..

● والمرأة العربية.. لقد كان لها في القادسية دور كبير.. فسلمى بنت خصفة كانت زوجة للقائد المثنى بن حارثة الشيباني.. فلما مات تزوجها سعد بن أبي وقاص.. فوقفت إلى جواره وهو يقود المعركة.. وعندما رأت كفة الفرس قد رجحت ـ في بعض مراحل القتال ـ أخذت تستفز سعداً، وتحرضه، بل وتتحدث عن شجاعة المثنى التي تفتقدها فيه؟!ـ

وهذه المرأة العجوز من بني النخع، خرجت مع أبنائها الأربعة إلى ساحة القتال.. فحدثتهم عن إسلامهم الصادق، وهجرتهم المخلصة.. وقالت لهم: إنهم قد خرجوا للجهاد، ولم يخرجوا لجمع المال كما يفعل الجياع، وإنهم بعد أن وضعوها ـ وهي العجوز ـ بين يدي أهل فارس، فلا بد أن يقاتلوا قتال الأبطال الجديرين بأمومتها: «... ما خنت أباكم، ولا فضحت

خالكم!.. انطلقوا فاشهدوا القتال وشاركوا فيه من أوله حتى آخره..»!..
وعندما كان يغيب عنها أولادها لم تكن تجزع، وإنما كانت تتوجه إلى الله بالدعاء: «اللهم ادفع الخطر عن بنيّ»!.. وكان الفرسان الأربعة يعودون إلى أمهم بنصيبهم من الغنائم فيلقونه في حجرها، فتقسمه بينهم على نحو يرضى عنه ويسعد به الجميع!..

وبين جولات القتال، وفي فترات الهدوء على ساحته كانت النساء العربيات، ومعهن الصبيان يشدون الأحزمة على الثياب، وتحمل النساء الهراوات، ويحمل الصبيان آواني الجلد الصغيرة -[الأداوي]- المليئة بالمياه، ثم ينزلون جميعاً إلى ساحة المعركة.. الصبية يسقون جرحى المسلمين، والنساء ينقلن هؤلاء الجرحى لتمريضهم ومداواة جراحهم.. ثم يجمعون جثث الشهداء ويحفرون لها القبور ويوارونها التراب.

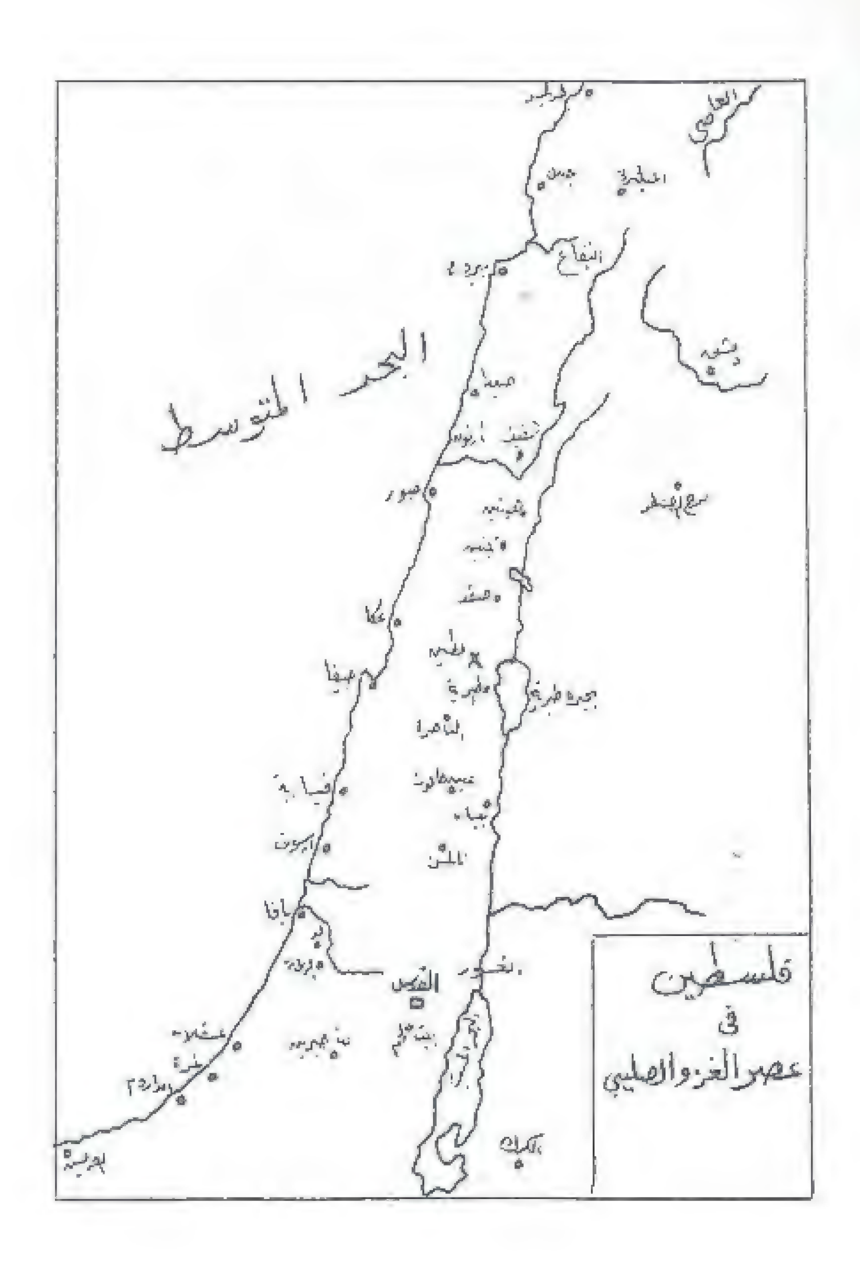
* * *

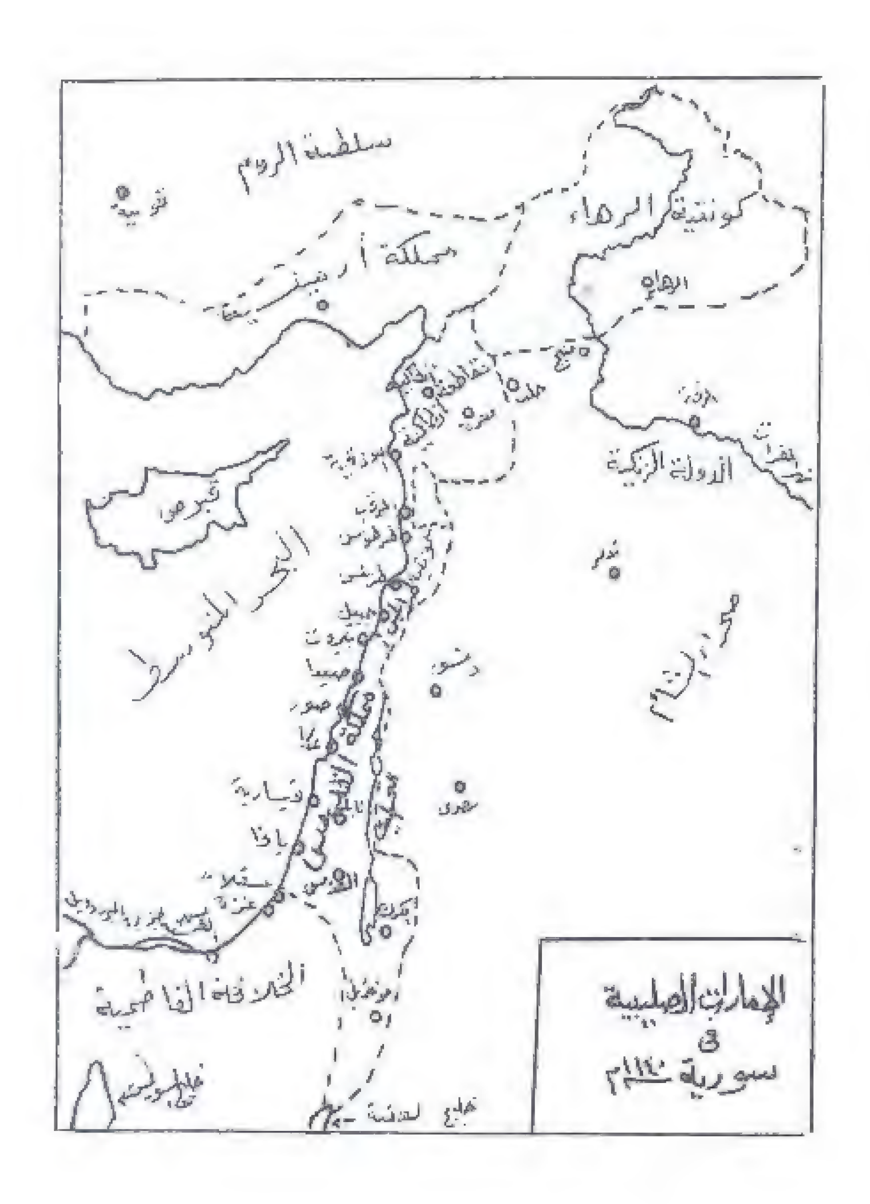
وأخيراً وصل البشير بأخبار نصر القادسية إلى عمر بن الخطاب فحمد الله على أن فتح العرب باب فارس المنيع الخصيب!..

ووصلت نفس الأخبار إلى يزد جرد بن شهريار، في [المدائن]، فقرر الهرب، فدلوه من قصره، سرا، في «زبيل» -[قفة]- حتى سماه الناس «برزبيلا» -! فهرب ومعه أمواله وأهله وكبار رجالات دولته!.. ذلك أن فتح باب القادسية قد فتح أمام العرب كل الأبواب.. حتى لقد قال الفرس بعضهم لبعض عندما أبصروا خيل العرب تسبح الأنهار وتصعد الجبال: «والله ما تقاتلون إلا جنا»! فانهزموا -بالرعب- بعد أن انهزموا بالقتال!..

وكان لا بد أن ينهزموا بعد أن واجهوا في القادسية فرساناً ومقاتلين أصبحت الشهادة عندهم أحب من الحياة، حتى لقد يلحون في السعي للاستشهاد، بل ويودون أن لو كانت لهم أجنحة الطيور لتسرع بهم إلى لقاء الأعداء:

تحن بباب القادسية ناقتي   وسعد بن وقاص عليّ أمير
تذكّر، هداك الله، وقع سيوفنا   بباب قُديْس والمكَرّ عسير
عشية ودّ القوم لو أن بعضهم   يُعار جناحَيْ طائر فيطيرا


فلسطين
في
عصر الغزو الصليبي
البحر المتوسط
بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
قيسارية
أرسوف
يافا
اللد
الرملة
عسقلان
غزة
القدس
بيت لحم
الناصرة
طبرية
بحيرة طبرية
دمشق
الكرك



الإمارات الصليبية
في
سورية ١١٤٠م
سلطنة الروم
مملكة أرمينية
كونتية الرهاء
الرها
الدولة الزنكية
حلب
قبرص
البحر المتوسط
اللاذقية
طرابلس
جبيل
بيروت
صيدا
صور
عكا
قيسارية
يافا
عسقلان
غزة
القدس
دمشق
تدمر
صحراء الشام
الخلافة الفاطمية
خليج السويس
خليج العقبة



فارس صليبي بالدرع .. يمسك بيده اليمنى
رمحاً طويلاً وباليد الاخرى درعاً مستديرة



فارس صليبي بعدته وحصانه



صلاح الدين الأيوبي

[٥٣٢ - ٥٨٩ هـ ١١٣٧ - ١١٩٣ م]

معركة حطين

[٥٨٣ هـ ١١٨٧م]

عجيب أمر هذا الغرب الاستعماري، يلجأ دائماً إلى حل مشكلاته والتغلب على متناقضاته بواسطة الآخرين وعلى حساب الآخرين... فالنازيون في ألمانيا يشجعون الهجرة اليهودية إلى فلسطين كسبيل للتخلص من اليهود في ألمانيا الهتلرية.. ويتواطأ معهم في ذلك الصهيونيون.. وبعد ذهاب النازية تسهم أنظمة الحكم الاستعمارية، سواء تلك التي حملت لواء معاداة السامية، أو صمتت أو شاركت في هذا اللون من النشاط، يسهم كل هؤلاء في «حلّ المشكلة» على حساب الأمة العربية، بإقامة الدولة الصهيونية على أرض فلسطين، فيحلون مشكلاتهم، ويحاول البعض منهم «تطهير» مجتمعاتهم من اليهود على حساب الأمة العربية وشعب فلسطين؟! وذلك إلى جانب الأهداف الأخرى للاستعمار والامبريالية من وراء إقامة هذا الكيان..

والأمر الأكثر عجباً وإثارة للاستغراب أن هذا الموقف من الغرب الاستعماري ليس حديثاً، بل لقد سبقته مواقف مماثلة حاول فيها هذا الغرب الاستعماري حل مشكلاته والتغلب على متناقضاته على حساب بلاد الشرق ومجتمعات الشرقيين.. وقصة الحروب الصليبية التي بدأت في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي فصل قديم في هذه القصة التي نشهد اليوم مأساتها الدامية على أرض فلسطين.

الشرق يحل مشكلات الغرب

ففي أواخر القرن العاشر الميلادي، كانت الحضارة العربية قد ازدهرت، وتسرب فكرها الفلسفي والعلمي إلى أوروبا عن طريق بلاد الأندلس، وسبب هذا الفكر العقلاني انزعاجاً شديداً للدوائر الكنسية المتخلفة التي كانت تستثمر ظلام العصور الوسطى في تأييد الخرافة وإحكام سيطرتها على عقول الناس. . . وكانت الدولة الفاطمية قد جعلت عاصمة خلافتها في مصر، فعاد لهذا البلد دوره التاريخي عندما صار، لأول مرة منذ الفتح العربي، «عاصمة» للخلافة، بعد أن كان مجرد «ولاية» تتبع «المدينة» أو «دمشق» أو «بغداد». .

وفي ذات الوقت كانت أوروبا تشهد صراعات لا تنتهي بين أمراء الإقطاع. . هؤلاء الأمراء الجهلة الذين لم يكونوا يحسنون شيئاً سوى الفروسية وأعمال القتل والسلب والنهب والتدمير. . . في الشرق حضارة وأمراء يشتغلون بالفكر والثقافة، بل والفلسفة والفلك والرياضيات، أو على الأقل يجعلون من بلاطاتهم وبيوتهم حلقات للعلم والعلماء. . وفي الغرب ظلمة العصور الوسطى تلمع فيها سيوف أمراء الإقطاع والدماء التي يريقونها في معاركهم وصراعاتهم، بعضهم مع البعض الآخر، على الإمارات و«الدوقات» و«الكونتيات»!! وقرر الغرب أن يحل مشكلاته هذه، ويوجه طاقاته المدمرة تلك إلى الشرق، وذلك كي يوحد هؤلاء الأمراء المتنازعين ضد عدو خارجي هو: «المسلمون» (الكفار)؟! وحتى يقيم في بلاد هؤلاء المسلمين مستعمرات تدر على هذا الغرب «سمناً وعسلاً»، وتأتي إليه بكل ثمرات الاستعمار والمستعمرات. .

وفي أواخر سنة ١٠٩٥م عقد البابا «اربان الثاني»، ذلك الرجل الذي أخذ على عاتقه إذكاء نار الحروب الصليبية، والذي حمل من بين البابوات لقب «البابا الذهبي»!! عقد هذا الرجل مؤتمراً في مدينة «كليرمونت» بجنوب فرنسا، وجمع في هذا المؤتمر أمراء أوروبا الاقطاعيين المتناحرين، ومعهم المجرمون والقتلة واللصوص، وتحدث إليهم في أمر غزو الشرق، وقال لهم فيها

قال: «.. أنتم فرسان أقوياء، ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم.. ولكن، تعالوا وحاربوا الكفار (المسلمين)... يا من تنابذتم اتحدوا... يا من كنتم لصوصا كونوا الآن جنوداً... تقدموا إلى البيت المقدس... انتزعوا تلك الأرض الطاهرة، واحفظوها لأنفسكم. فهي تدر سمنا وعسلاً؟!. إنكم إذا انتصرتم... على عدوكم ورثتم ممالك الشرق..»؟!

وبعد عام واحد من هذا المؤتمر الاستعماري زحف أمراء الإقطاع الأوربيون على الشرق بجيوشهم وفرسانهم، يحملون صليب المسيح، ولكن دون أن يستطيع هذا الصليب ستر الغايات الحقيقية والأهداف المحركة لهذا الزحف الاستعماري الكبير.. فحتى الذين أرخوا لهذه الحروب التي استمرت نحو قرنين من الزمان، حتى الذين أرخوا لها من وجهة نظر الصليبيين رأوها حربا استعمارية غايتها «الدنيا» بما فيها من مال، والشرق بما فيه من خيرات، وليست «الآخرة» والمسيح و «صليبه» سوى ستار للخداع والتمويه..

وفي كتاب من الكتب النادرة اسمه (تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، المدعوة حرب الصليب)، ألفه «مكسيموس مونروند» اعتماداً على روايات وتقارير الصليبيين الذين شاركوا في هذه الحرب أو عاصروها... وترجمه عن الفرنسية البطريرك «مكسيموس مظلوم» سنة ١٨٤١م.. في هذا الكتاب حديث يستحق التأمل عن طبيعة هذه الحرب، وأهداف الأمراء والأشراف والعظماء الأوروبيين من ورائها، وذلك عندما يقول «مكسيموس مونروند»: «... فكثير من الأشراف والعظماء صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة مهنة صناعية لاحتشاد (جمع) الأموال الغنية، بل أن التعطش نحو أخذ الغنائم وحده كان يجذب الجيش إلى المحاربة»(1)؟!

فقديمة إذن تلك «الرواية» التي نشهد اليوم بعض فصولها؟! وليس هو بالأمر الحديث ولا المستحدث أن يتخذ الغرب الاستعماري من «حربه للشرق» «صناعة» «يحشد» بها الأموال ويكدسها في خزائن أغنيائه، سواء أكانوا أمراء

---

(1) [تاريخ حرب الصليب] ج ١ ص ٨٠، ٨١ طبعة القدس سنة ١٨٦٥م.

للإقطاع بالأمس أو ملوكاً للمال في عصرنا الحديث؟!

ماذا صنعوا بالشرق؟!

وفي البداية سقطت بيد الصليبيين أجزاء من المشرق العربي، ومن أرض الشام وفلسطين بالذات، فلقد كانوا يزحفون بجيش من الفرسان لم يكن له في الشرق مثيل، وكانت حضارة الشرق العلمية قد افتقدت القوة العسكرية التي توازيها وتحميها.. ولم يكن نظام الفروسية قد أخذ مكانه بعد في الشرق حتى ذلك التاريخ.. ويلمس المؤرخ المعاصر لتلك الأحداث ـ أسامة بن منقذ ـ في كتابه (الاعتبار) هذه الحقيقة، فيتحدث عن نظام الفروسية عند «الفرنج»، وكيف أنهم لا يمتلكون من الميزات سوى ميزة القتل وشجاعة القتال وسفك الدماء، فيقول ـ بأسلوب عصره ـ : «.. والفرنج، خذلهم الله، ما فيهم من فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم... فالفارس أمر عظيم عندهم...»(1).

ففي الطريق إلى فلسطين كان اللقاء الأول بين الجيش الصليبي بقيادة الأمير «الكسيوس» وبين «السلاجقة» في شبه جزيرة «الأناضول» حيث سقطت في يدهم مدينة «نيقية» في يونيو سنة ١٠٩٧ م.

وفي أوائل سنة ١٠٩٨ م. استطاع الصليبيون أن يقيموا أول إمارة لاتينية في الوطن العربي عندما استولوا على مدينة «الرها» في شمال سوريا والعراق، وحكم هذه الإمارة الأمير «بلدوين» ابن كونت بولونيا.

وبعد حصار دام نحو ستة أشهر سقطت في أيديهم مدينة «إنطاكية» في ٣ يونيو سنة ١٠٩٨ م. وكانت يومئذٍ عاصمة سورية الشمالية، ولعبت خيانة أحد القادة الأرمن دوراً رئيسياً في سقوطها بيد الأمير الصليبي «بوهمند» الذي أقام

---

(1) [الاعتبار] ص ٦٤، ٦٥ طبعة برنستون ـ أمريكا ـ سنة ١٩٣٠م.

فيها ثاني إمارة من إمارات الصليبيين . . .

وفي ٧ يونيو سنة ١٠٩٩ م سار الصليبيون إلى القدس في سبعين ألفاً ، وضربوا من حولها الحصار ، ولم تستطع حاميتها المكونة من ألف جندي مصري أن تقاوم الحصار الذي دام ثمانية وثلاثين يوماً ، فسقطت المدينة بيد الصليبيين في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة ١٥ يوليو سنة١٠٩٩ م ، فاقتحمتها جيوشهم وعلى رأسها عديد من أمراء الإقطاع الأوروبيين ، في مقدمتهم : « جودفري دوبويون » أمير مقاطعة اللورين الفرنسية ، والكونت « تد كريد ريموند » أمير مقاطعة تولوز ، و« ريكاردوس » أمير سالارنوس ، والكونت « فلاندره »، « كيرمونت » ، و« جراد » و« بلدوين » ، والكونت سان جيل » . . . وغيرهم كثيرون . .

دخل الصليبيون « القدس . . مدينة الأنبياء والسلام . . فصنعوا بها وبأهلها ما لا يقره نبي من الأنبياء ولا مؤمن بالسلام . . . وحتى مكسيموس مونروند » ، مؤرخ (حرب الصليب) يتأوه من هول ما صنع الصليبيون بالعرب والمسلمين ، ويقول إن دخول الغزاة إلى المدينة المقدسة قد حدث في نفس ذكرى « اليوم والساعة اللذين فيهما سيدنا يسوع المسيح هناك مات على خشبة الصليب من أجل خلاص العالم » وفي نفس « المكان عينه الذي فيه مخلصنا غفر لصالبيه » صنع الصليبيون من المذابح والمجازر ما لم يسبق له مثيل . . فملأوا المدينة «دماً وزيتاً ودموعاً»؟! ولم يتركوا من سكانها أحداً . . لا من جنس الرجال ولا من جنس النساء ، لا من الشبان ولا من الشيوخ ، ولا من الأولاد ، ولا من العجائز ، بل إن المذبحة أصبحت عامة وذلك لأن « ديوان المشورة العسكرية الصليبي التام (اجتمع) وقطع حكماً مرهباً ، وهو أن يمات (يقتل) كل مسلم باق داخل المدينة المقدسة » . . . وتنفيذاً لهذا الحكم الرهيب ـ ولا تزال المعلومات والحقائق والأسلوب لمؤرخ (حرب الصليب) ـ استمرت الملحمة « مدة سبت (أسبوع) كاملة ، والمؤرخون يتفقون على أن الإسلام (المسلمين) الذين ذبحوا داخل أورشليم (القدس) بلغوا إلى سبعين ألفاً » . . وحتى الذين هربوا إلى جامع عمر ظانين أنهم هناك يحمون

ذواتهم من الموت .. ظنهم قد خاب ، إذ أن الصليبيين ، خيالة ومشاة ، قد دخلوا الجامع المذكور ، وأبادوا بحد السيف كل الموجودين هناك . . . وحسب تقرير « رايموند آجيلاس » (وهو شاهد عيان) طاف الجامع من الدماء ، حتى أنه تحت القناطر التي عند بابه احتقن الدم وعلا إلى حد الركب ، بل إلى حد لجم الخيل » وقال راهب من شهود العيان لهذه المذبحة هو « روبارتوس » : إن جامع عمر « قد استوعب من الدم المحتقن فيه كفى بحر متموج »؟! . . وذلك إلى الحد الذي أثار السخط والاستياء لدى جميع المؤرخين الصليبيين ، الذين يقول عنهم صاحب (تاريخ حرب الصليب) : إنهم « ذموا قساوة هؤلاء الجنود البربرية »[1] .

وينقل المؤرخ العربي محمد كرد علي في كتابه (خطط الشام) كيف تعقب الصليبيون من فر إلى البيوت ، فأكرهوهم « على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ، وجعلوهم طعاماً للنار ، وأخرجوهم من الأقبية وأعماق الأرض ، وجروهم إلى الساحات ، وقتلوهم فوق جثث الآدميين . . . »[2] ؟!

وبعد أن أباد الصليبيون سكان المدينة جميعاً على هذه الصورة المنقطعة النظير ، غيروا معالمها ، وجعلوا من مقدسات المسلمين كنائس ، ومخازن ، بل واصطبلات للخيول ؟! فتحولت فيه الصخرة إلى كنيسة . . أما المسجد الأقصى فلقد تحول جزء منه إلى كنيسة ، وجزء آخر جعلوه مسكناً لفرسان الهيكل (الداوية)، وهم الذين كانوا يتعبدون ويتقربون إلى الله بسفك دماء العرب والمسلمين؟! أما الجزء الباقي فلقد استعملوه مستودعاً لذخائرهم ، وجعلوا سراديبه اصطبلات للخيول والحيوانات؟!

«ولم يخجل الصليبيون ، فرساناً ومشاة، أمراء وصعاليك ، من صنيعهم هذا كما خجل الذين أرخوا هذا الصنيع ، بل كتبوا غداة المذبحة إلى «الباب الذهبي» يقولون لقداسته : «إذا أردت أن تعرف ما يجري لأعدائنا، فثق أنه

(١) [تاريخ حرب الصليب] ج ١ ص ٧١ - ٧٥ .
(٢) [خطط الشام] ج ١ ص ٢٨٢ طبعة دمشق سنة ١٩٢٥م .

في معبد سليمان (جامع عمر) كانت خيولنا تغوص إلى ركبها في بحر دماء الشرقيين»... نعم.. لم يخجلوا من هذا العمل، بل فاخروا به وافتخروا، لأنه كان النموذج الذي احتذوه في كل مكان وطئته أقدامهم على أرض الشام وفلسطين...

* * *

هذا ما صنعوه بالقدس مدينة الأنبياء ورمز السلام... أما ما صنعوه بوحدة الوطن العربي فهو أمر يحكي، هو الآخر، وحدة القانون والاستراتيجية التي يسهر الغرب الاستعماري على تنفيذها في هذا الوطن العربي الكبير..

كانت التجارة العالمية قائمة بين آسيا وأوروبا، وكانت جميع طرق هذه التجارة تمر عبر العالم العربي، من الصين وجزر الهند إلى الخليج العربي فأرض العراق وسورية حتى ساحل البحر المتوسط... أو من هذه البلاد عبر البحر الأحمر فخليج السويس فالنيل فالبحر المتوسط.. وفي كل الحالات كانت هذه التجارة العالمية بيد العرب، تدر عليهم الأرباح، وتجعل لهم وزناً كبيراً في الميزان الدولي، وتشد طرقها وقوافلها خيوط وحدة هذا الوطن الكبير.. وهذا ما كان يجلب لهم حسد البورجوازية التجارية الأوروبية التي كانت قد أقامت المدن التجارية المزدهرة في أوروبا... «جنوه».. «نابلي»... «بيزا»... «البندقية».. الخ.. الخ.. وهذا ما جعل هذه البورجوازية التجارية الأوروبية تضع يدها في يد أمراء الإقطاع وتنضوي في ذلك الحلف الذي أقامه البابا لغزو الشرق، وتقدم القروض المالية لتمويل وتسليح جيوش الصليبيين..

فالإمارات الصليبية التي أقيمت في المشرق العربي قد احتلت منافذ طرق التجارة العالمية التي كانت تمر بهذه البلاد، في الشمال «كونتية الرها»، وعلى الساحل السوري الفلسطيني تمتد إمارات» «أنطاكية» و«طرابلس» و«مملكة بيت المقدس» التي امتدت من لبنان حتى ميناء «أيلة» (إيلات) على خليج العقبة، والتي حكمها «جودفري» تحت لقب «بارون القبر المقدس وحاميه»؟!، فانقسم بذلك الوطن العربي إلى مشرق ومغرب وبينهما فاصل وجسم غريب،

وذلك للمرة الأولى منذ وحدته فتوح المسلمين في النصف الأول من القرن السابع للميلاد؟!

حقا.. لم يستطع الصليبيون أن يبيدوا شعوب الأمة العربية كما أبادوا سكان القدس والمدن التي احتلوها في الشام وفلسطين.. ولكنهم بهذه الإمارات التي أقاموها مزقوا وحدة هذا الوطن، وانتزعوا مفاتيح تجارة العالم من بين يديه... وحتى السفن التجارية التي كانت تأتي آسيا إلى البحر الأحمر فخليج السويس غدت مهددة بقرصنة الصليبيين بعد أن أقاموا لهم أسطولاً في هذا البحر بعد وصولهم إلى مياهه من ميناء «أيلة» عبر خليج العقبة، بل لقد أخذوا يهددون بهذا الأسطول ميناء «عيذاب»، ويستعدون لغزو «الحجاز» وانتزاع رفات الرسول من المدينة ليدفنوه عندهم ويفرضوا الضرائب على المسلمين! إذا هم أرادوا أن يزوروه؟!

ولم يكن هذا هو كل ما حدث.. فلقد فرضت «مملكة بيت المقدس» الصليبية الضرائب على قوافل التجارة العربية بين كل من مصر وسورية والحجاز؟! ثم خطا الصليبيون خطوات أبعد نحو مصر. فاستغلوا شيخوخة النظام الفاطمي بها، وضعفه بعد تحكم الوزراء الضعاف وصراعهم على السلطة، فأخذوا يهددون باحتلالها، ووجهوا إليها بالفعل جيوشهم أكثر من مرة، في سنة ١١٦٣م، وسنة ١١٦٦م، وسنة ١١٦٨م.. واستطاع الصليبيون بهذه الحملات وبواسطة عدد من الوزراء المتنافسين على السلطة في القاهرة من أمثال «شاور» و«ضرغام» و«يحيى بن الخياط» و«ابن قرجلة».. أن يصلوا إلى بعض ما يريدون.. ففي سنة ١١٦٦م استطاع الوزير الخائن «شاور» أن الخليفة الفاطمي «العاضد» على توقيع معاهدة تصبح بموجبها للصليبيين حامية من الفرسان على أبواب القاهرة، وبيدهم أيضا مفاتيح المدينة؟!.. وفي سنة ١١٦٨م صالحهم «شاور» أيضا على الرجوع عن احتلال العاصمة مقابل مبلغ مقداره مليون دينار مصري؟! وبلغ في خيانته إلى الحد الذي كان يسميهم فيه «الفرج» لا «الفرنج»، كما يحكي المؤرخون المعاصرون؟! وإلى الحد الذي أرسل إليهم يقول: «إن هواه مع التسليم لهم، ولا يمنعه من ذلك

إلا الخوف من نور الدين، والعاضد، وعدم موافقة المسلمين»؟!

ونحن إذا شئنا شهادات المؤرخين الذين عاصروا تلك الأحداث على مدى السيطرة التي بلغها الصليبيون على مقدرات الشرق، بما فيه مصر، بعد أن أقاموا فيه إماراتهم اللاتينية، وأرغموا مصر على فتح أبوابها التجارية لهم، والدخول معهم في عمليات البيع والشراء، ثم فرضوا عليها الجزية والإتاوات... إذا شئنا شهادات هؤلاء المؤرخين، كفانا أن نعلم رواية «أبي شامة» في كتابه: (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) التي يحكي فيها كيف قام الصليبيون بإحصاء أرض مصر وقراها، وأعدوا عن خصبها وغلاتها الدراسات، ثم قاموا بتوزيعها على جنودهم عندما ذهبوا إليها غازين سنة ١١٦٨م.. يقول أبو شامة: وكان ملكهم «لعنه الله، لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها، وتعرف له خبر ارتفاعها (دخلها)... وأحضر وزيره، وأمره بإقطاع بلاد مصر لخيالته (فرسانه)، وفرق قراها على أجناده...»[1]؟!

وليس «أبو شامة» هو الذي يقول ذلك وحده. فمؤرخ (حرب الصليب) ينقل عن «غليوم الصوري» المؤرخ صورة السيطرة الاقتصادية للصليبيين على الشرق يومئذ فيقول: «كانت خزائن مصر تحت تصرفنا، وسلطنة أورشليم كانت (آمنة) من جهة البر المصري، ومسلك البحر كان حرا... كما أن موانى أقاليم مصر كلها كانت مفتوحة لقبول مراكبنا، وتجارها كانوا ينقلون إلى موانى بلادنا غلات أراضيها، وهذه المتاجر كانت كلية الفوائد لنا...وكانت الجزية والخراجات توفى لنا بانتظام»[2]؟!

نعم.. كان الشرق قد سقط بيد الغزاة الصليبيين... أمراء الإقطاع أقاموا به أربع إمارات... والبورجوازية التجارية الأوروبية أحكمت قبضتها على التجارة العالمية، وعلى تجارته هو أيضاً... وحولت الرجعية الكنيسة الأوروبية مقدسات المسلمين إلى اصطبلات لخيول الفرسان الذين اتخذوا من

(١) [كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية] ج ١ ص ٤٣٠ طبعة القاهرة الأولى.
(٢) [تاريخ حرب الصليب] ج ٢ ص ٧٦.

القتل والسلب والنهب عبادة يتقربون بها إلى الله؟!... وظن الغرب الاستعماري يومئذ أنه قد حقق النجاح الذي لن يزول.. فلقد وحد الأمراء المتصارعين ضد عدو خارجي، ووجه اللصوص لإبادة المسلمين والعرب.. وضمن السيطرة على الأرض التي تدر سمناً وعسلاً لحسابهم جميعاً: الأمراء، والتجار، واللصوص، على السواء؟!

العرب يستيقظون

وأمام هذا الخطر المدمر الذي ألم بالشرق وأحدق بالحضارة العربية الإسلامية استيقظت في الوطن العربي روح المقاومة، وأنبتت الأرض نبتاً ملائماً لذلك الخطر في النوع والكفاءة والأدوات؟! فلقد كان الصليبيون فرساناً جفاة لا يمتلكون سوى الشجاعة والقدرة على سفك الدماء... فاستثارت صفاتهم هذه روح الفروسية في الشرق، فظهرت فيه موجة من نظم الحكم والجيوش والمؤسسات التي كان عمادها الفرسان، وعلت هذه الظاهرة في الشرق وتقدم أصحابها فتسلموا زمام الأمور من العلماء والفلاسفة والحكماء طوال قرون العصور الوسطى، أي منذ أن قامت تلك الدولة العربية ذات الأصول التركية ـ الدولة الزنكية ـ في «الموصل» بأرض العراق سنة ١١٢٧م وحتى سقوط نظام المماليك في قلعة القاهرة على يد محمد على سنة ١٩١١م؟!

تأسست في «الموصل» الدولة الزنكية على يد «عماد الدين زنكي»، وكان قوامها هم الفرسان المحاربون الذين أخذت هذه الدولة في إعدادهم لملاقاة الصليبيين وتحرير الأرض من استعمارهم الاستيطاني الغريب... ولكن فروسية الشرق العربية لم تكن مجرد شجاعة ومهارة في القتل والسلب والنهب كما هي عند الصليبيين، بل كانت فروسية عربية ذات سمات وشمائل تنبع من القيم الروحية والمشاعر الإنسانية التي صنعتها حضارة هذا الوطن العريق.. فكانت هذه الفروسية العربية عشرة خصال يتربى عليها ويتخلق بها الفرسان المحاربون..: التقوى.. والشجاعة.. ورقة الشمائل.. والصبر.. ومراعاة الجوار.. والمروءة.. والكرم.. وحسن الضيافة.. ومساعدة النساء والأرامل..

والوفاء بالعهود.. فبهذا اللون من الفروسية، وبهذا النوع من الفرسان قرر الوطن العربي أن يتصدى لموجة الفروسية الصليبية اللاتينية، تلك التي مثلها «فرسان» الإقطاع الأوروبي، الذين وصفهم «أسامة بن منقذ» بقوله: «إنهم بهائم، فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير»[1]؟!

وفي سنة ١١٤٤م استطاع عماد الدين زنكي أن يحرر شمال العراق وسوريا من الاحتلال الصليبي، وأن يزيل «كونتية الرها» الصليبية من الوجود.. وبعد وفاة عماد الدين تولى الحكم ابنه الشهيد نور الدين سنة ١١٤٦م فتقدم بمقر عاصمته غربا كي يقترب من الإمارات الصليبية، فجعل عاصمته مدينة «حلب»، وذلك تمهيداً لمعارك جديدة.. وفي سنة ١١٥٤م انضمت إمارة «دمشق» إلى دولة نور الدين، فتحققت له بعض الخطوات في طريق «الاستراتيجية» التي رسمها لاقتلاع الصليبيين من الشام وفلسطين.. فلقد كانت هذه الاستراتيجية تقوم على ضرورة الالتفاف حول الكيانات الصليبية من الشمال والشرق والغرب والجنوب، حتى لا يصبح أمام الصليبيين منفذ سوى البحر الأبيض المتوسط، الذي جاءوا عبره من أوروبا، ولا بد من الإحاطة بهم والضغط عليهم حتى يعودوا عبره إلى البلاد التي بدأوا منها هذا العدوان الكبير.. وبنقل العاصمة إلى حلب، بعد تحرير «كونتية الرها»، وبانضمام إمارة «دمشق» إلى دولة نور الدين تحقق الالتفاف العربي حول الكيانات الصليبية من الشرق ومن الشمال.. وبقي الغرب والجنوب..

وفي الغرب كان النظام الفاطمي بمصر قد أنهكته الصراعات على السلطة بين الوزراء، واستغل الصليبيون هذه الصراعات فأصبحت لهم كلمة مسموعة في البلاد؟! ولكن أطرافاً أخرى قررت أن تستعين ـ في هذا الصراع ـ بنور الدين وقوات فرسانه المحاربين لإنقاذ البلاد من الوقوع في قبضة الصليبيين..

نعم.. كان نظام الحكم في مصر شيعيا وكان نور الدين سنيا.. وكان حكام مصر الفاطميون ممن يشتغلون بالعلم والفلسفة والفنون والآداب بينما

---

(١) [الاعتبار] ص ١٣٢.

كان نور الدين ورجاله لا يعرفون أغلب هذه الأمور، ولا يقيم الناس هناك وزناً كبيراً إلا للفروسية والحرب والاستعداد للقتال.. ولكن الخطر الذي أحدق بمصر والوطن العربي يومئذ دفع كل هذه الفروق إلى الخلف، ونحى جميع المتناقضات إلى منطقة الظل، وأقام جبهة قومية وطنية تحالف فيها الشيعة والسنة، وأسلم فيها العلماء القياد للفرسان المقاتلين.. وفي كل مرة كان الصليبيون يتقدمون فيها بجيوشهم لاحتلال البلاد كان جيش نور الدين يأتي لقتالهم، وينتهي الأمر بانسحاب الطرفين، حدث ذلك في سنة ١١٦٣م وسنة ١١٦٦م.. وعندما اشتد الخطر الصليبي سنة ١١٦٨م خرجت رسالة سرية من القصر الفاطمي بالقاهرة، بعث بها الخليفة «العاضد» إلى نور الدين، يطلب فيها أن يرسل جيشه الذي يقوده «أسد الدين شيركوه» وابن أخيه «صلاح الدين الأيوبي».. وبعث «العاضد» طي هذه الرسالة «خصلات» من شعر نسائه، وكتب له: «هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج»؟!.. وتعهد في الرسالة بأن يكون لنور الدين ثلث بلاد مصر، وذلك غير إقطاعات جيش أسد الدين شيركوه، الذي طلب إقامته الدائمة في البلاد..

وجاء جيش نور الدين، وهزم القوات الصليبية الغازية لمصر، ووصل إلى القاهرة في ٤ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨م).. وفي يوم ١٧ من نفس الشهر تولى أسد الدين شيركوه وزارة مصر بعد أن قتل صلاح الدين الأيوبي الوزير «شاور» صديق الصليبيين.. وبعد شهرين وخمسة أيام توفي أسد الدين فتولى وزارة مصر صلاح الدين في ٢٥ جمادي الآخر.. وتحققت خطوة كبرى نحو استكمال الاستراتيجية المرسومة للحرب مع الصليبيين، فلقد تم توحيد الجبهة الغربية مع الجبهة الشرقية والشمالية ولم يبق إلا استكمال حصار الصليبيين من الجنوب..

والأمر الذي يؤكد وعي المجتمع العربي يومئذ بهذه الاستراتيجية، وإدراكه مدى أهمية وحدة مصر مع المشرق، وضرورة هذه الوحدة لتحرير فلسطين، أن كل الشعراء الذين كتبوا التهاني لنور الدين أو أسد الدين شيركوه

بالانتصارات التي حققوها في مصر على الصليبيين وأعوانهم، كانوا دائما يتحدثون عن دور هذه الانتصارات في تقريب اليوم الذي تتحرر فيه فلسطين، بل لقد اعتبروا إن هذا الانتصار الذي وحد الجبهة الشرقية والشمالية بالجبهة الغربية لا يترك عذرا بالإبطاء عن تحرير فلسطين...؟!

فالعماد الكاتب يهنىء أسد الدين شيركوه، فيقول:

فتحت مصر، وأرجو أن تصير بها   ميسراً لفتح بيت المقدس عن كثب؟!

ويهنىء نور الدين فيقول له إن الساعة قد حانت لتحرير فلسطين:

أغز الفرنج فهذا وقت غزوهم   واحطم جموعهم بالذابل الحطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما   في عقد عز من الإسلام منتظم؟!

أما الشاعر ابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله، فإنه عندما يمدح نور الدين، يقول له: إنه لا عذر له عن تأخير المعركة بعد توحيد الجبهة الذي حدث بالانتصار في مصر:

ولست تعذر في ترك الجهاد وقد   أصبحت تملك من مصر إلى حلب؟!
وصاحب «الموصل» الفيحاء ممتثل   لما تريد.. فبادر فجأة النوب؟!

وأمام هذا الانتصار العربي الداخلي الكبير.. تحركت جيوش الصليبيين، فتحركت نحو «دمياط» أساطيلهم في نوفمبر سنة ١١٦٩م (أول صفر سنة ٥٦٥ هـ) (أسطول «أملريك» ملك بيت المقدس.. وأسطول امبراطور الأغريق) واستمر حصارهم لهذا الثغر الذي كان يومئذ مفتاح الغزاة لاحتلال البلاد، استمر حصارهم ومقاومة صلاح الدين لهم خمسين يوماً، حتى اضطروا إلى الرحيل..

وبعد أن استقرت الأمور لصلاح الدين بمصر، كانت عينه على جنوب فلسطين، فهناك الطريق الذي يجب أن يفتح كي يتم اتصال مصر بالمشرق العربي، وكي تتحقق الخطوة الأخيرة في الاستراتيجية العربية بإحكام الحصار حول الكيان الصليبي من الشمال والشرق والغرب والجنوب.. ولذلك فإنها لم

تكن مصادفة أن تكون أولى غزوات صلاح الدين الأيوبي التي قادها من مصر ضد الصليبيين هي تلك التي خاضها ضد حصن «الكرك» والبلاد المحيطة به في جنوبي فلسطين. . والمؤرخ (ابن شداد) يصف هذه المنطقة في كتابة (النوادر السلطانية) فيقول إنها كانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصريـة. . . وتقطع من قصد مصر. . . «وإن صلاح الدين قصد بغزوها» توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض. . .»[1]؟!

وحتى يحقق صلاح الدين هذا الهدف قام بأربع غزوات في سنة ٥٦٨، وسنة ٥٧٩، وسنة ٥٨٠، وسنة ٥٨٣ هـ؟!

وعلى جبهة الأمراء المسلمين الذين تسلموا في المشرق ملك نور الدين بعد وفاته سنة ١١٧٤م، بذل صلاح الدين جهداً كبيراً لتوحيد صفهم، فعقد معهم اتفاقاً في ٢ أكتوبر سنة ١١٧٠م على ألا يحارب بعضهم بعضاً، وشارك في هذا الاتفاق أمراء «الموصل» و«الجزيرة» و«أربيل»، و«كيفا»، و«ماردين»، و«قونية»، و«أرمينيا». . . وعندما نقض بعض هؤلاء الأمراء هذا الاتفاق لم يتردد صلاح الدين في حربهم كما صنع مع صاحب «حلب» عندما انتزع منه ولايته في ١٨ يونيو سنة ١١٨٣م. .

وأيضاً على جبهة الوضع الداخلي في مصر تصدى صلاح الدين لحركات التمرد التي قامت بها بقايا النظام الفاطمي الذي ألغي بعد وفاة الخليفة «العاضد» سنة ١١٧١م، فاستقرت له أمور جبهة مصر الداخلية، وخاصة بعد الانتصار الذي تحقق له على «الجنود السودانية» الذين كانوا يعملون حرساً للخلافة الفاطمية، عندما أعلنوا التمرد في «أسوان» سنة ١١٧٤م. . وعندما لاحت في الأفق بوادر ذلك الاستقرار في الوضع الداخلي بمصر، وتلك الوحدة في الجبهة القومية العربية، لم يكن أمام الرجل إلا أن يتوجه بقلبه وعقله وجيشه لقتال الصليبيين في فلسطين. .

---

(١) [النوادر السلطانية] ص ٤٥، ٦٦.

في الطريق إلى حطين

وحتى بعد أن وحد صلاح الدين جبهة مصر الداخلية، وضمن وحدة الجبهة العربية، لم يكن طريقه إلى تحرير فلسطين سهلاً. ولا هو مفروش بالورود.. فغزواته لحصن «الكرك» قد تكررت عدة مرات دون أن يستطيع اقتلاع الحكم الصليبي من هذا الموقع الاستراتيجي الهام، ورغم أنه قد أقام طريقاً برياً إلى الجنوب من هذا الحصن يصل مصر بالمشرق، إلا أن هذا الطريق قد ظل مهدداً بسلب ونهب وغارات الصليبيين.. بل لقد أقام أمير هذا الحصن البرنس «رينودي شاتيون» الذي يسميه المؤرخون العرب القدامى «أرناط»... أسطولاً في البحر الأحمر أخذ يهدد به مصر، ويعد لغزو الحجاز.. ولكن صلاح الدين استطاع أن يجهض محاولات الصليبيين هذه عندما تصدى لهم الأسطول المصري بقيادة «حسام الدين لؤلؤ الحاجب» «متولي (قائد) الأسطول بمصر» في سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢م)..

وفي سنة ١١٧٤م (سنة ٥٧٠ هـ) أبحر أسطول صليبي من «صقلية» قاصداً غزو مصر عن طريق الاسكندرية.. ولكن صلاح الدين استطاع أن يهزم هذا الأسطول..

وشهدت أعوام ٥٧٥ ـ ٥٧٨ هـ (١١٧٩ ـ ١١٨٢م) عدة معارك ومناوشات قام بها صلاح الدين ضد القوات الصليبية على أرض فلسطين. فهدم حصن الصليبيين عند «مخاضة الأحزان» بالقرب من «بانياس»، واستطاع جيشه أن يقلق راحة العدو ويغنم منه في «بعلبك» و«بيروت» و«بيسان» و«جنين» و«اللجون» و«الغور».

بل لقد تعرض مع جيشه لهزيمة كادت تؤدي به في سنة ١١٨٢ عندما دخل ضد الصليبيين معركة في «الرملة» ضد «البرنس أرناط».. والمؤرخ «ابن شداد» يصف هذه الهزيمة التي يسميها «كسرة الرملة» فيقول: إنه قد «جرى خلل في ذلك اليوم على المسلمين» عندما شغلت قواتهم بتغيير مواقعها بينما هجم عليهم الصليبيون على غرة «فانكسروا كسرة عظيمة، ولم يكن لهم

حصن قريب يأوون إليه» ففروا، «وطلبوا جهة الديار المصرية، وضلوا في الطريق، وتبددوا» وعاد صلاح الدين إلى مصر بعد أن تفرق جنده.. وكانت هذه الهزيمة «وَهْنا عظيما جبره الله بوقعة حطين..»؟! فلقد قضى صلاح الدين الأيوبي بعد هذه الهزيمة خمس سنوات في الاستعداد للقاء الكبير الذي حدث عند «طبرية» في سنة ١١٨٧م، وهو اللقاء الذي أباد فيه الجيش الصليبي في «حطين»، ففتح الباب على مصراعيه لتحرير القدس وأغلب المدن والحصون والقلاع الصليبية في فلسطين..

المعركة المصيرية

كان صلاح الدين قد أكمل استعداده، وخرج بجيشه من مدينة دمشق في يوم السبت أول محرم سنة ٥٨٣ هـ (مارس سنة ١١٨٧م)، وهدفه القيام بجولة يخوض فيها جيشه عدة معارك ضد مدن الصليبيين وحصونهم تمهيدا واستعداداً للقاء الكبير الذي لم تكن قد تحددت بعد معالم مكانه ولا زمانه حتى ذلك التاريخ؟!..

وعند «رأس الماء» عسكر القسم الأكبر من الجيش، ومعه «الملك الأفضل» ابن صلاح الدين.. أما صلاح الدين فلقد قاد جزءاً من الجيش وقصد إلى حصن «الكرك» وفرض عليه الحصار.. وجاءته أمدادات من مصر فقسمها بين حصن «الكرك» وحصن «الشوبك»، حتى يظل الحصنان تحت الحصار، فتحرم جيوش الصليبيين من إمكانياتها في المعارك القادمة، ولا يستطيع فرسان هذين الحصنين قطع طريق الإمدادات من مصر إلى فلسطين.. وبالفعل استمر هذا الحصار شهرين كاملين.

ثم بعث سرية من جيشه للإغارة على مدينة «طبرية» التي كانت مع قلعتها الحصينة مركزاً رئيسياً للصليبيين..

وأرسل إلى «صفورية» بالقرب من «عكا»، جيشاً تكونت قواته من ثلاثة أجنحة، ضم الأول فرسان «الجزيرة» الذين جاؤوا من «ديار بكر» بالمشرق،

يقوده «مظفر الدين كوكبري» أمير «حران».. وضم الثاني جنود «حلب والبلاد الشامية»، يقوده «بدر الدين دلدرم بن ياروق».. وضم الثالث جنود دمشق وبلادها، بقيادة «صارم الدين قايماز النجمي».. واستطاع هذا الجيش أن يحرز أولى الانتصارات العظيمة في ذلك العام ضد الصليبيين.. والتقى السلطان بالجيش المنتصر ـ الذي بلغ تعداده ١٢,٠٠٠ مقاتل ـ واستعرضه بعد تحقيق الانتصار..

وفي مايو سنة ١١٨٧م دارت في إقليم الجليل معركة كبرى بين الجيش الذي يقوده «الملك الأفضل» ابن صلاح الدين وبين فرسان الصليبيين. ورغم البأس الشديد الذي قاتل به الصليبيون «فلقد انهزموا في هذه المعركة.. ولم تفدهم الخرافة التي أرادوا بها إضعاف عزيمة العرب، عندما أشاعوا أن فارسهم «يعقوب ده مالي»، الذي كان شديد البأس في القتال، ليس إلا القديس «جاورجيوس» الذي ينزل من السماء ليحارب المسلمين؟!..

وفي يوم الجمعة ١٧ ربيع الثاني تحرك صلاح الدين بمن معه من الفرسان والمشاة إلى جهة الساحل حيث أغلب الحصون والقلاع.. التي يسيطر عليها الصليبيون.. فعسكر ليلة السبت عند «خسفين».. وفي الصباح سار إلى نهر الأردن، فعسكر عند ثغر «الاقحوانة» جنوبي بحيرة طبرية خمسة أيام، رتب فيها جيشه..

ثم تحرك من «الأقحوانة» ففرض الحصار على مدينة طبرية، وكان يريد أن يستدرج القوة الرئيسية للعدو من مختلف بقاع فلسطين للدفاع عن هذه المدينة حتى يدخل معهم معركة فاصلة تفتح أمامه الطريق لتحرير البلاد.. وحتى يقنع أعداءه بجدية حصاره وقوته استحضر «الجاندرية» و«النقابين» و«الخرسانية» و«الحجارين» ليعملوا أدواتهم في أبراج المدينة وسورها الحصين.. واستطاع «النقابون» بالفعل هدم أحد الأبراج.. وعند ذلك أخذ الصليبيون يتشاورون، فعقدوا اجتماعاً حضره ممثلون لجميع الحصون والفرق والجيوش... وثار بينهم سؤال: ماذا يصنعون مع صلاح الدين؟؟.. هل يتقدمون لقتاله عند طبرية؟ أم يركزون كل جهدهم للدفاع عن القدس،

تاركين طبرية وغيرها من المواقع يفتحها صلاح الدين؟؟.. وكان «ريموند» أمير طرابلس مع الرأي الثاني.. ولكن الأغلبية رفضته، وقرروا حشد قواتهم لقتال صلاح الدين عند طبرية فسار إليها ٥٠,٠٠٠ مقاتل صليبي من «صفورية» وحدها في ٣ يونيو سنة ١١٨٧م، فبلغت عدة جيشهم هناك ٦٣,٠٠٠ ألفاً من الفرسان والمشاة.. ونجحت بذلك خطة صلاح الدين؟!

وفي يوم الخميس أول يوليو سنة ١١٨٧م (٢٢ ربيع الثاني سنة ٥٨٣ هـ) بدأت المواجهة بين الجيشين... الحر شديد... وحصار صلاح الدين لبحيرة طبرية قد حال بين الجيش الصليبي وبين الماء.. وهضبة طبرية التي يدور عليها القتال ترتفع عن سطح البحر أكثر من ٣٠٠ متراً، وهي هضبة لها قمتان عاليتان، يسميها المؤرخون العرب «قرون حطين»؟!

وطوال ليلة الجمعة لم ينم صلاح الدين، بل ظل ساهراً متنقلاً بين قواته يرفع من روحهم المعنوية ويطمئن على عدتهم وعتادهم.. وشاعت بين الفريقين المتحاربين الكلمات التي تؤكد أن هذه المعركة فاصلة ومصيرية وأنه لا بقاء للمنهزم فيها، أو كما نقول نحن اليوم: «نكون، أو لا نكون»... وبلغة ذلك العصر - عند «ابن شداد» - «علمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس معدومة النفس»؟!

واشتعل القتال يوم الجمعة.. وكان الفرسان الصليبيون بقيادة «ريموند» أمير طرابلس في مواجهة جنود صلاح الدين، وملك بيت المقدس «جاي لوزنحان» ومعه فرسان الهيكل «الداوية» والمتطوعون اللاتين يصنعون جداراً بشرياً مقاتلاً وراء الفرسان، ومطران عكا يحمل خشبة الصليب التي صلب عليها المسيح كي يذكي بها حماس الجند ويستنهض بواسطتها شجاعة الفرسان؟!

وحل المساء فأوقف الفريقان القتال.. وسهر صلاح الدين بين جنده، حتى جاء الصباح، فافتتح قتاله ذلك المملوك الذي كان لصلاح الدين «منكورس»، فقفز بجواده إلى قلب صفوف الأعداء، وأخذ يعمل فيهم القتل

بسيفه حتى قتلوه.. وأخذ الصليبيون رأسه ظنا أنه ابن صلاح الدين؟!

واشتعل الحماس في صفوف المقاتلين، وازدادت حرارة شمس يوليو، وأراد صلاح الدين أن يزيد من عطش الجند الصليبي، فأمر بإشعال النار في الحشائش القريبة من مواقعهم، فحاصرهم بين نيران جيشه ونيران الحشائش التي رفعت درجة عطشهم، بينما هم بعيدون عن موارد الماء؟!.. وعلى حد تعبير صاحب (تاريخ حرب الصليب) فلقد كانت «النبال متطايرة في الهواء تطير (مثل) طيران العصافير محرقة بحرارتها؟! وماء السيوف (أي الدماء) جامد في وسط المعركة، يغطي الأرض كمياه المطر»[1]؟!

ودارت الدائرة على الجيش الصليبي.. فانسحبوا كي يحتموا بجبل حطين، فتبعهم جيش صلاح الدين.

وهناك على جبل حطين دارت معركة قاسية حارب فيها الصليبيون حرب اليائس الذي لا أمل له في النجاة؟! فشنت جماعة من فرسانهم هجوماً على قلب جيش صلاح الدين استطاعوا به أن يدفعوا هجوم المسلمين إلى الوراء.. وعلت الكآبة وجه صلاح الدين، فصاح في جنوده: «كذب الشيطان»؟! فعاد المسلمون إلى الهجوم على الصليبيين حتى ردوهم إلى أعلى الجبل.. وكان الأفضل ابن صلاح الدين (١٦ سنة) يقف إلى جوار أبيه: فظن أن النصر قد تحقق للمسلمين، فهتف: «هزمناهم»!! ولكن الصليبيين قد عاودوا الهجوم... وعاود صلاح الدين هتافه: «كذب الشيطان»؟!، فتقهقر الصليبيون أمام تقدم المسلمين.. فعاود «الأفضل» الهتاف ثانية «هزمناهم»؟!.. ولكن أباه نهره.. وأشار بيده إلى خيمة الملك الصليبي «جاي لوزنجان» فوق جبل حطين. وقال لابنه: «اسكت.. لا نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة»؟!.. وفي تلك اللحظة هوت خيمة الملك الصليبي، مؤذنة بالهزيمة، فترك صلاح الدين الأيوبي ظهر جواده، وسجد، وقبل الأرض شكرا لله على هذا الانتصار..

---

(١) [تاريخ حرب الصليب] ج ٢ ص ٨٥.

ومن بين الثلاثة والستين ألفاً الذين تكون منهم الجيش الصليبي في هذه المعركة، سقط ثلاثون ألفاً قتلى.. ومثلهم أسرى.. بينها استطاع «ريموند» الفرار بمن معه إلى طرابلس حيث مات هناك.. ويقول أبو شامة: «إن من شاهد القتلى قال: ما هناك أسير.. ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل؟! ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين»؟!

ومن بين الأسرى كان الملك «جاي لوزنجان» وشقيقه «جفري» والبرنس «أرناط» صاحب حصن «الكرك» والبرنس «أوك» صاحب «جبيل» و «هنفري» وابن أمير «الاسكندرونة» وأمير «مرقية» وأمير «الشوبك» وابن أمير «طبرية» وقادة فرسان المعبد «الراوية» والفرسان الاسبتارية (الحسبتاليين)..

وبعد أن استعرض صلاح الدين الأسرى قرر أن يقتل كل الذين سبق لهم الغدر بالعهود، وفيهم البرنس «أرناط».. وأيضاً أولئك الفرسان الذين اتخذوا من القتل والسلب والنهب عبادة يتقربون بها إلى الله، إلا من أقلع منهم عن نهجه هذا باعتناقه الإسلام.. وكما يقول «أبو شامة» إنه لم يسلم منهم «إلا آحاد حسن إسلامهم»؟!

وفي يوم الأحد ٤ يوليو سنة ١١٨٧م فتح صلاح الدين قلعة طبرية..

وفي يوم الأربعاء ٧ يوليو زحف إلى «عكا» فحررها من الحكم الصليبي..

وسار أخوه العادل في جيش فتح به «مجدليابا».

ثم قسم السلطان جيشه إلى مجموعات أخذت تزحف لتحرير المدن والحصون والقلاع والقرى في طول وعرض فلسطين.. ففتحت أمام هذا الجيش: «الناصرة»، و«قيسارية»، و«حيفا»، و«صفورية»، و«دبورية»، و«الفولة»، و«جنين»، و«زرعين»، و«الطور»، و«اللجون»، و«القيمون»، و«الزيب»، و«معليا»، و«البعنة»، و«اسكندرونة»، و«منوات»، و«أرسوف»، و«عفربلا»، و«ريحا سنجيل»، و«البيرة»، و«قلونية»، و«صرفند»، و«مجدل الحباب»، و«جبل الجليل»، و«تل الصافية»، و«التل الأحمر»، و«فريتا»،

و«صوبا»، و«هرمس»، و«السلع»، و«يافا»، و«صيدا»، و«نابلس»، وقلعتها، و«سبسطية»، و«تبنين»، و«بيروت»، و«عسقلان»، و«الرملة»، و«الداروم»، و«غزة»، و«بيت لحم»، و«بيني»، و«بيت جبريل»، و«النطرون»، و«مشهد الخليل»، و«لد».. وغيرها وغيرها من البلاد والقرى والقلاع والأبراج...

وبعد أن فتح صلاح الدين الأيوبي «عسقلان» كتب إلى بعض أقاربه رسالة قال فيها: إنه لم يبق أمام جيشه المنتصر «من «جبيل» إلى حدود مصر سوى «القدس» و«صور».. والعزم مصمم على قصد «القدس» فالله يسهله ويعجله.. فإذا يسر الله تعالى فتح «القدس» ملنا إلى «صور» والسلام»؟!.

وهكذا سار القائد الفاتح بجيشه نحو القدس، بعد أن فتحت له معركة «حطين» الأبواب على مصراعيها لتحرير كل فلسطين...

تحرير القدس

[٥٨٣ هـ ١١٨٧م]

الجمعة ٢ اكتوبر عام ١١٨٧م (٢٧ رجب عام ٥٨٣ هـ)..

كان صلاح الدين الأيوبي يجلس على ربوة تطل على القدس العربية، بينما جموع الصليبيين اللاتين يرحلون مهزومين عن المدينة، يمرون من تحت ذراعيه. هذه الجموع التي خدعتها أطماع أمراء الإقطاع الذين قادوا أولى موجات الاستعمار الأوروبي إلى الشرق العربي متخفين في ظل الصليب.

الحكاية القديمة تتجدد..

الاسرائيليون يطبقون الظلام الآن على القدس يمدون للاستعمار الجديد جسوراً إلى الشرق العربي. لكن القدس سوف تعود إذا ما أدركنا كل المغزى من الحكاية القديمة. الحكاية التي تتجدد ذكراها هذه الأيام.

لم تتبدل استراتيجية المكان فالذي حرر القدس قديماً وحدة جادة ربطت ما بين الجبهتين الشرقية والغربية.

لم تتبدل أدوار التاريخ. كانت مصر هي مفتاح المشكلة وأمل الموقف.

* * *

ابتداء من العقد الثالث للقرن الثاني عشر الميلادي رسخ في يقين العرب المسلمين أن الوظيفة الأولى «لمملكة أورشليم» الصليبية إنما هي فصم عرى

وحدة العرب والحيلولة دون قيامها، والسعي إلى تحويل الأرض المقدسة إلى منطلق يحكم منه أمراء الإقطاع اللاتين الأنحاء المختلفة للعالم العربي.

ومنذ ذلك التاريخ، وبعد سلسلة من المحاولات الحربية الصليبية ضد مصر، رسخ يقين العرب والمسلمين أيضا أن تحرير الأرض المقدسة إنما هي مهمة مصر التي ينظر إليها الصليبيون باعتبارها المفتاح الذي يكمل سيطرتهم على الأرض العربية كلها..

ومن هذا اليقين العربي أصبحت قضية تحرير القدس، التي ترمز لتحرير فلسطين، هي القضية الأولى والأساسية لكل أنظمة الحكم العربية في ذلك الحين.. بل لقد كانت هذه القضية، قبل غيرها، هي المحرك لكل التغييرات السياسية والعسكرية التي رفعت إلى قمة السلطة في العراق الدولة «الزنكية» التي أخذت جيوشها في التقدم شرقاً وشمالاً، مكونة الجبهة الشرقية والشمالية في المعركة الفاصلة المنتظرة مع الصليبيين..

الجبهة الشرقية والجبهة الغربية

وعندما قامت الدولة الأيوبية في مصر على أنقاض الضعف والتحلل الذي أصاب الخلافة الفاطمية. ودبت الحياة والقوة إلى الجبهة الغربية من جبهات المعركة، كان الشرط الضروري للنصر هو الالتحام العضوي بين هذه الجبهات، وذلك حتى يحيط العرب والمسلمون بهذا الكيان الصليبي الغريب المزروع في جسدهم، والذي جاء من أوروبا عبر البحر المتوسط متسللاً من ساحله الشرقي إلى داخل البلاد وكانت هذه المهمة التي قام بها وقاد معاركها البطل العربي صلاح الدين الأيوبي.

ففي العام التالي لقيام الدولة الأيوبية بدأ صلاح الدين الزحف على جنوب فلسطين حتى يمهد الطريق البري الذي يصل الشرق بالغرب، لا خدمة للتجارة وحدها، ولا تأميناً لقوافل الحج فقط، وإنما، أساساً وبالدرجة الأولى، لإقامة طريق الجبهة القتالية الموحدة من حول الصليبيين، وكان حصن

«الكرك» الصليبي بجنوب فلسطين، بحكمه «ريجنالد» أشرس وأعتى أمراء الصليبيين وقد تعرض هذا الحصن المنيع لأربع غزوات من صلاح الدين.

وقبل الاستيلاء على قلعته في الغزوة الأخيرة كان الأسطول المصري قد حقق انتصاراً بحرياً ضد الأسطول الصليبي في البحر الأحمر سنة ١١٨٢م عندما قاد «حسام الدين لؤلؤة الحاجب» «متولي الأسطول بمصر» هذه المعركة، ففك حصار الصليبيين لحصن العقبة «آيلة»، وميناء «عيذاب»، وأجهض محاولة الصليبيين لتدمير الأماكن المقدسة الإسلامية في أرض الحجاز.

وفي الحقيقة فإن الشعراء الذين عاصروا هذه الأحداث، والذين أرخوا لتطوراتها وتغيراتها ومعاركها، التزموا مبدأ التذكير بالقدس وتحريرها، والحديث عن مقدساتها وضرورة تطهيرها، وهو موقف ينفي عن العقل العربي والطبيعة العربية ما يرميها به المغرضون من تهم «الفوران الوقتي الذي يعقبه الخمود والنسيان»، ويؤكد القدرة العربية على الصمود النفسي، بل والغليان الدائم والمستمر حتى يتحقق النصر في المعارك الهامة والمصيرية..

بل إن هؤلاء الشعراء لم يتركوا المناسبات الخاصة والشخصية، دون أن تكون مقاماً لحديثهم عن تحرير القدس وتطهيرها من دنس الصليبيين، وعندما ذهب الشاعر «العماد الكاتب» إلى صلاح الدين ليعزيه في وفاة عمه.. لم ينس الشاعر في سياق هذا العزاء أن يعيد التذكير بالقدس داعياً إلى عدم إهمالها وتجهيز العدة لفتحها من جديد.

فيقول:

فصبوا على الإفرنج سوط عذابها　　بأن تقسموا ما بينها القتل والأسرا
ولا تهملوا البيت المقدس، واعزموا　　على فتحه غازين، وافترعوا البكرا

وعندما يهنئه بتحرير «غزة» يذكره بالقدس، فتحريرها فتح لباب تحرر الشام كله من يد الغاصبين، فيقول:

غزوا عقر دار المشركين «بغزة»　　جهارا، وطرف الشرك خزيان مطرق

وهيجت للبيت المقدس لوعة يطول بها منه إليك التشوق
هو البيت إنْ تفتحه، والله فاعل فما بعده باب من الشام مغلق

كانت القدس إذن هي القضية التي اجتمعت من حولها أهداف الكلمة كما اجتمعت من حولها الإمارات والولايات وكل المذاهب والفرق والاتجاهات... وأصبح تحرير القدس ـ هو طريق الوحدة للعرب.

كانت القدس إذن هي محور النكبة التي ألمت بالعرب والتي أثارت من حولها مشاعر كل الناس حتى «المنجمون» حولوا صناعتهم في ذلك العصر إلى عوامل تثير في الحكام الإحساس بالخطر الصليبي وضرورة قهره، وتقيس مدى صلابتهم بمدى ما سيبذلونه في سبيل تحريرها، ويأتي موكب المنجمين إلى صلاح الدين ليقولوا له: «نجمك» يخبر أنك ستدخل القدس، ولكن بعد أن تفقد إحدى عينيك في القتال، فيجيبهم القائد البطل بقوله: «قد رضيت بأن أعمى وأدخل المدينة»!!.

وعندما غدر الصليبيون المسيطرون على حصن «الكرك» بالهدنة المعقودة بينهم وبين صلاح الدين، وأغاروا على القوافل العربية، وجاهروا بالاستعداد للزحف على مقدسات المسلمين في الحجاز، واتت صلاح الدين الفرصة المرتقبة لاجتثاث جذورهم من قلب فلسطين.. وشرع في السير نحو المعركة الكبرى، معركة تحرير القدس، عبر معارك عدة كان من أشهرها وأكثرها حسماً معركة «حطين».

وصولاً إلى أسوار المدينة المقدسة

وبعد النصر في «حطين» جلس صلاح الدين في خيمته.. حيث جاؤوا إليه بكبار الأسرى: الملك، والأمراء، والقواد.. وأجلس الملك إلى جواره، وكان الجميع يرتعدون من الخوف ويلهثون من العطش الذي سببه القتال والحر الشديد..

كانت تتداعى إلى ذاكرة الأسرى من القادة والأمراء صور المجازر التي

صنعها أباؤهم، بالمسلمين عندما فتحوا هذه البلاد، لم يكونوا ينتظرون أقل مما صنعوه بأهلها منذ حلوا بها غزاة منتصرين.. ولكن صلاح الدين لم يقتل من أسراهم البالغين ثلاثين ألفاً سوى ٢٠٠ من فرسان المعبد والفرسان الاسبتارية، والذين جعلوا من سفك دماء العرب والمسلمين عبادة ورهبانية يتقربون بها إلى الله؟!.. ومن ثم خيرهم السلطان بين الخروج عن هذا النهج الغريب والشاذ، والدخول في الإسلام، وبين حد السيف، منعا لاستمرار هذه الجريمة اللا إنسانية التي ترتكب باسم الله.. فما أسلم منهم «إلا آحاد، حسن إسلامهم» وقتل منهم الباقين.

وفي اليوم التالي لذلك النصر، الأحد ٤ يوليو، استولى العرب على قلعة طبرية، وبعد أربعة أيام فتحوا عكا، وأخذ الجيش المنتصر يجوب ما حول القدس من قرى ومدن فلسطين غازياً وفاتحاً ومنتصراً وصولاً إلى أسوار المدينة المقدسة.

في يوم الأحد ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧م وصل جيش صلاح الدين إلى أسوار المدينة المقدسة، وأحاط بالجانب الغربي من أسوارها، وعسكر في نفس المكان الذي فتحها منه الصليبيون في سنة ١٠٩٩م.. وشرع في تقصي الحقائق وجمع المعلومات عن دفاع المدينة وتحصيناتها وقوة أبراجها، وتعداد القوات المواجهة لجيشه خلف الأسوار.. وبعد أيام قضاها في الاستعداد، والدراسة، وجمع المعلومات.. وتخللتها بعض المناوشات المتبادلة بين الطرفين، قرر الانتقال من جانب المدينة الغربي إلى جانبها الشمالي.. وأنجز ذلك العمل في يوم الجمعة ٢٥ سبتمبر، بعد خمسة أيام من بدء الحصار..

وقبل أن يبدأ القائد العربي وجيشه الأعمال الحربية الكبيرة، كان يفكر كثيراً في الأماكن المقدسة خلف هذا السور الذي يقف أمامه، وفي آثار القتال والتدمير على هذه المقدسات التي تجلها الأديان الثلاثة وتقدسها البشرية جمعاء.. وقرر السلطان القائد، صاحب الجيش المنتصر، أن يبعد من ذهنه وقلبه رغبات الانتقام من صنيع اللاتين الصليبيين بآبائه وأجداده، وأهل جنسه ودينه، وأن يجعل للحضارة والمدنية والقدسية الغلبة في هذا الحوار والصراع،

وأن يعرض على المحتلين فيها تسليمها له، فبعث إليهم رسولاً من قبله يبلغهم هذه الرغبة، ويقول لهم على لسانه: إنني مثلكم، أقدس هذه المدينة، وأعرف أنها بيت الله، وأنا لم آت إلى هنا كي أدنس قداستها بسفك الدماء، فإذا سلمتموها لي فإنني أخصص لكم «قسما من خزائني» وأمنحكم من الأرض «بمقدار ما أنتم تستطيعون أن تقوموا بأعمالها».

وانتظر جوابهم على هذا العرض من عروض الأمان والتعويض والسلام.. ولكن الصليبيين الذين كانوا قد جمعوا في المدينة ٦٠,٠٠٠ من الفرسان والمقاتلين، ركبوا خيلهم، وعقدوا اجتماع مشورتهم، وقرروا رفض عرض صلاح الدين.. وشرع بعض خيالتهم وفرسانهم في مباداة الجيش العربي بالمناوشة والاستفزاز.. وجاء في رسالتهم الجوابية إلى صلاح الدين: «إننا لا نقدر أن نسلمك مدينة قد مات فيها إلهنا بالجسد، وبأكثر من ذلك نحن لا نقدر أن نبيعها».

الصليبيون يفرضون المعركة

لم يكن أمام صلاح الدين سوى القتال وفي يوم السبت ٢٦ سبتمبر نصب العرب «المنجنيقات» على المرتفعات لترسل قذائفها من فوق الأسوار، وعبر هذه الأسوار.. وفي الوقت الذي شرع فيه «النقابون» في اختيار أنسب الأماكن في سور المدينة لنقبها، كان القتال اليومي يدور بين العرب وبين الصليبيين..

وشهدت أسوار المدينة وأطرافها الدوريات الليلية تخرج من الجانبين لجمع المعلومات، وللرصد، وللقتال، وسجلت ليالي الحصار عمليات قتالية فردية انتحارية قام بها فرسان من الجانبين.

وعندما كان يأتي الليل، كان الصليبيون يظلمون المدينة، ويسدلون الستائر على المصابيح والنوافذ والقناديل حتى يحجبوا عن المسلمين رؤية التحركات والتحصينات.. وبلغة المؤرخين الأدباء الذين شهدوا المعركة، فإنهم

قد «ستروا بظلمات الستائر وجوه الأنوار»؟!

واختار الصليبيون لقيادتهم في هذه المعركة الفاصلة القائد «باليان ده ابيالين»، أحد القادة القلائل الذين تمكنوا من الهرب في معركة «حطين».

وأمد البطريرك القائد «باليان» بما يحتاج إلى الاستعداد الحربي، حتى لقد جمع له سبائك الذهب والفضة، ونزع له زينة الكنائس، بما في ذلك الذهب والفضة التي زين بهما قبر المسيح، فضربت عملة يستعينون بها على أمور القتال؟!..

وعندما اتسع عمل «النقابين»، في جيش صلاح الدين، بسور المدينة المحاصرة وبلغت المساحة التي جرى فيها «النقب» من «باب يوشافاط إلى حد باب القديس استفانوس»، حسب الأسماء الصليبية، وفي المكان المعروف «بوادي جهنم»، حسب تسميات المؤرخين المسلمين الذين شهدوا هذه الأحداث.. وعندما أصبح المسلمون على وشك الاقتحام لهذه الأسوار والانتشار بالمدينة، والاكتساح لخنادقها وتحصيناتها ومتاريسها.. عم الفزع سكانها اللاتينيين.. وشهدت شوارعها رجال «الاكليروس» يطوفون بها، ومن خلفهم الجماهير اللاتينية وقد ألقت سلاحها الذي كانت تستعمله وتحارب به، واستعاضت عنه بالتضرع والبكاء؟!

وعند ذلك عقد الصليبيون مجلس مشورتهم، وقرروا طلب الأمان من صلاح الدين في نظير التسليم..

عبر «باليان» أسوار المدينة، بعد أن أذن له الجند العرب بذلك، ودخل خيمة صلاح الدين، وطلب الأمان لجيشه ولسكان المدينة اللاتينيين.. وتذكر صلاح الدين عرضه الأول عليهم، ورفضهم له، فرفض أن يعطيهم الأمان.

وقال «لباليان» ، كما أخذتم هذه المدينة بالسيف، فلا بد لي من أن أستردها بالسيف، وسوف أبيد الرجال وأستولي على الأموال.

وعاد «باليان» إلى قومه، عبر السور، بجواب صلاح الدين.. ولكنهم

طلبوا منه العودة ثانية، والإلحاح في طلب الأمان.. فعاد من جديد «وفاوض كل ما أمكنه» في هذا الصدد.. وأمام إصرار صلاح الدين على أخذ المدينة بالسيف، اضطر القائد الصليبي أن يكشف مخططهم الذي اتفقوا عليه.

قال للسلطان... «إننا إذا يئسنا من النجاة من سيوف جندك فإننا سنهدم المعبد، والقصر الملوكي، وننقض حجارتها حتى الأساسات»؟!

وسنحرق الأمتعة والنفائس والكنوز والأموال الموجودة في خزائن المدينة؟!

ـ وسنهدم جامع عمر، والصخرة المقدسة، اللذين هما موضوع ديانتك؟!.

ـ وسنقتل ما لدينا من أسرى المسلمين المحبوسين في سجون المدينة منذ سنوات، وعددهم خمسة آلاف أسير.؟!

ـ وسنذبح نساءنا وأولادنا بأيدينا حتى لا يقعوا في أسر المسلمين؟!.

ـ وبعد أن تصير المدينة المقدسة «كيماناً من الرديم ومدفناً واسعاً» سنخرج للقتال، فنقاتل قتال اليائس من الحياة، الذي لا أمل لديه في النجاة، ونحن ستون ألف مقاتل، لن يفنى أحد منا حتى يقتل واحداً من جنودك.. فامنحنا الأمان تسلمك المدينة دون أن يمسسها أحد من الطرفين بسوء؟!.

وأثبتت الوقائع والأحداث أصالة «الموقف الحضاري» لصلاح الدين، وعمق «النزعات الإنسانية» لديه.

لقد رأى أن كثرة الدماء التي تسيل من الصليبيين تحرك المزيد من الأحقاد في أوروبا، فتمد في عمر هذا الصراع الدامي الذي شنه الغرب على الشرق مستخدما الصليب والمسيحية زورا وبهتاناً لستر السلب والنهب والاستعمار والاستيطان..

شهدت خيمته مؤتمرا للمشورة ضم الأمراء والعلماء والقواد، واتفقوا في النهاية على تسلم المدينة صلحاً، على أن يرحل منها كل اللاتين، غير العرب،

الذين استوطنوها بعد الغزو الصليبي لها، وأن يكون رحيلهم في خلال أربعة أيام، وأن يكون لهم جميعاً ما يملكون من نفائس وأموال، حتى تحف الأماكن المقدسة لديهم ونفائسها إذا شاءوا أن يأخذوها. وذلك في نظير فدية قدرها عشرة دنانير للرجل، وخمسة للمرأة، ودينار لكل طفل.. أما المسيحيون العرب «الذين هم من بلاد سورية» فإنهم يستمرون «سكاناً في أورشليم» مثلهم في ذلك مثل غيرهم من المواطنين من غير أن يفرق بينهم اختلاف الدين.

القدس تعود والصليبيون يرحلون

ظهر الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م - وكان اليوم يوافق ذكرى الإسراء بالرسول من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس - تم التوقيع على نسختي المعاهدة الخاصة بالتسليم.. ودخل العرب المسلمون المدينة المقدسة. في لحظات تاريخية حملت من مشاعر القدسية وشحنات التسامي ما عجزت عن وصفه أقلام المؤرخين والأدباء الذين شهدوا هذا الحدث الكبير.. وفي الوقت الذي اشتغل فيه اللاتين الصليبيون بجمع المال والمتاع استعداداً للرحيل، وأغلقوا على أنفسهم أبواب البيوت.. دخل المسلمون ساحة المسجد الأقصى ليعيدوا إلى المقدسات قدسيتها.

خارج المدينة المقدسة، جلس صلاح الدين في خيمته، على عرشه، في تواضع ليس له مثيل، يتلقى التهاني، ويلقى الأكابر والأمراء، ومن حوله جمهرة غفيرة من العلماء والفقهاء الذين يمثلون مختلف المدن والأقاليم العربية، والذين كانوا قد توافدوا على المعسكر منذ أن علموا بتوجه الجيش ليحاصر ويفتح القدس الشريف..

وفي ليلة يوم السبت، ثاني أيام الفتح، كان ركن من أركان هذه الخيمة يشهد «العماد» الكاتب والمؤرخ والأديب، وقد جلس إلى قلمه ومحبرته وأوراقه كي يحرر سبعين كتاباً بعث بها صلاح الدين الرسل والوفود إلى مختلف الأنحاء حاملة أخبار الفتح، وواصفة أحداثه، ومهنئة به جماهير العرب والمسلمين.

كتب «العماد» على ضوء «الفتيل» الذي أوقده إلى «اليمين» يحدث «سيف الإسلام» عن تحرير المسجد الأقصى الذي «.. طال سجنه، واستحكم وهنه، وقوي سكره، وضعف ركنه وزاد حزنه، وزال حسنه».. وكيف أعاد الفتح له كل ما كان يزينه قبل احتلال الصليبيين..

يوم الاثنين ٥ أكتوبر: أغلقت جميع أبواب المدينة، إلا باب «داود»، وشرع موكب المستوطنين اللاتين الصليبيين في الجلاء عن المدينة، وأقيم لصلاح الدين عرش عند هذا الباب كي تمر من بين يديه جموع الخارجين.. وتقدم الموكب: البطريرك اللاتيني «إيراكلوس» ومن خلفه رجال «الاكليروس» حاملين تحف الكنائس ونفائسها وخزائنها، وعندما حدث البعض صلاح الدين عن هذه التحف طالباً منه الاستيلاء عليها، رفض ووصف هذا العمل بأنه «غدر» بالأمان الذي أعطى للمهزومين.. ومن خلف موكب «البطريرك» سار موكب الملكة «سيبيلا» محاطة بالنبلاء والنبيلات.. وانتهزت النساء فرصة رؤية صلاح الدين فطلبن إليه أن يفرج عن ذويهن الأسرى في المعارك السابقة، فاستجاب لمطلبهن؟!

* وعندما شاهد السلطان أن بعض الشباب قد حمل على عاتقه بعض الشيوخ والعجزة، وأن ذلك قد منعهم من حمل ما لهم من متاع، أمر بتيسير عملية الترحيل، عن طريق تنظيمها، وسمح للرهبان اللاتين بالبقاء في المدينة للإشراف على ذلك بالاشتراك مع القائد الصليبي «باليان».

المغزى من كل الحكاية

١ ـ وعلى الرغم من أن عصر صلاح الدين الأيوبي لم يكن بالعصر الذي علا فيه صوت الفكر القومي والمشاعر القومية إلى الحد الذي يفوق فيه تأثير المشاعر الدينية والروابط الروحية الخاصة بالملة والاعتقاد، إلا أننا نبصر في السياسة التي اتبعها هذاالقائد إزاء أجناس السكان الذين التقى بهم في المدن الصليبية التي فتحها، وفي القدس بوجه خاص، نبصر في هذه السياسة

موقفاً قومياً ناضجاً نابعاً من وعي سياسي يستحق التقدير والاعجاب. فهو لم يتعامل مع سكان القدس المهزومين كمسلم يتعامل مع مسيحيين، بل كعربي يبحث عن نقاط الاتفاق والالتقاء مع المسيحيين العرب كي يقفوا جميعاً ضد الغزاة اللاتين المستوطنين، بالرغم من أنهم مسيحيون. فالمواجهة إذاً قد حدثت ما بين العرب بدياناتهم المختلفة وما بين الغزاة العنصريين الذين حاولوا ستر استعمارهم الاستيطاني خلف أعلام المسيحية والصليب.

ولم يكن موقف صلاح الدين هذا موقفاً مفتعلاً، ولا هو مجرد محاولة سياسية لتمزيق وحدة سكان المدينة بعد فتحها، وإنما كان استجابة سياسية ذكية لواقع كانت تحياه المدينة قبل الفتح ويشعر به ويعيشه هؤلاء السكان.. بل إننا نجد لدى المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الحرب من وجهة نظر الصليبيين من يعزو إنهيار مقاومة القدس أمام صلاح الدين إلى إنحياز المسيحيين الشرقيين «الذين هم من أهل سورية» إلى صلاح الدين.

٢ - والموقف السياسي الآخر الذي اتخذه صلاح الدين إزاء التناقضات التي كانت هادئة وتحدث في صفوف الأعداء، فلقد حاول الاستفادة من هذه التناقضات، واستفاد منها بالفعل إلى حد كبير. وكمثل على ذلك تلك العلاقات التي أقامها مع أحد أمراء الصليبيين في طرابلس، عندما اختلف مع بني جنسه على عرش الإمارة في الولاية، فراسله صلاح الدين، وأفرج له عن فرسانه الأسرى لدى المسلمين، وقامت بينهما علاقات أدت إلى انقسامات في صفوف الفرسان اللاتين، حتى لقد قال ابن الأثير صاحب كتاب (الكامل) في التاريخ: إن ذلك كان «من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ بيت المقدس منهم».

٣ - لم تكن أوروبا الصليبية تخشى في صلاح الدين رجل السيف والقتال فقط، فلقد حاولت التغلب على هذا الجانب بفرسانها الاقطاعيين وحملاتها الصليبية العسكرية، والضرائب التي فرضتها على شعوبها، والتي عرف بعضها في انكلترا باسم «عُشر صلاح الدين»!، وإنما كانت تخشى فيه أيضا «السلوك الإنساني» للقائد القوي، الذي بدد التصورات الخاطئة والمضللة التي زرعها

البابوات والأمراء الاقطاعيون في نفوس السذج من الناس عندما بعثوا بهم إلى الشرق لسفك دماء العرب والمسلمين.

والمؤرخ «ابن شداد» الذي شاهد أحداث هذه الحرب وعاش وقائعها يحكي لنا كيف بكى صلاح الدين رقة وشفقة لأم صليبية وقع طفلها بيد القناصة المسلمين، عندما يحكي لنا، أنه كان للمسلمين «لصوص» يدخلون إلى خيام العدو، فيسرقون منهم الرجال ويخرجون، وكان من قضيتهم أنهم اخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، وساروا به حتى أتوا به إلى خيمة السلطان، وعرضوه عليه، وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه، فيخلع عليهم، ويعطيهم ما أخذوه.

ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها: (صلاح الدين) رحيم القلب، وقد أذن لك في الخروج إليه، فاخرجي، وأطلبيه منه، فإنه يرده عليك، فخرجت تستغيث إلى «اليزك» (طلائع الجيش) الإسلامي، فأخبرتهم بواقعتها بترجمان كان يترجم عنها، فأطلقوها، وأنفذوها إلى السلطان، فأتته وهو راكب على «تل الخروبة»، وأنا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم، فبكت بكاء شديداً، ومرغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها، فأخبروه، فرق لها، ودمعت عينه، وأمر بإحضار الرضيع، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري، وأخذه منه، ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل، وسلم إليها، فأخذته، وبكت بكاء شديداً، وضمته إلى صدرها؟!.

٤ - وغير نوعية السياسة، ونوعية القيادة، كان من أسلحة الحضارة العربية الإسلامية في معركة تحرير الأرض المقدسة من استعمار اللاتين الصليبيين يومئذ «نوعية الجندي المقاتل»، التي اهتم بها صلاح الدين.. ولقد كانت عقيدة هذا الجندي وإيمانه بقدسية المعركة في مقدمة المثيرات والمؤثرات التي جعلته يدخل معركته هذه بإصرار الشهداء وعزم الذين اشتروا بقاء الذكر ومحو العار بأعز ما يملك، وهي الحياة..

ومن النماذج التي يحكي عنها المؤرخ «ابن شداد» نموذج «العوام عيسى» الذي أدى واجبه القتالي المقدس وهو ميت مثلما كان يؤديه وهو على قيد الحياة؟!.. ففي أثناء الحصار البري والبحري الذي ضربه الصليبيون على مدينة «بيروت» كان الجندي «عيسى» هذا، يربط على وسطه الرسائل المغلفة بالشمع، وأكياس الدنانير، ثم ينزل إلى البحر، يعوم حيناً ويغطس حيناً، ويمرق في أغلب الأحايين من بين سفن العدو المحاصرة للشاطىء، حتى يدخل ليلاً إلى المدينة، فيسلم ما لديه إلى قيادة المقاومة فيها، وعندما تصل الرسائل والأموال، يخرج «الحمام الزاجل» من المدينة إلى معسكر صلاح الدين بما يفيد وصول «عيسى العوام».. وذات مرة ذهب عيسى، ولكن الحمام أبطأ فلم يصل إلى معسكر صلاح الدين، وداخل الناس إحساس بوقوع مكروه له، وذات يوم أبصر الناس من على الشاطىء جثة غريق ميت تدفعها الأمواج وتسلمها إلى الصخور، فانتشلوها، فإذا هي جثة «عيسى العوام»، ووجدوا على وسطه ثلاث أكياس بها ألف دينار ذهبية «نفقة للمجاهدين»، وكتباً للمعسكر بها تعليمات صلاح الدين..؟! وعندئذ طار الحمام من «بيروت» إلى معسكر القيادة، لأن عيسى قد أدى واجبه ميتاً كما كان يؤديه وهو على قيد الحياة»؟!.

لقد كان طبيعياً ومنسجماً مع حركة التاريخ وإرادة الحياة أن ينتصر صلاح الدين في هذا الصراع، لأنه فرق بين الذين جاؤوا من مختلف البلاد الأوروبية بشريعة المجازر وقانون الدمار وقيم السلب والنهب ليقيموا بواسطتها ملكاً على أنقاض الشرائع والقيم والبشر، وبين الذين أثارتهم هذه البشاعات فهبوا يعيدون الحق إلى نصابه ويمحون عن الإنسان المتحضر تلك الوصمة التي لطخ بها الصليبيون هذه الصفحة من صفحات التاريخ..

وعندما انتصر صلاح الدين، كانت قد انتصرت القيم الإنسانية التي دان بها. وحارب من أجلها، حتى في نفوس الصليبيين كانت من بين الأسباب التي جعلتهم يمعنون النظر ويطيلون التأمل في تراث الشرق وحضارته وثقافته، وهو الأمر الذي كان من بين العوامل الأساسية في بعث أوروبا وتجديد شبابها في عصر النهضة والإحياء..

معركة دمياط

[٦١٥هـ ١٢١٨م]

المقريزي

كانت قد مضت ثلاثون سنة منذ حرر صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس من الصليبيين (سنة ١١٨٧م)، وأجلاهم عن معظم المدن والقلاع التي أقاموها في فلسطين والشام.. فأبحرت من مدن أوروبا وموانيها عدة حملات صليبية جديدة، جاءت معظمها من «روما» مقر البابا، يقودها عدد كبير من الملوك والأمراء والفرسان، فوصلت إلى «عكا» في سنة ١٢١٧م، وذلك بهدف استعادة المناطق التي حررها صلاح الدين، والاستيلاء على بيت المقدس من جديد، فنقضوا بذلك الصلح الذي وقعوه في سنة ١١٩٢م..

وكان الملك «العادل» قد تقدم به السن، فقسم الدولة إلى وحدات إدارية ثلاث: مصر ويحكمها ابنه الكامل، ودمشق ويحكمها ابنه «المعظم» عيسى، والعراق ويحكمها ابنه «الأشرف» موسى.. وأخذ هو في التنقل ما بين مصر والشام..

وعندما زحفت جيوش الغزو الصليبي من «عكا» على مدن الشام وقرى فلسطين. خرج الملك العادل من مصر على رأس جيش قاصدا قتالهم. ولما وصل إلى «اللد» في فلسطين، خرجت إليه جحافل الصليبيين من «عكا».. وجاءت الأخبار إلى الملك العادل تصف قوة الأعداء. فأيقن بتفوقهم في العدد والعتاد.. فآثر الانسحاب من «اللد»، ورحل إلى «نابلس»، ثم نزل في

«بيسان».. وعندما تحدث إليه ابنه «المعظم» عيسى، عن سبب رحيله، أوضح له في كلمات غاضبة، بلغت حد السباب، إنه هو السبب في ضعف جبهة العرب والمسلمين، فهو الذي أقطع أرض الشام وخيراتها إلى الجند المرتزقة من المماليك. فأضعف بذلك قدرات أهل البلاد الأصليين وعنصرها الوطني والقومي، وقال له ـ كما يروي «المقريزي» ـ: «بمن أقاتل؟! أقطعت الشام مماليك، وتركت من ينفعني من أبناء الناس الذين يرجعون إلى الأصول..!! وذكر كلاماً في هذا المعنى».

وبسبب هذا الضعف الذي كانت عليه الجبهة الداخلية، والذي تمثل بإقطاع البلاد وخيراتها للجند المرتزقة من المماليك، دون أصحابها الأصليين، استطاعت الجيوش الصليبية أن تسلب وتنهب، وتحرق وتدمر، وتسفك من دماء المواطنين الشيء الكثير.. ففي خمسة عشر يوماً فقط «النصف الثاني من رمضان سنة ٦١٤ هـ، هاجموا «بيسان» و«نوى» و«بانياس»، و«صيدا»، و«الشقيف».. «فامتلأت أيديهم بالأسرى والسبي والغنائم، وأتلفوا بالقتل والتحريق ما يتجاوز الوصف».. وذلك على الرغم من أن العرب قد استعملوا لإعاقة تحركات الصليبيين أسلوب إغراق الأرض والبلاد بالمياه، كما حدث في «داريا» و«قصر حجاج» و«الشاغور».

وخيل إلى الناس يومئذ أن الملك العادل سيترك الشام فريسة للصليبيين، وأنه بسبيل الرحيل عنها إلى القاهرة، فأخذ الناس يستعدون للنزوح من قراهم والهجرة من البلاد.. وسجل «المقريزي» ذلك الحوار الذي دار بين الملك العادل وبين شيخ عجوز من النازحين، وذلك عندما نزل العادل «بمرج الصفر»، ورأى في طريقه رجلاً يحمل شيئاً، وهو يمشي تارة ويقعد أخرى، فقال له: يا شيخ! لا تعجل، ارفق بنفسك»! فأجابه الشيخ إجابة المنكر عليه قوله هذا، بينما هو يستعد للرحيل، على عجل، من البلاد «فقال له يا سلطان المسلمين! أنت لا تعجل، أو أنا؟! إذا رأيناك قد سرت إلى بلادك، وتركتنا مع الأعداء، كيف لا نعجل»؟!.

واهتز كيان الملك العادل لهذا المنطق الذي حدثه به الشيخ العجوز،

وقرر البقاء في «مرج الصفر» وأن يكتب منها إلى مختلف أنحاء المملكة طالباً المدد والعون على قتال الأعداء.. فجاءه هناك «أسد الدين شيركوه» صاحب حمص، وجهز ابنه «المعظم» عيسى كي يدافع عن «نابلس» حتى يحول بين الجيوش الصليبية وبين دخول بيت المقدس، ودارت معركة عند قلعة الطور، دامت سبعة عشر يوماً، قتل فيها بعض ملوك الصليبيين، فاضطروا إلى الانصراف عنها والعودة إلى قاعدتهم «عكا» من جديد.. وانتعشت آمال الصمود والمقاومة في جبهة العرب والمسلمين..

وعند ذلك أدرك الصليبيون أن طريقهم إلى بيت المقدس سيكون عن طريق القاهرة! وأن خضوع هذه البلاد لن يتم لهم، ولن يستقر لهم المقام فيها إلا بالقضاء على قلب العروبة النابض وقيادة الدولة الأيوبية في مصر ذاتها.. وعند ذلك «اجتمع رأي الفرنج على الرحيل من عكا إلى مصر، والاجتهاد في تملكها..» فوصلت أساطيلهم في أكبر جملة جردوها على البلاد إلى مياه «دمياط» في يوم الثلاثاء ٨ يونيو سنة ١٢١٨م (٤ ربيع الأول سنة ٦١٥ هـ)..

وأخذت الإمدادات تصل إليهم من كل مكان، والمؤن والذخائر تترى عليهم في كل يوم، إذ بمقدار عظم الهدف وضخامة النتائج التي يرجونها من وراء غزو مصر وإخضاعها، كان عظم الحشد وضخامة الاستعدادات، وكما يقول «المقريزي»: إنه قد «خرجت أمم الفرنج من داخل البحر، تريد مدد الفرنج على دمياط، فوافى دمياط منهم طوائف لا يحصى لهم عدد، فلما تكامل جمعهم بدمياط خرجوا منها، في حدهم وحديدهم، وقد زين لهم سوء عملهم أن يملكوا أرض مصر، ويستولوا منها على ممالك البسيطة كلها»..؟!

البرج: قفل الديار المصرية

وفي اليوم التالي لوصول الأساطيل الصليبية إلى مياه دمياط خرج الملك الكامل ببقايا عساكره، الذين لم يذهبوا إلى الشام لملاقاة الصليبيين هناك. خرج بهم من القاهرة، وتقدم إلى «والي الغربية» فطلب منه تعبئة الأهالي للقتال، وأن يجمع «سائر العربان» بسلاحهم كي يلحقوا بجيشه عند دمياط،

كما تقدمت سفن الأسطول المصري فأقامت تحت أسوار دمياط.

وكانت دمياط مدينة حصينة بأسوارها، منيعة بحاميتها وأهلها الذين تعودوا من قبل على ملاقاة الصليبيين، ولقد سبق لها أن صدت غزواً صليبياً دام حصاره لها خمسين يوماً في سنة ١١٦١م على عهد صلاح الدين.. وطالما كان مجرى نهر النيل تحت السيطرة المصرية، فسيظل حاجزاً بينها وبين الصليبيين الذين نزلوا على شاطئه الغربي، قبالتها في ما كان يعرف يومئذ ببحيرة دمياط، وطالما لم يستطع العدو عبور هذا المجرى، والنزول إلى شاطئه الشرقي، فسيظل طريق الإمدادات للمدينة مفتوحاً تندعم عن طريقه بالجند والعتاد.. ومن هنا كانت السيطرة على فرع النيل هذا هي الحلقة الرئيسية لدى كل من المصريين والصليبيين على السوء.

وكان يتحكم في مدخل النيل هذا «برج» عظيم، يسمى «برج السلسلة» كان قائماً في وسط النيل، ودمياط بحذائه من جهة الشرق والجزيرة (الجيزة) بحذائه من ناحية الغرب، وبه سلسلتان من الحديد تمتد إحداهما على الماء إلى دمياط، والثانية إلى الجزيرة، فتحولا دون السفن المعادية ودون العبور إلى داخل البلاد.. ومن ثم كانوا يطلقون على هذا البرج اسم «قفل الديار المصرية» ، وتقوم فيه حامية من المقاتلين الأشداء..

ودارت المعارك بين الصليبيين وبين أهل البرج، وصمد المقاتلون المصريون.. واستمر القتال أربعة أشهر كاملة من أجل الاستيلاء على هذا الهدف الحصين؟!.. واستخدم الأعداء في سبيل ذلك أنواعاً كبيرة من السفن تسمى «المرمات»، وكانت مساحة «المرمة» تزيد على الخمسمائة ذراع، وهي مصنوعة من الحديد حتى لا تشتعل فيها النيران.. كما استخدموا كذلك الأبراج المتحركة.. وبذلوا قصارى جهودهم حتى استطاعوا الاستيلاء على البرج، وفك سلاسله بعد أربعة أشهر من القتال.. وعند ذلك دخلت سفنهم إلى مجرى النيل، تبغي الانتقال إلى البر الشرقي لمحاصرة دمياط، واتخاذها قاعدة لاستكمال غزو البلاد..

وعندما بلغ الملك العادل، وهو «ببرج الصقر» أن الأعداء قد استولوا على برج السلسلة في آخر جمادي الأول، حزن حزناً شديداً، وتأوه، ودق بيده على صدره أسفاً وحزناً، ومرض من ساعته، ومات بعد ذلك بأيام في السابع من جماد الثاني سنة ٦١٥ هـ . .

وتقدم الصليبيون في مجرى النيل، يريدون القاهرة، ولكن الملك الكامل أسرع بإقامة جسر عظيم عوضاً عن البرج يحول بينهم وبين استخدام النهر في التوغل إلى الجنوب، ودارت على هذا الجسر معركة حامية، كسبها الصليبيون، واستطاعوا أن يقطعوه، فأسرع المصريون إلى إغراق عدد من المراكب في مجرى النيل حالت بين الأعداء وبين التقدم إلى عاصمة البلاد . .

وعندما عجز الصليبيون عن التقدم جنوباً، اكتشفوا أن هناك خليجاً مهجوراً يعرف بالخليج الأزرق، كان النيل يجري فيه قديماً، فحفروه، وأجروا فيه ماء النيل إلى البحر الأبيض المتوسط واستقروا هناك عند قرية «بورة» وبينهم وبين جيش الملك الكامل مياه هذا الخليج، وشرعوا يقاتلونه، بينما ظلت الإمدادات تصل إلى دمياط، واستمر النيل حاجزاً بينها وبين الصليبيين . . وكان الحفاظ على الطريق المفتوح إلى دمياط هو هدف الملك الكامل الذي اتخذ من «العادلية» مركزاً لقيادته ومناوشاته ضد الصليبيين . . واستطاع المصريون أن يحشدوا في دمياط قرابة العشرين ألفاً من المقاتلين المسلحين . .

ثغرة في الجبهة الداخلية

ولم يستطع الصليبيون، رغم تفوقهم في العدة والعتاد، ورغم الإمدادات التي كانت تنهال عليهم من أوروبا والشام، لم يستطيعوا العبور إلى بر النيل الشرقي، وفرض الحصار على دمياط بواسطة القتال، وإنما استطاعوا ذلك بسبب استغلالهم لبعض الثغرات في الجبهة الداخلية للمصريين . . ذلك أن موت الملك العادل قد أثار الأحقاد والأطماع لدى بعض الأمراء ورؤساء الأجناد، فاجتمع جماعة منهم بقيادة الأمير عماد الدين أحمد، المشهور بابن

المشطوب، وقرروا خلع الملك الكامل، وإحلال أخيه «الفائز» محله.. وبلغت أخبار ذلك التدبير إلى الملك الكامل، وفاجأ بنفسه المتآمرين وهم مجتمعون يقسمون يمين الولاء «للفائز».. وعند ذلك تفرق المجتمعون خوفاً منه.. ولكنه هو الآخر قد تحولت مشاغله إلى هذا التدبير، وانصرفت أغلب اهتماماته عن مقاتلة الصليبيين..؟!

حتى إذا كان الليل خشي الملك الكامل على حياته من المتآمرين، فترك معسكره، وركب إلى بلدة «أشموم طناح» ـ شرقي المنصورة وجنوبي دكرنس ـ فنزل هناك.. وفي الصباح بحث الناس في المعسكر عن سلطانهم فلم يجدوه، فانفرط عقد الجند بعد أن افتقدوا قائدهم، وعمت فيهم الفوضى. وكما يقول «المقريزي»: «أصبح العسكر وقد فقدوا السلطان، فركب كل أحد هواه، ولم يعرج واحد منهم على آخر، وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم، ولم يأخذ كل أحد إلا ما خفّ حمله، فبادر الفرنج عند ذلك، وعبروا بر دمياط، وهم آمنون، من غير منازع ولا مدافع، وأخذوا كل ما كان في معسكر المسلمين، وكان شيئاً لا يقدر قدره»؟!.

وكان ذلك في يناير سنة ١٢١٩م (الثلاثاء ٦ ذي القعدة سنة ٦١٥ هـ).. أي أن ما عجزوا عن تحقيقه بالقتال طوال ثمانية أشهر، قد حصلوا عليه، باستغلالهم هذه الثغرة، في لحظات..؟! وذلك فضلاً عن الغنائم التي غنموها دون أي مجهود.. وعند ذلك فرضوا حصارهم من البر والبحر حول دمياط.

دمياط تقاوم

وبالرغم من فشل المؤامرة التي كانت تدبر ضد الملك الكامل، إلا أنه لم يستطع أن يزحزح الصليبيين من موقعهم الجديد، ويفك حصار دمياط.. ذلك أن الأعداء قد قويت صفوفهم بنجدات جديدة جاءتهم من «النمسا» و«بيزا» و«جنوه» و«البندقية» و«انكلترا» و«فرنسا»، يقودها مندوب البابا «الكاردينال بيلاجيوس»، فاستطاعوا إحكام محاصرتهم للمدينة وقطع المؤن عنها

والإمدادات.. وحفروا حولها خندقاً. وبنوا عليه سوراً ليرتفعوا به إلى سور المدينة.. واشتد القتال بين الفريقين، وتخللت فترات المعارك المناوشات والمبارزات.. وضربت حامية المدينة وأهلها أمثلة رائعة في الصبر والثبات والبطولة والفداء.. وكما يقول المقريزي إن الله «أنزل عليهم الصبر، فثبتوا، مع قلة الأقوات عندهم وشدة غلاء الأسعار».. ولم يكن معسكر المصريين يستطيع أن يمد يد العون للمدينة المحاصرة إلا في حالات نادرة، وبشكل لا يضمن لها الاستمرار في الحياة. كأن يأتوا بجمل مذبوح، فيملأون جوفه بالطعام ويطلقون جثته في مياه النيل، كي يلتقطها أهل دمياط؟!.. أو أن يذهب ذلك الفدائي السباح «شمايل» من عند الملك الكامل، عبر سفن الأعداء، فيدخل إلى المدينة، ويأتي السلطان بأخبار أهلها، فإذا دخل إليها قوى قلوب أهلها، ووعدهم بقرب وصول النجدات».. بل لقد استخدم أهل دمياط «سهم النشاب» قذيفة تحمل رسائل الاستغاثة وطلب النجدة من الملك الكامل.. وبواسطته بعث الأمير جمال الدين الكناني، من خلف أسوار المدينة، إلى الملك قصيدة زادت أبياتها على العشرين تصور حال المدينة، وتطلب الهجوم على الأعداء وفك الحصار؟!..

ولكن القصور الذي كانت عليه وسائل التعبئة للمعركة، والبطء الذي سارت به عمليات حضور النجدات من الشام والمشرق قد أطال حصار الأعداء للمدينة، وزاد من إحكامه، حتى انتشرت فيها الأمراض، وارتفعت فيها الأسعار بعد أن عزت الأقوات، فبلغ سعر البيضة الواحدة عدة دنانير «وامتلأت الطرقات من الأموات. وعدمت الأقوات وصار السكر في عزة الياقوت؟! وفقدت اللحوم، فلم يقدر عليها بوجه، وآلت بالناس الحال إلى أن لم يبق عندهم غير شيء يسير من القمح والشعير فقط». وعندما بلغت الحال هذا الحد، وأيقن أهل المدينة من الهلاك، وعجز الملك الكامل عن نصرتهم، آثروا تسليم المدينة للعدو، على أن يخرجوا منها بأموالهم وأهلهم، ودارت بينهم مفاوضات اتفق فيها على ذلك، ثم فتحوا أبواب المدينة فدخلها الصليبيون، ورفعوا أعلامهم فوق أسوارها.. غير أنهم نقضوا الاتفاق

«وغدروا بأهل دمياط، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً، وباتوا تلك الليلة بالجامع يفجرون بالنساء ويفتضون البنات، وأخذوا المنبر والمصاحف ورؤوس القتلى وبعثوا بها إلى «بلادهم» وجعلوا الجامع كنيسة» وأرسلوا الأسرى، عن طريق البحر إلى عكا..؟! وكان ذلك في أكتوبر سنة ١٢١٩م (الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦هـ).. أي بعد سبعة شهراً من نزول قوات الغزو إلى مياه دمياط.

وأخذ الصليبيون يستعدون للزحف على معسكر المسلمين، الذي كان قد أقيم مكان مدينة «المنصورة» «يريدون أخذ مصر والقاهرة» وإتمام الاستيلاء على البلاد.. «وصار بينهم وبين العسكر «المصريين» بحر أشمرم وبحر دمياط. وكان الفرنج في مائتي ألف رجل، وعشرة آلاف فارس» مدججين بالسلاح..

مصر تحشد طاقاتها

وللحظات أظلمت الصورة في عيني الملك الكامل، وخيل إليه أنه لا أمل في النصر، ومن ثم فلا فائدة من المقاومة والقتال.. إذ أن عوامل الطبيعة هي الأخرى قد ساهمت في تعميق الجرح وزادت من أثقال الكارثة، فهاج البحر في فصل الشتاء، وأغرقت أمواجه معسكر المسلمين «فعظم البلاء، واشتد الكرب، وألح الفرنج في القتال، ولم يبق إلا أن يملكوا البلاد» وعند ذلك «تزلزل الملك الكامل، وهم بمفارقة أرض مصر».. ولكنه عادت إليه آماله في النصر «ثم تثبت، فتلاحق به العسكر» وقويت شوكة المصريين عندما غنموا قطعة بحرية للعدو «فإذا هي مصفحة بالحديد، لا تعمل فيها النار، ومساحتها خمسمائة ذراع، وفيها من المسامير مازنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً»! وأخذت طلائع النجدات تصل من الشام.. وأهم من ذلك كله أخذت مصر تحشد طاقاتها، وتنفذ قانون التعبئة العامة لدفع الغزو الصليبي عن البلاد.. وشهدت مدنها وقراها من الشمال إلى الجنوب إجراءات التعبئة العامة والحشد الكلي قائمة على قدم وساق:

فأرسل الملك الكامل سبعين رسولاً من قبله إلى مختلف الأنحاء والآفاق في العالم العربي والإسلامي « يستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج ، ويستحثهم على إنقاذ المسلمين منهم ، وإغاثتهم ، ويخوفهم من تغلب الفرنج على مصر ، فإنه متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها » . وأعقبت هذه البعثات وصول النجدات من « حلب » و« حماة ».

وأخذ السلطان في تحصين المعسكر الذي أقامه في مكان مدينة المنصورة، ويقيم فيه «الدور والفنادق والحمامات والأسواق» وذلك استعداداً لاستقبال الحشود التي أخذت تتوافد على ميدان المعركة وجبهة القتال من داخل بلاد مصر ومن المشرق: في الشام والعراق.

وذهب إلى القاهرة الأمير علاء الدين جلدك والأمير جمال الدين صيرم، والأمير حسام الدين يونس، والشيخ الفقيه تقي الدين طاهر المحلي، فجمعوا «الناس من القاهرة ومصر، ونودي بالنفير العام، وألا يبقى أحد. وذكروا أن ملك الفرنج قد أقطع ديار مصر لأصحابه»، وأنه لا بد من خروج جميع الناس للقتال.

واشتركت في الحشد والتعبئة «سائر النواحي، ما بين أسوان إلى القاهرة». إلى آخر الحرف الشرقي، فاجتمع من المسلمين عالم لا يقع عليه حصر»، في جبهة القتال.

واحتشدت مائة قطعة من قطع الأسطول المصري في مياه النيل تجاه موقع المنصورة.. واجتهد المصريون في الحيلولة بين الأعداء وبين المؤن والإمدادات التي تتوالى عليهم، فأنزل الملك الكامل ناحية «شارمساح» ـ شمالي شربين ـ ألفي فارس، ومعهم عدة آلاف من أبناء القبائل العربية المصرية.. وسارت السفن إلى رأس «بحر المحلة»، تحت قيادة الأمير بدر الدين بن حسون.

وفرض الوزير «الصاحب صفي الدين بن شكر» ضريبة خاصة بالمعركة على أهل مصر والقاهرة، وخاصة «التجار والكتاب» «وقرر التبرع من

الأملاك، وهو مال جبي من الناس.. وحصل مالاً جماً».. للاستعانة به على التسليح والقتال.

الجبهة الشرقية في المعركة

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه الاستعدادات للمعركة الفاصلة مع العدو، وتنجز فيه مصر عمليات التعبئة، قرر الملك الكامل مع إخوته: «المعظم» حاكم دمشق، و«الأشرف» حاكم العراق، أهمية أن تدخل الجبهة الشرقية بكل إمكانياتها في المعركة ضد الصليبيين وذلك عن طريق: مهاجمة قواتهم الموجودة على ساحل الشام.. وعن طريق تجهيز النجدات والامدادات للمعركة الفاصلة في دمياط.. وبالفعل سارت الأمور في هذه المسائل نحو تقدم ملموس.. ولقد لخص الملك الكامل هذه الخطة في حديثه إلى أخيه «المعظم» الذي قال فيه: إن «المصلحة أن تنزل إلى بلاد الشام تشغل خواطر الفرنج.. وتستجلب العساكر من بلاد الشرق».. وهكذا شهدت بلاد الشام عدة معارك، في محاولة لتخفيف تركيز الصليبيين على دمياط:

ففي ١٢ ربيع الثاني سنة ٦١٥ هـ دخل الملك الأشرف موسى، أخو الملك الكامل، معركة انتصر فيها على ملك الروم «كيكاوس».

وفي شهر جمادي الثاني سنة ٦١٥ هـ ـ أي الشهر التالي لسقوط برج السلسلة في دمياط ـ التقى الملك المعظم، صاحب دمشق، بالصليبيين في ساحل الشام، وقاتلهم قتالاً شديداً، انتصر فيه عليهم «وقتل منهم مقتلة، وأسر من فرسان «الداوية» مائة فارس، وأسرهم وأدخلهم مدينة القدس منكسي الأعلام».

كما نزل بمدينة «قيسارية» وفتحها عنوة، وحررها من الصليبيين، ثم سار إلى حصن «النفر» الصليبي، حيث فتحه وهدمه.. وسير الجند والمقاتلين إلى مختلف مدن الساحل لشغل الصليبيين.

وحتى تستطيع جند المشرق أن تذهب إلى مصر لمساعدة أهلها، كان لا بد من قيام الأهالي بالدفاع عن مدنه وحصونه ضد الأعداء المتمركزين

بالسواحل والثغور.. وهكذا خرجت التعليمات من القاهرة إلى دمشق بضرورة أن يخرج الدماشقة (أهل دمشق) ليذبوا عن أملاكهم، الأصاغر منهم والأكابر، وذلك حتى يفرغ الجند النظامي فيرحل إلى دمياط.

وسرعان ما اشترك الملك «المعظم» صاحب دمشق، مع حاكم «ماردين» في إقناع الملك «الأشرف» صاحب العراق، بضرورة الاشتراك في نجدة دمياط.. على الرغم من سوء العلاقات بينه وبين أخيه الكامل وقالوا له: «المسلمون في ضائقة، وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضرموت وعفوا آثار مكة والمدينة والشام».. وهكذا اخذت نجدات المشرق تتوالى إلى جبهة القتال عند دمياط..

فجاء من «حماة» الملك المظفر محمود في عسكر كثيف.

وسحب الملك المعظم فرسانه وجنوده الذين كان قد أقام بهم حصن الطور وقلعته، وبعث بهم إلى دمياط.

وأرسل الملك الأشرف موسى نجدة يقودها الأمير سيف الدين بن كهدان.. وجاء صاحب «حمص»، وكذلك الناصر صلاح الدين قلج أرسلان.. وصاحب «بعلبك» الأمجد بهرام شاه.. الخ..

وذلك بالإضافة إلى النجدات التي جاء على رأسها كل من الملك المعظم والملك الأشرف صاحبي دمشق والعراق، وعند ذلك أحس الملك الكامل بأن أسباب النصر قد اجتمعت لجيشه وأن ميزان القوى لم يعد، كما كان من قبل، في مصلحة الأعداء.. ويعبر «أبو المظفر شمس الدين» صحاب (مرآة الزمان)، عن هذه الثقة التي أحس بها الملك الكامل من خلال تلك القصة التي يرويها «ابن تغري بردي» عندما يقول: «قال فخر الدين بن شيخ الشيوخ: لما حضر الفرنج دمياط، صعد الكامل على مكان عال، وقال لي: ما ترى؟ ما أكثر الفرنج! ما لنا بهم طاقة. فقلت له: أعوذ بالله من هذا الكلام، قال: ولم؟! قلت لأن السعد موكل بالمنطق، قال: فأخذت الفرنج دمياط بعد قليل. فلما طال الحصار، صعد يوماً على مكان عال، وقال: يـ

فلان : ترى الفرنج ؟ ما أقلهم ! والله ما هم شيء ! . . فقلت : أخذتهم والله ؛ قال : وكيف؟! قلت : قلت في يوم كذا وكذا : كذا وكذا ، فأخذوا دمياط . . وقد قلت اليوم : كذا ، والملوك منطقون بخير وشر . . فأخذ دمياط بعد قليل »؟!

لقد كانت هذه القصة التعبير عن الحالة النفسية الجديدة التي أصابت الملك الكامل ، والتجسيد للثقة التي تزايدت لديه بالانتصار على الغزاة . وذلك بعد أن اجتمعت له أسباب النصر ، من بعد أن ظن أنه لا قبل له بالصليبيين . حتى لقد هم بمغادرة البلاد .

القتال. والانتصار. والجلاء

والأمر الذي لا شك فيه إن النجدات والمساعدات التي جاءت إلى مصر من المشرق العربي، وكذلك آلاف الجند النظاميين الذين حشدهم الملك الكامل، قد كان لها آثار قوية في زعزعة موقف الأعداء، وكسر حدة تفوقهم على المصريين.. غير أن الجهد الحربي والقتال الذي أبلى في هذه المعركة أحسن البلاء، كان مصدره العنصر الوطني المصري، الذي تمثل يومئذ في عشرات الألوف من الفلاحين والصناع والحرفيين وأولاد البلد والتجار وأبناء القبائل العربية المصرية، الذين احتشدوا للقتال وجاؤوا لتحرير دمياط من كل مكان ، من : أسوان حتى القاهرة ومصر ، وحتى الحرف الشرقي » كما ذكر المؤرخون المعاصرون . . .

وهذه الحقيقة التي بدت واضحة في هذه المعركة كل الوضوح تدفع عن شعبنا تلك الفرية التي يرميه بها أعداؤه، والتي يزعمون بها أن المصريين كانوا بمعزل عن قتال أعدائهم في تلك العصور، وأن الجند المرتزقة من المماليك هم الذين تحملوا أعباء القتال في هذا الصراع.

فالمقريزي يذكر لنا كيف كان أبناء القبائل العربية المصرية، يغيرون على معسكرات الصليبيين، وكيف كانوا يتخطفون «الفرنج في كل ليلة، بحيث منعهم ذلك من الرقاد خوفاً من غاراتهم» وكيف تطور الأمر حتى أصبحت

هذه الغارات تتم في وضح النهار «فتكالب العرب عليهم حتى صاروا يختطفونهم نهاراً، ويأخذون الخيم بمن فيها».

كما يحكي لنا عن الدور المتعاظم الذي قام به المتطوعون والجنود من أبناء الشعب في القتال، وكيف أن دورهم هذا قد فاق دور الجنود النظاميين المماليك.. وفي أثناء حديثه هذا يقدم لنا نصاً يدل بوضوح وجلاء على أن الشعب هو الذي لعب الأدوار الحاسمة في حسم هذا الصراع لصالح الوطن، وذلك عندما يقول: «وكانت العامة تكر على الفرنج أكثر ما يكر عليهم العسكر».

بل ويقدم لنا نصاً آخر أوضح فيه كيف أدى هذا الدور المتعاظم الذي قام به الشعب في ساحة المعركة إلى تزايد وزن العامة والجماهير، وبالذات الفلاحين، في المجتمع يومئذ، وكيف كرهت ذلك الفئات والطبقات التي ساءها أن يعلو قدر أبناء الشعب على المرتزقة والغرباء والمستغلين.. وكيف رأى أحد شعراء هذه الطبقات المستغلة أن الخطر الصليبي هو الذي أتاح للعامة هذا المركز الممتاز، فبلغ به الحقد إلى الحد الذي فضل فيه الغزاة وحكمهم وتحكمهم على حكم أبناء الريف من الفلاحين، وذلك عندما قال:

يهددوننا بأهل «عكا» أن يملكونا، وأهل «يافا»
ومن لنا أن يلوا علينا فالروم خير من الريافا؟!

ثم يعقب المقريزي مفسراً هذا الشعر بقوله: إن الشاعر «يعني أهل الريف، فإنه كان قد كثر تسلطهم، وطمعوا في أمر السلطان، واستخفوا به»..

وعلى كل.. فلقي حمى لهيب القتال بين المصريين والغزاة.. ودارت معارك بحرية في نهر النيل أبلت فيها السفن (الشواني) المصرية بلاء حسناً، وأخذت سفن الأعداء تقع في أسر المصريين.. وعندما أحس الصليبيون أن موازين القوى قد بدأت تميل في صالح المصريين، راسلوهم وخاطبوهم في أمر الصلح، ولكن بشروط.. وكان الملك الكامل راغباً رغبة شديدة في وضع حد

للقتال الذي استمر أكثر من ثلاث سنوات، وكان يعلم أن جنده النظاميين قد ساءهم طول هذا القتال.. فأبدى استعداده لعقد الصلح مع الصليبيين وذلك شريطة أن يتم جلاؤهم عن البلاد :

وطلب الصليبيون، في نظير الجلاء عن مصر وتسليم دمياط، أن يترك لهم الملك الكامل كل المدن والحصون الشامية التي حررها واستردها صلاح الدين الأيوبي، وكان ذلك يعني الاستيلاء على كل فلسطين، وقطع الطريق البري بين المشرق والمغرب، وفصم عرى وحدة الوطن العربي التي كانت قائمة في ظل حكم الأيوبيين.. فوافق الملك الكامل، على أن يستثني من ذلك حصني «الكرك» و«الشوبك» حتى تظل الوحدة قائمة بين مصر والمشرق، وتظل دولته محيطة بالصليبيين من الشرق والغرب والجنوب والشمال.. ولكن الصليبيين تمسكوا باسترداد كل الحصون.. ولأمر ما وافق الملك الكامل.. ولكن الغزاة عادوا يطلبون المزيد من المكاسب، آملين في فرض المزيد من الشروط، فقالوا لرسل الملك الكامل: «لا بد أن تعطونا خمسمائة ألف دينار لنعمر بها ما خربتم من أسوار القدس».. فاستفز هذا الغرور الصليبي كبرياء الملك الكامل، فأطلق العنان للروح القتالية التي حشدها الشعب يومئذ من حول دمياط.. وعند ذلك عبرت جماعة من المقاتلين المصريين «بحر المحلة» إلى حيث الأرض التي يقوم عليها معسكر الأعداء، وكان الوقت وقت زيادة مياه النيل، في أول ليلة من ليالي شهر «توت».. وكما يقول المقريزي: إنهم «فتحوا مكاناً عظيماً في النيل.. والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر، ولا بأمر النيل. فلم يشعروا إلا والماء قد غرق أكثر الأرض التي هم عليها، وصار حائلاً بينهم وبين دمياط، وأصبحوا وليس لهم جهة يسلكونها سوى جهة واحدة ضيقة. «ثم أسرع المسلمون في نصب الجسور على «بحر أشموم طناح»، وعبرت عليها العساكر فقطعت هذا الطريق الضيق على الصليبيين الذين أصبحوا محاصرين من كل الجهات.

وكان من بين القوات الصليبية المحاصرة مائة من الفرسان، وثمانمائة من الخيالة، ومعهم أعداد غفيرة من الجنود المشاة، وعلى رأسهم «يوحنا» ملك

«عكا» الذي كانت له قيادة الحملة في بدايتهـا، وأحد الـدوقات من أمـراء أوروبا الإقطاعيين، ومندوب البابا الكـاردينال «Pelage» الـذي يسميه «ابن تغري بردي» «اللوكان». . وأخذ المسلمون يغيرون على أطرافهم، ويصطادون منهم بالنشاب. . ودارت معارك بحرية غنم فيها المصريون السفن و«المرمات» و«الحراقات».

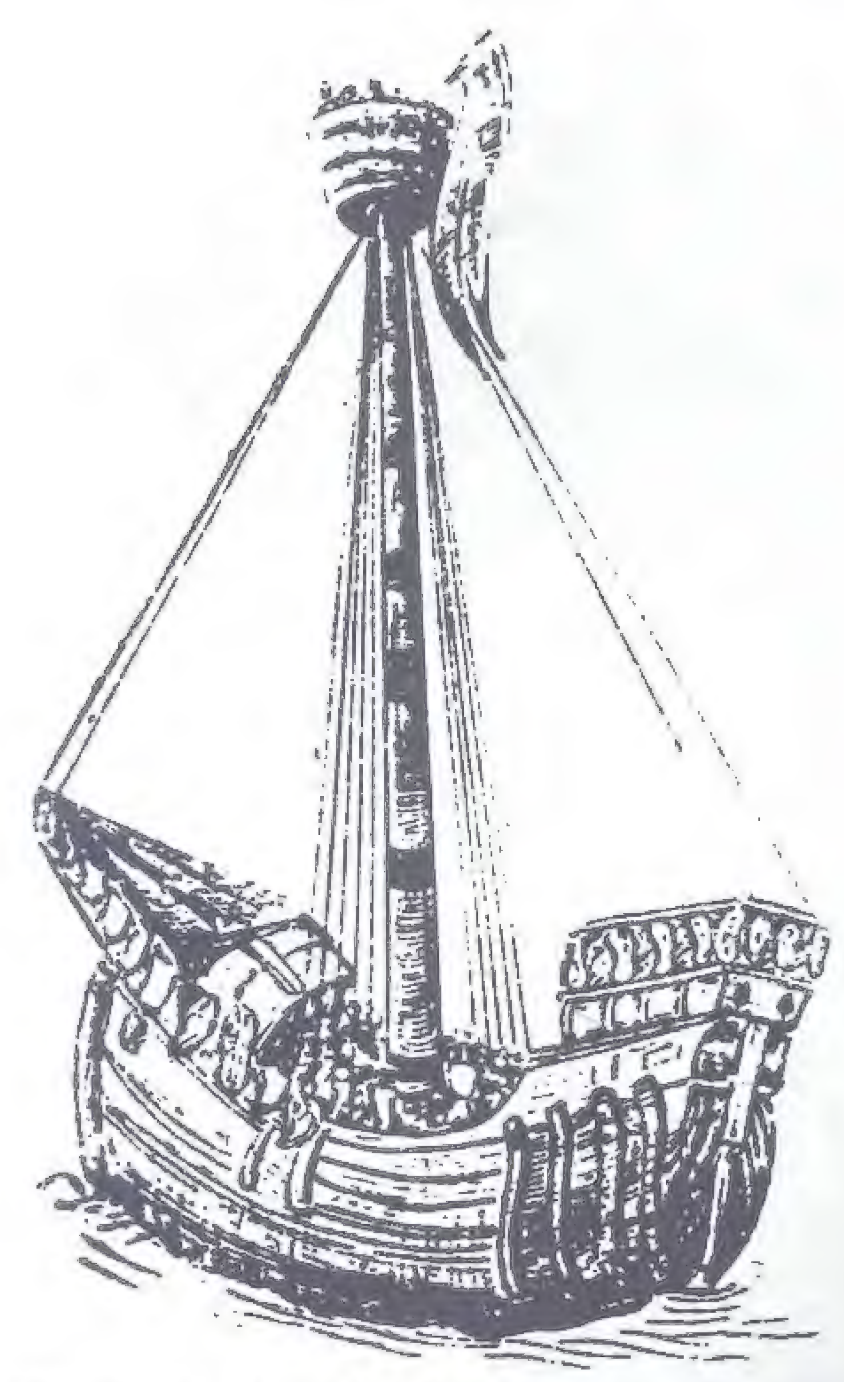
وعندما أيقن الصليبيون الهلاك، أرسلوا إلى الملك الكامل طالبين وقف القتال، والجلاء، وتسليم دمياط، دون أية شروط على أن يطلق كل طرف ما لديه من أسرى، بما فيهم الأسرى المسلمين الذين كانوا لدى الصليبيين منذ حروب صلاح الدين. .

وكان الاتجاه السائد في معسكر المسلمين هو مواصلة القتال حتى إبادة الغزاة. . ولكن الملك الكامل كان يرى وقف القتال. . وذلـك مخافـة قدوم إمدادات صليبية جديدة تدعم موقفهم خلف أسـوار دمياط، وطلبـاً للسلام الذي كان يتوق إليه عدد غير قليل من جنوده النظاميين. . وانتصر رأيـه، واقتنع به معارضوه.

وفي ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ (سبتمبر سنة ١٢٢١م) حلف مندوبـو الطرفين على تنفيذ: الأمان، والجلاء، وتسليم الأسرى. . وضماناً للتنفيذ بعث الصليبيـون بعشرين ملكاً وأميـراً من ملوكهم وأمرائهم، من بينهم مندوب البابا، رهائن لدى المصريين، بينما بعث الملك الكـامل إليهم بـابنه الأمير الصالح نجم الدين، وبعض خاصته، لحين تنفيذ الاتفاق. . وتم الجلاء عن دمياط في ١٩ رجب، بعد عقده باثني عشر يوماً.

وسجل المؤرخون أنها كانت هدنة. . ولم تكن صلحاً وإن مدتها كانت ثماني سنوات. . وإن نقضها كان حقاً من حقوق الذين لم يحضروا، بشكل مبـاشر، هذا الصراع، من ملوك أوروبـا وأمرائهـا مثـلاً. . وهي لم تكن صلحاً، لأنه ما كان لحاكم عربي مسلم أن يعقد مع الأعداء صلحا بينما هم لا يزالون يحتلون شبراً من أرض العروبة والإسلام. . فلقد كانت لا تزال

للصليبيين حصون وقلاع على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، في فلسطين، ولذلك كانت هذه الهدنة التي عقدها الملك الكامل، فقط نهاية لصفحة من صفحات هذا الصراع، ارتبطت أحداثها وأمجادها بمصر ومدينتها الباسلة «دمياط».. بينما ظل هذا الصراع الحضاري والعسكري قائما - وإن تعددت صوره وميادين الالتحام فيه - حتى هذه اللحظات.



الحراقة .. احدى السفن التي اشتركت في موقعة ذات الصواري القديمة .. والتي ظلت تستخدم في صد غزوات الصليبيين


البحر المتوسط
المنصورة
حملة لويس التاسع
على مصر (١٢٤٩م)



المعركة الفاصلة التي قضت على أحلام الصليبيين في المنصورة والتي انتصرت فيها المقاومة المصرية ... لوحة من دار ابن لقمان هناك ... كما تصورها أحد الفنانين

معركة المنصورة

[٦٤٨هـ ١٢٥٠م]

نقض الصليبيون الهدنة التي قامت على أرض فلسطين بين الملك الأيوبي الكامل (١٢١٨ ـ ١٢٣٨م) والإمبراطور الألماني المستنير فردريك الثاني (١٢١٥ ـ ١٢٥٠م) وذلك عندما أبحرت من أوروبا حملة صليبية جديدة فوصلت إلى الشام في سنة ٦٣٧ هـ (سنة ١٢٣٩م) وقام الصليبيون بإقامة قلعة عربية في القدس، وجعلوا «برج داود أحد أبراجها» وذلك استعداداً للنشاط التوسعي الذي قرروا بدءه ضد العرب والمسلمين.. ولكن القوات المصرية التقت بالجند الصليبي، واستطاعت بقيادة «الناصر داود» أن تنتزع منهم هذه القلعة الجديدة بعد حصار دام واحداً وعشرين يوماً.. وكما يقول «المقريزي» في (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك): إن الناصر قد «هدم برج داود، واستولى على القدس، وأخرج منه الفرنج، فساروا إلى بلادهم».

وأخذ «العسكر المصري» في تعقب جند الصليبيين، فساروا إليهم في منطقة الساحل الفلسطيني، حيث قلاعهم وحصونهم، وأوقعوا بهم هزيمة أخرى في يوم الأحد ١٤ ربيع الأول سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩م) عندما قتلوا منهم ألفاً وثمانمائة جندي، وأسروا عدداً من أمرائهم، وثمانين فارساً من فرسانهم ومائتين وخمسين من المقاتلين المشاة، وجيء بهؤلاء الأسرى إلى القاهرة، بينما لم يقتل من العسكر المصري» غير عشرة من الجنود.

غير أن هذه الانتصارات التي كان «العسكر المصري» قد شرع في إحرازها، وأخذ يتعقب بها المد الحربي الصليبي الجديد، لم يقدر لها أن تسير في سبيلها دون عقبات، فلقد استطاع الصليبيون أن ينفذوا من ثغرة الخلافات في جبهة العرب والمسلمين. تلك الخلافات التي ظهرت بين سلطان مصر يومئذ الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩م) وبين الأمراء الأيوبيين في الشام، وبالذات عمه الصالح عماد الدين اسماعيل، صاحب دمشق، والناصر داود صاحب الكرك، وهما اللذان رفضا التعاون مع الصالح نجم الدين أيوب، وتوحيد الجهد العربي في المعركة ضد الصليبيين، فسعيا وراء تأكيد استقلالها الاقليمي على حساب وحدة الشعب العربي الكبير..

ومن هذه الثغرة في الجبهة العربية أطل أعداء الأمة العربية جميعاً، فالتتار، الذين كان خطرهم الزاحف من الشرق قد أطل برأسه، استطاعوا أن يفرضوا الأتاوة على أهل الشام عندما عزلهم حكامهم عن الوحدة مع المصريين، وفي سنة ٦٤٢ هـ (سنة ١٢٤٤م) تقررت على أهل الشام جزية - يسميها المقريزي «قطيعة» - سنوية، «من الغني عشرة دراهم، ومن المتوسط خمسة دراهم، ومن الفقير درهم»، وجاء بهذا القرار كتاب من صاحب «الموصل» «بدر الدين لؤلؤ» إلى أهل دمشق «فقرأ القاضي محيي الدين بن زكي الدين الكتاب على الناس، ووقع الشروع في جباية المال»؟!

أما الصليبيون فلقد استطاعوا استثمار هذه الثغرة إلى الحد الذي فاق كل التوقعات والأحلام.. فطريق الخلاف مع مصر، والعداء للملك الصالح نجم الدين أيوب قاد صاحب دمشق وصاحب الكرك إلى التحالف الصريح مع الصليبيين ضد مصر والمصريين، وعندما وضع هذا التحالف في التطبيق:

فتح الصالح إسماعيل أبواب دمشق أمام التعامل والمتاجرة مع الإمارات الصليبية، بل وأباح للجيوش الصليبية أن تشتري السلاح من صناعه وتجاره الدمشقيين «فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق» وضجت أوساط الشعب في دمشق بمن فيهم تجار السلاح وصناعه بالشكوى

والمعارضة، وذهبوا إلى «سلطان العلماء» يومئذ الشيخ العز بن عبد السلام يستفتونه، «فأفتى بتحريم بيع السلاح للفرنج» وقاد الحملة من على منبر الجامع الكبير بدمشق ضد الملك الصالح اسماعيل.. مما أدى إلى عزله عن الخطابة، واعتقاله، ثم هجرته من الشام إلى القاهرة سنة ٦٣٩ هـ (سنة ١٢٤١م).

وفي سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠م) بعث صاحب دمشق إلى صاحب «حمص»، وإلى أهل «حلب»، بل وإلى الصليبيين يطلب منهم النجدات والمساعدات لأنه خارج بجيشه لغزو مصر.. وفي مقابل ذلك تنازل للصليبيين عن «قلعة صفد» وبلادها، و«قلعة الشقيف»، وبلادها، واقتسم معهم «صيدا» و«طبرية» وبلادهما، و«جبل عامل، وسائر بلاد الساحل»، ووصل الصليبيون بسبب هذه التنازلات إلى مدينة «نابلس»، بل لقد وعدهم الصالح إسماعيل «أنه يعطيهم جميع ما فتحه السلطان صلاح الدين الأيوبي» في نظير مساعدته ضد مصر وابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب؟!.

وعندما علمت مصر بتحرك الصالح إسماعيل ومعه الصليبيون قاصدين غزوها، خرج الجيش المصري للقتال، ودارت الدائرة على صاحب دمشق وأنصاره، بل لقد سجلت هذه المعركة صفحة ناصعة لعروبة أهل الشام وتضامنهم القومي مع إخوانهم المصريين ضد الخونة والغزاة، ذلك أنه عندما التحم الجيشان انضم جند الشام إلى جند مصر، ووجهوا سيوفهم جميعاً إلى الصليبيين، وكما يقول «المقريزي»: «وعندما تقابل العسكران ساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة، ومالوا جميعاً على الفرنج، فهزموهم، وأسروا منهم خلقاً لا يحصون»؟! وبعد أن انتهت المعركة هرب الصالح إسماعيل وأنصاره، وعاد جند الشام مع إخوانهم المصريين إلى القاهرة، وجاؤوا معهم بالأسرى الصليبيين، فاستخدمهم الملك الصالح نجم الدين أيوب في بناء «قلعة الروضة، والمدارس الصالحية بالقاهرة»!

ولم يرتدع أو يعتبر صاحب دمشق من هزيمته هذه، فاستمر في طريق الخيانة، واستغل الصليبيون تحالفه معهم فأخذوا يعيثون فساداً في البلاد، وفي

يوم الجمعة ٤ جمادى الأول سنة ٦٤١ هـ (سنة ١٢٤٢ م) « دخل الفرنج من عكا إلى نابلس ، ونهبوا وقتلوا وأسروا وأخذوا منبر الخطيب » من جامع نابلس؟! واستمروا يعيثون في المدينة فساداً حتى يوم الأحد ؟! أي أنهم قد استباحوا نابلس ثلاثة أيام؟!

وظلت تلح على صاحب دمشق فكرة غزو مصر بالتعاون مع الصليبيين ، ولذلك رفض المحاولات التي بذلها سلطان مصر ، الملك الصالح نجم الدين أيوب ، لتوحيد الجهد العربي ضد الصليبيين وإماراتهم ، وضد الخطر التتري الذي كان يتزايد بالمشرق في ذلك الحين . . فلقد تكررت في سنة ٦٤١ هـ (سنة ١٢٤٣ م) - كما يقول « المقريزي » - « المراسلة بين الصالح نجم الدين أيوب ، وبين عمه الصالح إسماعيل ، صاحب دمشق ، وبين المنصور ، صاحب حمص : على أن تكون دمشق وأعمالها للصالح اسماعيل ، ومصر للصالح أيوب ، وكل من صاحب « حمص » و« حماة » و« حلب » على ما هو عليه ، وأن تكون الخطبة والسكة (العملة) في جميع هذه البلاد للملك الصالح نجم الدين أيوب . . . » وهو الأمر الذي يوفق بين المصالح الخاصة ومتطلبات المعركة ضد الصليبيين ، ويوازن بين استقلالية الإمارات ووحدة البلاد .

رفض صاحب دمشق هذا المشروع الاتحادي، وظلت آماله معلقة على الاستعانة بالصليبيين في غزو مصر؟! وفي سبيل ذلك سلم إلى الصليبيين مدينة القدس . . ومدينتي طبرية وعسقلان «فعمر الفرنج قلعتيهما وحصونهما، وتمكن الفرنج من الصخرة بالقدس، وجلسوا فوقها بالخمر، وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى . . . . . »؟! . . بل لقد بلغت الخيانة بصاحب دمشق - كما يقول ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة) - إلى الحد الذي وعد فيه الصليبيين « بأنه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها »؟! . .

مصر تتحرك لتوحيد الجبهة

وفي الوقت الذي كانت تشهد فيه الجبهة العربية هذا التمزق، وينفذ من ثغراتها هذه أعداء الأمة الصليبيون، ويستعد للنفاذ من خلفهم التتار،

كانت أوروبا تستعد لإرسال حملة صليبية جديدة هي الحملة السادسة بقيادة لويس التاسع، تجهز على مصر وتهدم بقايا البناء القومي الذي أقامه صلاح الدين الأيوبي.. ولذلك فإن مصر قررت أن تتحرك لتزيل من على مسرح الأحداث بالشام أولئك الأمراء الخونة الذين فرقوا صفوف الأمة واستعانوا بالأعداء في سبيل المحافظة على العروش والإمارات.. .

فخرج السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من القاهرة وسار إلى الشرق، وعسكر بجيشه في «بركة الجب» حتي يستكمل الاستعداد.. ومن هناك أرسل إلى «الجنود الخوارزمية» القاطنين بشرقي العراق، فعقد معهم اتفاقاً، واستدعاهم إلى الحضور كي يشتركوا مع جند مصر في قتال الأمراء الخونة بالشام.. حدث ذلك في سنة ٦٤١ هـ، وفي العام التالي (سنة ٦٤٢ هـ سنة ١٢٤٤م) تحركت الجنود الخوارزمية من المشرق، فعبروا الفرات، وكان عددهم يزيد على عشرة آلاف مقاتل من الجنود الأشداء... وفي طريقهم إلى لقاء جند مصر مروا بمدينة القدس، ففتحوها وانتزعوها من يد الصليبيين، بعد أن أفنوا من بها من جنود الفرنجة عن بكرة أبيهم.. ثم ساروا حتى وصلوا إلى «غزة»، وهناك التقى بهم الجيش المصري فانضموا إليه، استعداداً لقتال أمراء الشام المتحالفين مع الصليبيين.

وفي دمشق جهز الصالح إسماعيل جيشاً جعل قيادته لصاحب «حمص» «الملك المنصور» فسار به من دمشق إلى الحصن الصليبي في «عكا»، حيث انضمت إليه قوات الصليبيين، وساروا جميعاً نحو «غزة» للقاء الجيش المصري الذي انضمت إليه الجنود الخوارزمية هناك..

وعلى أرض المعركة التقى الجيشان، وسجل التاريخ صورة ذات دلالة كبرى ومغزى عميق.. فصاحب دمشق وصاحب حمص وصاحب حماة وصاحب الكرك - في سبيل عروشهم وإماراتهم - وقفوا في صف الصليبيين ضد «عساكر مصر» الذين كانوا يحاربون لتوحيد الجبهة العربية كي تستعد للحملة الجديدة التي يحضر لها أمراء الإقطاع الأوروبيون في ذلك الحين..

وفي مواجهة الجيش المصري . . كانت ميمنة الجيش المعادي مكونة من الجنود والفرسان الصليبيين، وفي الميسرة عسكر صاحب حصن الكرك، وفي القلب الملك المنصور صاحب حماه ومعه جند صاحب دمشق الصالح إسماعيل . . وكما يقول «المقريزي» إن الفرنج قد رفعوا الصلبان على عسكر دمشق، وفوق رأس المنصورة صاحب حمص، والأقسة (القساوسة) تُصلِّب، وبأيديهم أواني الخمر تسقي الفرسان»؟! . .

ولقد استفز هذا التحالف، بمظهره البشع هذا، مشاعر الجند المصريين، ورأوا في هؤلاء الأمراء الخونة خنجراً في صدر العروبة والإسلام لا يقل خطراً عن الغزاة الصليبيين، رغم أسمائهم العربية الإسلامية التي لم تعد تستطيع ستر خياناتهم عن الأنظار . . فالتحم الجيشان، ودارت بينهما معركة حامية، أبلى فيها جند مصر وعساكر الخوارزمية بلاء شديداً، فدارت الدائرة على الأمراء الخونة، فقتل منهم من قتل، وأسر منهم من أسر، واستطاع قائدهم «المنصور» صاحب حماة الفرار إلى دمشق في نفر يسير من أصحابه . . وكما يقول المقريزي: «إن جند مصر والخوارزمية، أحاطوا بالفرنج، ووضعوا فيهم السيف حتى أتوا عليهم قتلاً وأسراً، ولم يفلت منهم إلا من شرد. فكان عدد من أسر منهم ثمانمائة رجل، وقتل منهم ومن أهل الشام زيادة على ثلاثين ألفاً . . .» . . ؟!

«وجاءت البشارة بذلك إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب في الخامس عشر من جمادى الأولى، فأمر بزينة القاهرة ومصر وظواهرهما وقلعتي الجبل والروضة» . . فلقد خطت مصر أولى خطواتها الضرورية لتوحيد الجبهة القومية كي تستطيع مواجهة خطر الغرب الصليبي، وخطر الشرق الذي يعد له التتار الوثنيون . .

وحدة المشرق ومصر تعود

وفتحت هذه المعركة أمام الجيش المصري الطرق كي يطارد فلول الصليبيين والأمراء الخونة المتحالفين معهم، وبرزت أمام الملك الصالح نجم الدين أيوب الفرصة الذهبية لاستكمال توحيد الجبهة القومية . . فسار

جنده ونوابه إلى حيث استولوا على «غزة» وسواحلها، وكذلك «القدس» و«الخليل» و«بيت جبريل» و«الأغوار» و«نابلس».. انتزعوا هذه المدن والحصون من أيدي الصليبيين وحلفائهم الأمراء الخونة بالشام.. وفرضوا الحصار مدة من الزمن على الحصن الصليبي في «عسقلان»..

وفي نفس العام (سنة ٦٤٢ هـ سنة ١٢٤٤م) جهزت القاهرة جيشاً قاده الوزير «الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ»، فسار إلى الشرق، ماراً بغزة، وبعد أن حاصر «بيسان» لبعض الوقت، ذهب إلى دمشق، حيث كان الأمراء الخونة قد اعتصموا بأسوارها، وظل الجيش المصري محاصراً لهم بها، يقاتل حيناً وينتظر حيناً، حتى انتهى عام ٦٤٢ هـ. ودخل العام الذي يليه.. حيث دارت المفاوضات التي انتهت بخروج الأمراء الخونة من دمشق، وعودتها من جديد إلى أحضان الدولة العربية الكبرى وتحملها من جديد قسطها في الاستعداد لمحاربة الصليبيين.

وبعد تحرير دمشق «سلم الأمير سيف الدين علي بن قلج قلعة «عجلون» لأصحاب الملك الصالح نجم الدين أيوب».. وتوالت الفتوحات والانتصارات.. ففي سنة ٦٤٤ هـ (سنة ١٢٤٦م) سار الجيش المصري بقيادة الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، فانتزع من يد الصليبيين «طبرية» وهدم ما أقامه الصليبيون فيها من قلاع وحصون.. ثم سار بعد فتح «طبرية» فصنع نفس الشيء مع «عسقلان» في يوم الخميس ١٣ جمادي الآخرة سنة ٦٤٥ هـ (سنة ١٢٤٧م)، وعقب ذلك تم أيضاً تحرير «قلعة بانياس» من احتلال الصليبيين.. ولم يبق بأيديهم سوى بعض الحصون والقلاع الساحلية. كما أصبح الأمراء الخونة ـ بعد هزيمتهم ـ شبه معزولين في بعض المدن القريبة من حصون الصليبيين..

وكسبت الأمة العربية معركتها الأولى في سبيل توحيد جبهتها القومية.. وهي المعركة التي استغرقت تسع سنوات من الحرب والنضال بدأتها في سنة ٦٣٧ هـ واستكملت جني أغلب ثمارها في سنة ٦٤٥ هـ..

وعندما رأت الأوساط الصليبية في أوروبا أن مصر قد استطاعت توحيد الجبهة القومية العربية، وأن المشرق قد تلاحم مع مصر تحت قيادة سلطان واحد هو الصالح نجم الدين أيوب، فكرت هذه الأوساط في ضرب مصر أولاً، وتوجيه حملة صليبية لم يسبق أن وجه الغرب مثلها، عددا وعدة وعتادا، لتحتل مصر، وخططوا في ذات الوقت لفتح معركة وجبهة ثانية بالمشرق العربي، تشغل هذا المشرق عن نجدة مصر ومساعدتها، في نفس الوقت الذي تكون فيه مصر مشغولة بالحملة الصليبية الغازية، فلا تستطيع نجدة المشرق، فيسقط الوطن العربي بأكمله في يد الغزاة..

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف قرر البابا «اينوسنت الرابع» أن يستعين على تحقيق هذه الأهداف بقوى وثنية، لا تؤمن بأي دين، هي قبائل المغول، ضد العرب المسلمين الذين يدينون بدين سماوي مثل المسيحيين؟!.. ففي سنة ١٢٤٥ م (٦٤٣ هـ) أرسل البابا أحد رجاله - «جون ده بياني كابريني» - إلى بلاط «خاقان» المغول كي يمهد لعقد هذا التحالف بين المسيحيين والوثنيين ضد المسلمين! وفي ذات الوقت أخذ في حشد قوى الإقطاع الأوروبي وأمرائه وفرسانه وجنوده خلف ملك متدين هو لويس التاسع ملك فرنسا، الذي عهد إليه بقيادة الحملة الصليبية السادسة، والتي ستكون وجهتها مصر، باعتبارها قاعدة المقاومة العربية وقيادتها، وباعتبارها المفتاح والبوابة لانتزاع الشام من أيدي العرب والمسلمين.

ومما هو جدير بالذكر أن تقييم دور مصر هذا، ونظرة الصليبيين لها على هذا النحو، ليس حديث مبالغة ولا هو من آثار الكتابات الحديثة عن دور مصر العربي في عصرنا الحديث.. فالمؤرخ «ابن واصل» وهو المعاصر لتلك الأحداث، يعطي هذا التقييم في عبارة واضحة وحاسمة بكتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) عندما يقول عن لويس التاسع وحملته: أنه كان «من أعظم ملوك الفرنجة، وأشدهم بأساً... وكان متديناً بدين النصرانية

مرتبطاً به.. فحدثته نفسه أن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج،... وعلم أن ذلك لا يتم له إلا بملك الديار المصرية..».

وأبحر الملك لويس التاسع بجيش حمله على أسطول مكون من مائتي سفينة.. وفي طريقه إلى مصر أقام بجزيرة قبرص، كي يكمل استعداده، ويقضي شتاء (١٢٤٨ ـ ١٢٤٩م)، وهناك تجدد المسعى لفتح الجبهة الشرقية بواسطة التتار، بينما هو يقتحم أرض مصر بجيشه الصليبي الجرار.. فجاءته بقبرص سفارة من «خاقان» التتار «جغطاي»، أجرت هناك مباحثات، ثم عادت وبصحبتها وفد من رجالات الحملة الصليبية لاستكمال المباحثات في بلاط الخاقان التتري.. وكان الصليبيون يستخدمون يومئذ في هذا البلاط كل الوسائل، دون تمييز، لكسب هذه القوة المدمرة وتوجيهها إلى بلاد العرب والمسلمين.. كانوا يستخدمون نفوذ إحدى زوجات «الخاقان» ـ «دوقنوز خاتون» ـ وكانت مسيحية نسطورية؟! وكانوا يستخدمون نفوذ أحد القادة العسكريين التتار ـ «كتبغا» ـ وكان هو الآخر مسيحياً نسطورياً؟! وكانوا يستخدمون حاشية من الأطباء والفلكيين النساطرة كذلك.. وذلك رغم العداء الديني بين المذهب النسطوري وبين مذهب بابا روما زعيم الكاثوليك..

وعلى الجبهة الأخرى كان الإمبراطور الألماني المستنير «فريدريك الثاني»، وهو الذي خرج على سلطة البابا، وتعرض للحرمان الكنسي بسبب دعوته إلى السلام ومعارضته للحروب الصليبية، وتأثره بفكر الحضارة العربية وفنها وثقافتها، كان هذا الإمبراطور يبعث إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب بأنباء الاستعدادات الحربية القائمة في أوروبا على قدم وساق دعماً لحملة لويس التاسع على مصر..

وفي الوقت الذي كان الجيش الصليبي يستكمل استعداداته في قبرص، كان الملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشق، وكان قد دهمه المرض الذي لازمه حتى الوفاة، فعزم على التحرك إلى مصر، ورغم مرضه، الذي حملوه بسببه على «محفة» فإنه قد ذهب إلى المكان الذي ستدور عنده المعركة القادمة

مع الصليبيين، ذهب إلى «أشموم طناح» بالدقهلية، على مقربة من دمياط في شهر المحرم سنة ٦٤٧ هـ (إبريل سنة ١٢٤٩م)، فدمياط كانت يومئذ هي المدخل الذي يأتي منه الغزاة الصليبيون لامتلاك البلاد.. وكانوا لذلك يسمونها في ذلك العصر «عقيلة الإسلام وثغر الديار المصرية»..

ومن على سرير المرض بمركز القيادة في «أشموم طناح» شرع الملك الصالح في إعداد مصر للحرب، بتعبئة طاقاتها، قبل أن يصل إلى أرضها جيش الأعداء.. فبعث إلى نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبي علي بطلب إليه إرسال السفن الحربية (الشواني)، شيئاً فشيئاً. وكانت هذه «الشواني من صناعة مصر» كما يقول «المقريزي».. ذلك أن السلطان كان قد أنشأ من قبل «قلعة الروضة» وجعلها بمثابة قاعدة بحرية يعيش فيها المماليك المسلحون، وعلى مقربة منهم السفن الحربية المجهزة، وكما يقول «ابن اياس» في كتابه (بدائع الزهور) إن السلطان قد «جعل حول تلك القلعة شواني حربية مشحونة بالسلاح معدة لقتال الفرنج إذا طرقوا البلاد، فتكون هذه المماليك على أهبة، فينزلون في الحال في الشواني ويتوجهون إلى قتال الفرنج. وكان عددهم ألف مملوك قاطنين بالقلعة لا يخالطون الناس بالمدينة»؟!

وأرسلت التعزيزات إلى حامية دمياط، «فشحنت دمياط بالذخائر، وأحكمت الشواني» ـ على حد تعبير صاحب (النجوم الزاهرة) ـ واختار السلطان من بين أمرائه الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، ذلك أبلى بلاء حسناً في معركة الشام لتوحيد الجبهة القومية، وطلب إليه أن ينزل بجيشه تجاه دمياط، على الضفة الغربية من النيل «ليصير في مقابلة الفرنج إذا قدموا».

وكان الملك لويس قد عرج، وهو في طريقه إلى مصر، وبعد أن غادر قبرص، على حصون الصليبيين وإماراتهم على الساحل الفلسطيني، فانضم إليه من فرسانهم ومقاتليهم عدد كبير.. وساروا جميعاً حتى وصلوا إلى مياه دمياط في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة ٤ يونيو سنة ١٢٤٩م (٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ) في أسطول عدته مائتا سفينة و٩,٥٠٠ فارس و١٣٠,٠٠٠

جندي، هذا عدا الغلمان والسوقة والبحارة ـ حسب إحصاء الملك لويس ذاته ـ؟!

إنذار.. يقابله تحدي

ويورد «المقريزي» الخطابين المتبادلين بين الملك لسويس التاسع وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب، فلقد بعث لويس بإنذاره إلى السلطان المصري.. وجاء فيه: «أما بعد، فإنه لم يخف عنك إني أمين الأمة العيسوية، كما إني أقول إنك أمين الأمة المحمدية. وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلي منهم الديار. وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية. فلو حلفت لي بكل الإيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان، ما ردني ذلك عن الوصول إليك، وقتالك في أعز البقاع عليك... وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء»؟!

وعندما قرىء هذا الإنذار على الملك الصالح نجم الدين أيوب في سرير مرضه، استدعى كاتب إنشائه القاضي «بهاء الدين زهير بن محمد»، فكتب إلى الملك لويس: «أما بعد، فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك.. فنحن أرباب السيوف.. ولو رأت عيناك ـ أيها المغرور ـ حد سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولا بد أن تزل بك القدم، في يوم أوله لنا وآخره عليك، فهنالك تسيء بك الظنون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون... إن الباغي له مصرع، وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يقلبك. والسلام»!

وفي يوم ٥ يونيو سنة ١٢٤٩م نزلت قوات الغزو إلى البر، وعسكرت على مقربة من المعسكر المصري الذي كان يقود جنوده الأمير فخر الدين:

ونصبت للملك لويس خيمة حمراء أقام فيها.. ولم تحدث في هذا اليوم سوى مناوشات هينة بين الجيشين، استشهد فيها اثنان من أمراء الجيش المصري ـ كان أحدهما ضيفاً قد حضر من الشام ـ هما الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام، والأمير صارم الدين ازبك الوزيري.. ثم حل الظلام ففصل بين المقاتلين..

انسحاب غير مفهوم.. ثم تعبئة

ولأمر ما.. لم يستطع فهمه ولا تفسيره مؤرخو ذلك العصر، كما لم يستطع فهمه ولا استساغه الملك الصالح نجم الدين أيوب، لأمر ما انسحب الأمير فخر الدين بعساكره من أمام الجيش الصليبي في مساء اليوم الأول لنزول الغزاة إلى البر، وبعد هذه المناوشات التي لا قيمة لها في اعتبار الحرب والمحاربين.. فانتهز فرصة الليل، وعبر بجنوده المماليك إلى البر الشرقي من النيل حيث مدينة دمياط، لا لينضم إلى حامية المدينة وشعبها، بل ليواصل المسيرة إلى حيث يقيم السلطان في «أشموم طناح»؟!.. وأكثر من ذلك، فقد تخفف المنسحبون من بعض ذخائرهم «فأحرقوا الزردخاناه»؟!.. ولما رأت ذلك حامية دمياط صنعت مثل صنيعهم، فانسحبت هي أيضاً إلى «أشموم طناح».. ووجد أهل دمياط أنفسهم ولا أحد يحميهم من الجيش الصليبي الجرار، بعد أن انسحب المماليك فخرجوا مهاجرين ليلاً من مدينتهم، وكما يقول «المقريزي»: «وهم حفاة عراة فقراء، حيارى بمن معهم من الأطفال والنساء.. وفروا إلى أشموم.. ورحلوا إلى القاهرة... فنهبهم الناس في الطريق...»؟!

ويعبر المؤرخون عن شذوذ هذا الانسحاب وغرابته، فيقول «المقريزي»، إن دمياط «كانت في أيام الملك الكامل، لما نازلها الفرنج (سنة ١٢١٨م) أقل ذخائر وعدداً منها في هذه النوبة، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة، عندما فني أهلها بالوباء والجوع» من شدة الحصار؟!.. ويسمي هذا الانسحاب «فَعْلة»؟! ويقول: لقد «عدت هذه الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به»..؟!

أما الملك الصالح نجم الدين أيوب، فإنه استشاط غضباً من هذا الانسحاب المخزي، واستدعى الأمير فخر الدين وعنفه بقوله: «أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج.. وما مات منكم إلا هذا الضيف: الشيخ نجم الدين؟!».. وهم السلطان أن يقتل كبار الأمراء المسؤولين عن هذا الانسحاب، ولكنهم اجتمعوا وتآمروا على قتله هو.. فقرر الرجل تأجيل حسابه معهم إلى ما بعد الخلاص من الغزو الصليبي، وحسب تعبير «المقريزي»، فلقد «كان الوقت لا يسع إلا الصبر والتغاضي»؟!.. ولكن اضطراره إلى «الصبر والتغاضي» مع كبار المماليك والأمراء لم يمنعه من إيقاع الجزاء الرادع بحامية دمياط المنسحبة، كي تكون مثلاً يخيف الجند من تكرار مثل هذه الأمور ـ وكما يقول «ابن اياس»: «إن الملك الصالح أحضر نائب دمياط وشنقه، وشنق معه نحو خمسين أميراً بسبب خروجهم من دمياط بغير إذن من السلطان» وذلك «بعد أن استفتى الفقهاء، فافتوا بقتلهم»..

ولقد كان الانسحاب من دمياط، وتركها خالية مفتوحة الأبواب، أمراً يفوق أحلام الغزاة الصليبيين، فعندما أصبحوا يوم الأحد ٦ يونيو، فلم يجدوا جيش الأمير فخر الدين، تقدموا حذرين نحو دمياط، فوجدوا أبواب المدينة مفتوحة، فأخذوا يتحسسون الأمر ويستنشقون الأخبار، ولم يدر بخلدهم أن المدينة خالية حقاً، و«خشوا أن تكون مكيدة، فتمهلوا، حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها»؟! وعند ذلك دخلوا المدينة واحتلوها، لا لنصر أحرزوه، ولا لقتال تحملوا أعباءه، وإنما ـ حسب تعبير «المقريزي» ـ: «صفواً عفواً، بغير كلفة ولا مؤنة حصار»؟!..

وليت الأمر قد وقف عند هذا الحد.. ذلك أن الجنود المنسحبة قد خلفت وراءها كل ما كان السلطان قد شحن به المدينة من المؤن والذخائر وآلات الحرب والقتال.. ولقد كان السلطان يسلح دمياط يومئذ وفي ذهنه حصار الصليبيين لها منذ ثلاثين عاماً، فأراد لها أن لا تضطر إلى التسليم هذه المرة كما اضطرت إلى ذلك من قبل بعد ما يزيد عن عام من الحصار... ترك المنسحبون وراءهم كل ذلك، فاستولى الصليبيون «على ما فيها من الآلات

الحربية، والأسلحة العظيمة، والعدد الكثيرة، والأقوات والأزواد، والذخائر، والأموال والأمتعة» وذلك علاوة على المدينة نفسها، وهي «الحصن الجليل الذي لا يقدر على أخذه بقوة..».. كسب الفرنج إذاً دمياط «وشحنوها بالمقاتلة» وكما يقول صاحب (النجوم الزاهرة)، فلقد كانت «هذه مصيبة لم يجر مثلها؟!»..

وكان طبيعياً أن يقع هذا النبأ على الناس وقوع الصاعقة، وأن يتسرب اليأس إلى نفوس الكثيرين.. فقوة الحملة الصليبية لم يسبق لها مثيل من قبل، والسلطان مريض لا يبرح سرير مرضه.. وها هو ما قد حدث في دمياط.. ويصف «المقريزي» كيف «بلغ ذلك أهل القاهرة ومصر، فانزعج الناس انزعاجاً عظيماً، ويئسوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر»؟!

ولكن هذا الانزعاج الشديد سرعان ما تحول إلى بداية لحركة تعبئة شعبية كبرى، ألقت مصر إليها وفيها بكل ما لديها من طاقات..

فلقد قرر السلطان نقل مركز قيادته إلى « المنصورة » ، فحملوه على سرير مرضه في سفينة (حراقة) سارت به في النيل حتى نزل بقصره هناك في يوم الثلاثاء ٨ يونيو سنة ١٢٤٩ م .

والسفن الحربية المصرية (الشواني) أخذت تملأ نهر النيل كي تحول بين الصليبيين وبين التقدم بحراً إلى داخل البلاد .

وانعطف السلطان تجاه العنصر الوطني، وعامة الشعب وجماهيره، بعد ذلك الذي حدث من جنوده المماليك في دمياط.. وكما يقول «ابن اياس»: إن السلطان «أمر بإشهار (إعلان) النداء في مصر والقاهرة: بأن النفير عام (التعبئة والخروج للقتال).. ولا يتأخر صغير ولا كبير... فخرج الناس قاطبة، وسار الأمراء... وأمر بجمع العربان من سائر النواحي، فاجتمع من العالم ما لا يحصى...» ويكمل «المقريزي» صورة التعبئة الشعبية فيضيف: «.. وجاءت الغزاة والرجالة من عوام الناس الذين يريدون الجهاد، من كل النواحي. ووصلت عربان كثيرة جداً، وأخذوا في الغارة على

الفرنج ومناوشتهم». . . ويذكر صاحب (النجوم الزاهرة) أن عدد المتطوعين يومئذ قد استعصى على الحصر، ذلك أنه قد «وقع النفير العام في المسلمين، فاجتمع بالمنصورة أمم لا يحصون من المطوّعة والعربان». . ومع عامة الشعب خرج العلماء والفقهاء والمتصوفة للجهاد، فكان على أرض المعركة: العز بن عبد السلام، وبهاء الدين بن الجميزي، والشريف عماد الدين، والقاضي عماد الدين القاسم بن إبراهيم بن هبة الله، وقاضي مصر ابن نبهان، وسراج الدين الأرموي. . الخ. . الخ. .

وتحولت «المنصورة» وما حولها إلى جبهة قتال شعبية ألقت فيها مصر بكل ما لديها من إمكانيات. . ولم ينتظر الناس هناك مجيء الغزاة الصليبيين، بل أخذوا في المناوشة والإغارة على الحملة الصليبية في دمياط ومن حولها. وعلى امتداد شهور خمسة (ربيع الأول ـ رجب سنة ٦٤٧ هـ) كانت غارات المصريين على الأعداء لا تنقطع. . وكانت خسائر العدو في ازدياد، وكان العربان يتفننون في اختطاف الجنود الصليبيين وأسرهم، وكانت القيادة تستخدم هؤلاء الأسرى في رفع الروح المعنوية وجلب المزيد من المتطوعين إلى ساحة القتال. .

- ففي يوم الاثنين آخر ربيع الأول وصل إلى القاهرة ٣٦ أسيراً من أسرى الإفرنج، بينهم اثنان من الفرسان.
- وارتفع هذا الرقم في يوم ٥ ربيع الثاني إلى ٣٧.
- وبعد يومين كان عددهم ٤٢.
- أما في يوم ١٦ فقد بلغ عددهم ٤٥ من بينهم ثلاثة من الفرسان.
- وفي ١٨ جمادي الأول بلغوا ٥٠ أسيراً.
- وفي ١٣ رجب بلغوا ٥٨ أسيراً من بينهم أحد عشر فارساً صليبياً.
- وفي منتصف رجب استطاع المصريون أن يأسروا إحدى سفن الفرنج بمن عليها من المقاتلة وما فيها من العتاد بالقرب من «نستراوة» (البرلس).

وكما يقول «المقريزي»: فلقد استمرت «الأسرى من الفرنج تصل في كل

يوم إلى القاهرة» فترتفع معنويات الشعب، ويدفع إلى المعركة بزاد جديد ووقود لا ينفذ من أبنائه المقاتلين.

على جبهة المشرق العربي

وبالرغم من الخطر «التتري» الذي كان يتهدد المشرق العربي، والاستعدادات التي كانت قائمة في بلاط «المغول» للزحف على العراق والشام، والمفاوضات التي كان يقوم بها الأمراء الصليبيون لهذا الغرض هناك.. بالرغم من كل ذلك فإن مدن المشرق وشعبه أبت إلا أن تسهم في المعركة، وتحاول تخفيف الضغط الصليبي عن مصر، وخاصة بعد استيلاء لويس التاسع ـ دون قتال ـ على دمياط.

فلقد قررت دمشق يومئذ أن يكون ردها على دخول الصليبيين دمياط هو فتح جبهة ثانية ضدهم في الشام، وكما يقول «المقريزي»: أنه «لما بلغ أهل دمشق أخذ الفرنج لمدينة دمياط، ساروا منها (أي من دمشق) وأخذوا «صيدا» من الفرنج، بعد حصار وقتال. فورد الخبر بذلك لخمس بقين من ربيع الآخر (اغسطس سنة ١٢٤٩م) فسر الناس بذلك».

أما حصن «الكرك»، ذو الموقع الاستراتيجي في جنوب فلسطين، فلقد كان يحكمه ويحكم البلاد التابعة له «الناصر داود». وكان من الأمراء المعادين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب.. وفكر ولدا «الناصر داود»: «الظاهر شادي» و«الأمجد حسن»، في الإسهام الذي يمكنهما تقديمه في هذه المعركة، فقررا خلع والدهما عن إمارة الحصن، وإعادة هذه الإمارة إلى حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب، وذهبا بنفسيهما فانضما إلى السلطان في «المنصورة»، وتسلم نائب السلطان حصن «الكرك» في ١٨ ربيع الآخر سنة ٦٤٧ هـ، فسر «السلطان سروراً عظيماً، وأمر فزينت القاهرة ومصر، وضربت البشائر في القلعتين لذلك الانتصار الذي جسد خلق الإيثار والوطنية وتقديم مصلحة المعركة ضد العدو ومتطلباتها على كل ما عداه..»

السلطان يموت .. والصليبيون يتقدمون

وفي ليلة الاثنين ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ. (نوفمبر سنة ١٢٤٩م) توفي السلطان الشاب الملك الصالح نجم الدين أيوب (وسنه أربع وأربعون عاماً).. وقيل إنه قد ترك لزوجته «شجر الدر» عشرة آلاف ورقة موقعة بتوقيعه: (أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب)، كي تستخدم في المكاتبات حتى لا يعلن موته فيفت ذلك في عضد الجند، ويرفع من معنويات الغزاة.. كما أوصى قبل موته بأن يكون السلطان من بعده ولده: الملك المعظم تورانشاه، وأمر باستدعائه من حصن «كيفا» بالمشرق العربي.

ولقد قامت زوجة السلطان بإخفاء نبأ موته إلا عن اثنين فقط من كبار رجال الدولة هما: الأمير فخر الدين، وجمال الدين محسن ـ ولذلك ظلت الحركة في قصر السلطان.. «والدهليز السلطاني على حاله.. والسماط في كل يوم يمد.. والأمراء تحضر الخدمة..» وحتى طبق الطعام المفضل لدى السلطان ـ المزاور ـ «يدخل في كل يوم ويخرج على جاري العادة... والمراسيم في كل يوم رائحة من المنصورة إلى القاهرة في الأشغال»..

أما جثة السلطان فلقد غسلها أحد الأطباء الذين يدخلون بحجة العلاج، وحملت ليلاً إلى زورق في النيل، حتى رسا الزورق عند قلعة الروضة؛ حيث دفن بها دفناً مؤقتاً، دون أن يشعر بذلك أحد من الناس..

ولقد سارت عملية السلطة إلى «تورانشاه» بنفس السرية والإحكام.. فخرج من مصر سراً الفارس «أقطاي» وهو قائد المماليك البحرية، كي يحضر السلطان الجديد.. وبعد ثلاثة أيام من موت السلطان جمع نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبي علي، جمع العلماء والأعيان بدار الوزارة فبايعوا «تورانشاه» بالسلطنة بعد أبيه.. وصدرت الأوامر إلى خطباء المساجد بالدعاء له في الخطبة بعد أبيه، وكذلك بنقش اسمه على النقود بعد اسم أبيه.. واتخذت هذه العملية شكل تنفيذ أمر السلطان بأن يكون ابنه ولياً لعهده، خصوصاً وهو مريض.

ولكن هذه الأعمال قد أثارت عدداً من علامات الاستفهام حول موت السلطان.. فأخذ البعض يتهامس بموته، وإن لم يجرؤ أحد على الجهر بذلك.. غير أن الغزاة قد «فهموا أن السلطان قد مات» فقرروا التقدم من دمياط نحو المنصورة، فخرجوا بفرسانهم ومشاتهم وسفنهم، ووصلوا إلى «فارسكو» في ٢٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ. (نوفمبر سنة ١٢٤٩م).. وفي اليوم التالي (٢٦ شعبان) قرىء على منبر جامع القاهرة كتاب القاضي بهاء الدين زهر، الذي بعث به من معسكر «المنصورة» يحض على الجهاد ويدعو إلى مزيد من التعبئة العامة مفتتحاً إياه بالآية القرآنية: (انفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون). فشهدت القاهرة ومصر وسائر البلاد مسيرات جماهيرية إلى معسكر المنصورة يصفها «المقريزي» بقوله: «.. وارتجت القاهرة ومصر لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للمسير، فخرج من البلاد والنواحي لجهاد الفرنج عالم عظيم»، وهكذا استخدم الشعب أسلوبه النضالي لسد الثغرة التي توهمها الصليبيون قد حدثت بموت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب..

مناوشات

● وتقدم الجيش الصليبي فنزل في «شارمساح» في يوم الثلاثاء أول رمضان سنة ٦٤٧ هـ. بعد معركة استشهد فيها «العلاء» أحد الأمراء المماليك وجماعة من الجنود المسلمين.

● وفي يوم ٧ رمضان نزلوا إلى «البرمون» «فاشتد الكرب وعظم الخطب، لدنوهم وقربهم من المعسكر» بالمنصورة.

● وفي يوم ١٣ رمضان وصل الجيش الصليبي قبالة معسكر المنصورة، فعسكروا بالبر الغربي، بينما معسكر المسلمين بالبر الشرقي، وبين الفريقين «بحر أشموم» (البحر الصغير)... وسفن كل فريق بجوار معسكره.. وحفر الأعداء خندقاً أمام معسكرهم، وبنوا من حولهم سوراً «وستروه بالستائر، ونصبوا المجانيق ليرموا بها معسكر المسلمين».

● ودارت بين الفريقين، على امتداد ما يقرب من شهرين (١٥ رمضان ـ ٥ ذي القعدة) مناوشات لم تنقطع في يوم من الأيام:

● ففي ١٦ رمضان أسر المصريون ستة من فرسان الصليبيين، واستطاعوا أن يحصلوا منهم على معلومات هامة عما يجري بمعسكر الأعداء.

وفي يوم عيد الفطر وقع في أسر المصريين أحد قادة الصليبيين (كونت).. بل وكاد أن يقع في الأسر أحد أخوة الملك لويس (Count of Anjon).

● وفي يوم ٧ شوال أسر المصريون سفينة للأعداء وعليها مائتا جندي وقائدهم (كونت)..

● وفي يوم ١٥ شوال اقتحم عدد من الفرسان المصريين معسكر الصليبيين، عبر بحر أشموم، والتحموا معهم في القتال، حيث قتلوا أربعين من فرسانهم بخيولهم.

● وفي يوم الجمعة ١٦ شوال استقبلت القاهرة ٦٧ من أسرى الفرنج، من بينهم ثلاثة من أكابر فرسان «الداوية» الذين جعلوا عبادتهم ورهبنتهم قتل العرب وإبادة المسلمين؟!

وكان الملك لويس قد شرع في إقامة جسر على بحر أشموم كي يعبر من فوقه جيشه إلى المنصورة، وأقام لحماية العمال المشتغلين بإقامته «برجين متحركين» على الضفة الشمالية للبحر، فسلط المصريون النار الإغريقية على هذين البرجين، وألحوا في الرمي حتى أحرقوهما في يوم الخميس ٢٢ شوال.

وأخذ المتطوعون والعربان «والحرافشة» «من عامة المسلمين وسوادهم» يتفننون في الإيقاع بالفرنج، فأوقعوا بهم «نكاية عظيمة، وتخطفوا منهم وقتلوا كثيراً... وكانوا يتحيلون في خطفهم بكل حيلة: حتى أن شخصاً أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه، وغطس في الماء إلى أن قرب من الفرنج، فظنوه بطيخة، فما هو إلا أن نزل أحدهم ليتناولها إذ اختطفه المسلم، وعام به حتى قدم به إلى المسلمين»؟!

● وفي يوم الثلاثاء ٥ ذي القعدة حدثت مفاجأة غير سارة لمعسكر المصريين كادت أن تنهي المواجهة لصالح الصليبيين ذلك أن بعض الخونة - ويسميهم « المقريزي » : المنافقين - قد أرشدوا الجيش الصليبي على « مخاضة » في بحر أشموم ، يستطيع العبور منها - بعد أن فشل في إقامة جسر يستطيع بواسطته العبور. وانتهز الكونت (Cont of Artois) شقيق الملك لويس التاسع الفرصة فعبر بفرقة من الفرسان «الداوية».. فلم يشعر الناس إلا وفرسان الأعداء بينهم في معسكرهم.. وكان الأمير فخر الدين في الحمام؟! فخرج مسرعاً على جواده، وتصدى شبه منفرد للفرسان المهاجمين، فقتلوه.. واستطاع الصليبيون الوصول إلى باب قصر السلطان بالمنصورة.. وإن هي إلا لحظات.. حتى كان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري يقود طائفة من جنوده، فتصدوا للداوية، وأزاحوهم عن قصر السلطان، وبعد أن قتلوا منهم نحو ألف وخمسمائة دفعوا بهم إلى شوارع المدينة وأزقتها حيث اشترك الأهالي مع الجند في القتال، وانهال على الجند الصليبيين وابل من الحجارة والطوب والسهام «حتى أفنوهم عن آخرهم»، وفيهم شقيق الملك لويس.

● وفي الوقت الذي كان فيه الملك لويس يستعد لإمداد شقيقه بالفرسان ، ويتأهب كي يدخل بنفسه إلى « المنصورة » ، جاءته الأنباء بقتل شقيقه وفناء من ذهب معه من الفرسان .

● وفي أول أيام شهر ذي الحجة استطاع الصليبيون الاستيلاء على سبع سفن مصرية (حراريق) ولكنهم لم يستطيعوا أسر من كان فيها من الجنود ....

● أما يوم ٩ ذي الحجة فإن المصريين قد استطاعوا فيه أن يحرزوا نصراً عظيماً في معركة بحرية عند « مسجد النصر » ، استولوا فيها على اثنين وثلاثين مركباً صليبياً ، منها تسع شواني ، كانت ضمن الأسطول الذي جاء من دمياط يحمل المؤن للصليبيين « فاشتد الغلاء عند الفرنج » حتى بلغ بهم الأمر إلى مراسلة السلطان يطلبون منه الهدنة .. وجاءت رسلهم إلى معسكر الصليبيين ، ودارت المفاوضات بينهم وبين الأمير بدر الدين ابن أمير جاندرا وقاضي القضاة

بدر الدين السنجاري . . وعرض الصليبيون في المفاوضات أن يجلوا عن البلاد ويسلموا دمياط في نظير أن يأخذوا القدس وبعض حصون الساحل الفلسطيني ، فرفضت طلباتهم وانقطعت المفاوضات . .

وحاول الصليبيون ، مرة أخرى ، تسيير أسطولهم من دمياط كي يأتيهم بالمؤن والغذاء ، فصنع المصريون عدة مراكب حملوها ألواحاً خشبية مقصصة على ظهور الجمال إلى « بحر المحلة » حيث أعادوا تجميعها ، وصنعوا بها كميناً انتظر الأسطول الصليبي عند بحر المحلة ، فأخذوه هناك بغتة ، وأتاهم من الناحية الأخرى « أسطول المسلمين من جهة المنصورة فأخذت مراكب الفرنج أخذاً وبيلاً ، وكانت اثنتين وخمسين مركباً ، وقتل منها وأسر نحو ألف أفرنجي ، وغنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات » ، وبعد هذه المعركة اشتد وقع الغلاء في معسكر الصليبيين ، وصاروا محاصرين بعد سيطرة الأسطول المصري على نهر النيل . . وكما يقول « المقريزي » : « لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب » .

● وفي يوم الجمعة ذي الحجة قرروا الرحيل إلى دمياط ، وشرعوا في التخفف مما لديهم من الأثقال .

المعركة الفاصلة

كان الصليبيون قد عزموا على الرحيل من المكان الذي حوصروا فيه عند «المنصورة» إلى حيث توجد إمداداتهم وبقية قوتهم في «دمياط»، وأغلب الظن أنهم كانوا يريدون إعادة الكرة ومعاودة الهجوم على المصريين بعد أن تأتيهم الإمدادات والنجدات من أوروبا ومن الإمارات الصليبية على ساحل فلسطين. . ولكن المصريين كانوا قد عزموا على الفتك بهم وإبادتهم حتى يقبروا معهم على أرض المنصورة حلم لويس التاسع وجيشه الصليبي في النجاح حيث أخفق من سبقه من الغزاة.

وفي ليلة الأربعاء ٧ إبريل سنة ١٢٥٠م (٣ محرم سنة ٦٤٨ هـ) بدأ تحرك الجيش الصليبي يريد الوصول إلى دمياط، وأنزلوا مراكبهم إلى نهر

النيل، مستترين بالظلام، ولكن المصريين أسرعوا إلى العبور إليهم في البر الغربي، وانقضوا عليهم من خلفهم، وكما يقول «المقريزي»: «ركب المسلمون أقفيتهم؟!». وعندما أشرقت شمس يوم الأربعاء كان المصريون قد أحاطوا بالجيش الصليبي، وأعملوا فيه سيوفهم وأدوات حربهم، وأوسعوه قتلاً وأسراً، وكانت ملحمة عظيمة شهدت «فارسكور» معظم فصولها وأحداثها.. وفي هذه الساعات القليلة بلغ عدد قتلى الفرنسيين أرقاماً مذهلة، وحسب قول «المقريزي»: «.. بلغت عدة القتلى عشرة آلاف في قول المقل وثلاثين ألفاً في قول المكثر؟!.. أما الأسرى من الفرسان والمشاة المقاتلة ومن الصناع وغيرهم فلقد ناهزوا مائة ألف إنسان؟! ولم يستطع أحد أن يحصي ما غنمه المصريون من الخيل والبغال والأموال والأسلحة والعدة والعتاد.. وفي هذا اليوم برزت بطولة القائد المملوكي بيبرس البندقداري الذي قاد من خلفه المقاتلين من عامة الشعب والجنود من المماليك البحرية على حد سواء..

وعندما أبصر الملك لويس فناء جيشه على هذه الصورة المروعة التجأ إلى تل من الأرض مرتفع عند قرية«منية عبد الله» بالقرب من «شرمساح» والتف حوله خمسمائة من خيرة فرسانه وأبطال جيشه، وكان قد أدرك حتمية الهزيمة، فطلب الأمان، فأجابه إليه وأعطاه إياه «الطواشي جمال الدين محسن الصالحي»، غير أن فرسان الملك الصليبي أبوا قبول الأمان الذي طلبه ملكهم، فحاربوا معركة انتحارية فنوا فيها عن آخرهم، باستثناء فارسين قذفا بنفسيهما في النيل حيث غرقا فيه؟!

وقبض على الملك لويس، وقيد بالحديد مع عدد من حاشيته فيهم اثنان من إخوته، وأنزلوا إلى سفينة مصرية (حراقة) سارت بهم في النيل إلى المنصورة تحيط بها عدة سفن «تضرب فيها «الكوسات» (صنوج النحاس) والطبول» وعلى البر الشرقي سارت الجنود المصرية المنتصرة، وعلى البر الغربي سارت المقاتلة من المتطوعين والعامة والعربان «في لهو وتهان وسرور بهذا الفتح العظيم» بينما الأسرى مقيدون بالحبال.. وعندما وصل الركب إلى المنصورة اقتيد الملك الأسير إلى حيث اعتقل في دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن

لقمان، كاتب سر السلطان. .

وكتب تورانشاه إلى العاصمة، وإلى مدن المشرق بهذا النصر العظيم، وأرسل إلى نائبه على دمشق الأمير جمال الدين بن يغمور «معطف» (غفارة) الملك الصليبي، ومعه كتاب يبشر بالنصر يقول فيه: «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. . نبشر المجلس السامي الجمالي، بل نبشر المسلمين كافة، بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين. فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا: لا تيأسوا من روح الله، ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة. . فتحنا الخزائن، وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق، فلما كانت ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم، وقصدوا دمياط هاربين. . . وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل، وقد حل بهم الخزي والويل، فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً، غير من ألقى نفسه في اللجج، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج. والتجأ الفرنسيس (الملك) إلى «المنيه»، وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته، وجلاله وعظمته. . .».

وظل الملك الصليبي في الأسر بدار ابن لقمان، يقوم على سجنه «الطواشي صبيح المعظمي» شهراً كاملاً (٧ إبريل ـ ٦ مايو). . ولم يطلب المصريون منه فداء مالياً لنفسه ولا لأحد من حاشيته أو إخوانه، لأنهم قد أفنوا من جيشه «الفداء» الذي يريدون. . وإنما طلبوا إليه أن يتعهد بدفع قيمة العتاد والمؤن التي استولى عليها دون قتال في دمياط. . ويسجل صاحب (النجوم الزاهرة) هذه الحقيقة التاريخية الهامة عندما يتحدث عن الاتفاق فيقول: «إنهم اتفقوا على أن يسلم (لويس التاسع) دمياط، وأن يعطي هو والكندود (جمع كونت) ثمانمائة ألف دينار (١٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك) عوضاً عما كان بدمياط من الحواصل، ويطلقون أسرى المسلمين، فحلفوا على هذا. . . وقوموا الحواصل التي بقيت في دمياط بأربعمائة ألف دينار، وأخذوا من الملك

أربعمائة ألف دينار» ثم أطلقوا سراحه عصر يوم الخميس ٦ مايو سنة ١٢٥٠م (٢ صفر سنة ٦٤٨).. وسارت بهم السفينة من المنصورة إلى دمياط حيث ارتفع عليها العلم المصري في يوم الجمعة ٧ مايو بعد احتلال دام أحد عشر شهرا وتسعة أيام.. وفي اليوم التالي أبحر من دمياط ذلك الملك القديس الذي ظن أن القتل وسفك الدماء واحتلال بلاد العرب والمسلمين مما يقربه إلى الله؟!

الدرس والنهاية

والأمر الذي يؤكد بعد نظر المصريين في إجهازهم على الجيش الصليبي، وقتلهم حتى الفرسان الذين وقعوا في الأسر بالمعركة الفاصلة، أنهم كانوا على يقين أن الملك الصليبي عازم على العودة للانتقام.. ويشهد لذلك أن رحيله لم يكن من دمياط إلى فرنسا، وإنما إلى الحصن الصليبي في «عكا».. وأخذ يسعى في إحياء التحالف «الصليبي - التتري» ضد العرب والمسلمين، فأرسل في سنة ١٢٥٢م رجل الدين «جليوم» «بروك» إلى قراقورم» عاصمة التتار، وظل هناك خمسة أشهر يسعى لدى الخان التتري «منكوقاآن» كي يوجه حملة حربية لتدمر بلاد العرب والمسلمين.. وعندما فاحت رائحة مساعيه هذه بعث إليه المصريون تحذيراً يذكرونه فيه بما حدث له في المنصورة من قتل وأسر واعتقال، وصاغ الشاعر الصاحب جمال الدين بن مطروح ذلك التحذير شعراً فقال:

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال نصح من قؤول فصيح
أتيت مصر تبتغي ملكها ... تحسب أن الزمر بالطبل ريح
فساقك الحين إلى عسكر ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح؟!
إن كنت عولت على عودة ... لأخذ ثأر أو لعقد صحيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشي صبيح؟!

فعدل الملك الصليبي عن العودة إلى مصر، ولكنه أراد أن يجرب حظه ثانية في بلد عربي آخر هو «تونس» فعزم على غزوه، وساعده البابا وعدد من

ملوك أوروبا (انكلترا، وبرشلونة وغيرهما) وهناك دارت عليه الدائرة مرة أخرى، فهزم جيشه، ولقي فيها حتفه سنة ١٢٧٠م، سنة ٦٦٩ هـ)..

وسخر منه يومئذ شاعر تونس أحمد بن إسماعيل الزيات عندما خاطبه فقال:

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبراً وطواشيك منكر ونكير؟!

وهو شعر إذا افتقد جمال الشعر وعذوبته فكأنما استعارت منه العذوبة والشاعرية روعة الانتصارات التي أحرزها الشعب البطل عندما دافع عن وطنه فحول مصر من بوابة لغزو فلسطين إلى مقبرة للغزاة وقلعة لتحرير فلسطين.

معركة عين جالوت

[٦٥٨ هـ ١٢٦٠م]

الزمان.. منذ سبعة قرون.. وعلى وجه التحديد في ١٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠م (٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ). والمكان.. على أرض فلسطين، في قرية قرب مدينة «الناصرة»، تسمى اليوم «جالود»، وكان اسمها في ذلك التاريخ «عين جالوت».. حيث دارت معركة تاريخية انتصرت فيها جيوش العرب والمسلمين بقيادة مصر ضد جحافل التتار.

وسجل التاريخ في ذلك اليوم أول هزيمة للجيش التتري الذي لم يعرف من قبل سوى الانتصارات... كما سجل الهزيمة للغرب اللاتيني الصليبي الذي تحالف مع «هولاكو» ضد العرب والمسلمين.

ولكن هذا النصر العربي الكبير لم ينه فصول الصراع بين الحضارة العربية وبين الأعداء.. فكما تحالف الغرب الصليبي مع التتار الوثنيين بالأمس ضد العالم العربي، يعود اليوم للتحالف مع الصهيونية العنصرية ضد العروبة ومقدسات المسلمين..

ولذلك تبقى دروس انتصار الأمس معالم حية على طريق انتصارنا المأمول، فلقد كانت الوحدة هي طريق النصر في «عين جالوت».. كما أعاد

النصر في «عين جالـوت» وحدة المشرق العـربي مع مصر، بعـد أن انفرط عقدها منذ أيام «صلاح الدين»..

الغرب يحاربنا بقبضة الآخرين؟

كان قد مضى على انتصار صـلاح الدين الأيـوبي على الصليبيين في «القدس» نصف قرن، فشل فيه الصليبيـون الذين تشبثـوا ببعض الحصون والقلاع على الساحل الشرقي للبحر الأبيض، مثل «صور» و«عكا» وغيرهما، كما فشلوا في الاحتفاظ «بالقدس» أو أي من المناطق والمدن التي حررها العرب والمسلمون.. ومن ثم أخذت إمدادات الغرب الاستعـماري لهذه الإمـارات والحصون تقل وتضمر، فغدت عاجزة عن مواصلة البقاء في الأرض العربية، ولم يكن يمد في أجلها إلا ضعف الإمارات العربية، والفرقة التي أصابت أجزاء الوطن العربي بعد صلاح الدين، وخاصة عندما استأثر المماليك بحكم مصر بينما بقيت إمارات الشـام فريسـة للضعف والمنازعـات بـين بقـايـا الأمـراء الأيوبيين..

غير أن الغرب الاستعـماري كان قـد قرر أن يقـوم بجولـة أخرى في صراعه ضد حضارة العرب والمسلمين، وإذا كانت قواه الذاتية، وعلاقـات دوله بعضها مع البعض الآخر، والحالة التي عليها بقايـا إماراتـه وقواعـده الاستيطانية في المشرق، إذا كانت هذه العوامل لا تتيح الفرصة كي يقوم هو بهذه الجولة الجديدة، فليبحث اذن عن قوة مدمرة يستخدمها ضدنا في هذا الصراع، وليفتش عن قبضة حديدية يحاول ان يصرع بها هذا الشعب الذي يعيش ما بين الخليج والمحيط...

ولقد توافق هذا التفكير الاستعماري مع ظهور قوة الدولة المغـولية في أواسط آسيا، تلك الدولة التي كونتها قبائل وثنية جبليـة متبربـرة، اختطت لنفسها طريق السلب و النهب والتدمير، واتخذت من تدمير الحضارات وتخريب المدن صناعة لا تعرف غيرها من الصناعات..

وقبل أن ينتصف القرن الثالث عشر الميلادي كانت هناك استعدادات في بلاط الدولة المغولية للقيام بزحف مدمر يستهدف احتلال الكثير من بلاد أوروبا بالإغارة على المناطق الشمالية الغربية لأوروبا وهنا بذل الغرب الإستعماري جهوده المضنية كي يجعل وجهة هذا الزحف التتري إلى بلاد العرب والمسلمين ، ولكي يقيم تحالفاً غير مقدس بينه وبين هذه القوة الوثنية العنصرية ، علّه يقتسم معها الوطن العربي ، ويعيد سيطرته ثانية على القدس وغيرها من مدن الشام وفلسطين .

● ففي سنة ١٢٤٥ م أرسل البابا « انيوسنت الرابع » بعثة إلى « قراقورم » عاصمة الدولة التترية الشرقية ، ورأس هذه البعثة مندوب البابا « جون ده بياني كابريني » ، حيث قام بمباحثات طويلة وشاقة استهدفت تحويل مطامع التتار إلى بلاد العرب ، وإقامة حلف بينهم وبين الصليبيين .

● وعندما أقلعت من فرنسا الحملة الصليبية التي قادها ملكها « القديس لويس التاسع » ، قاصدة مصر كي تحتلها وتغزو من بعدها وعن طريقها فلسطين ، توقفت هذه الحملة في جزيرة « قبرص » شتاء (١٢٤٨ - ١٢٤٩ م) لاستكمال الإستعدادات ، وهناك جاءت إلى « لويس التاسع » بعثة تترية من قبل « خاقان » التتار « جغطاي » حملت معها التحف والهدايا ، وعقدت المحادثات لإقامة هذا التحالف ، ولما عادت إلى « قراقوم » صحبتها بعثة فرنسية لاستكمال البحث حول تسيير جيش تتري من الشرق ليحتل المشرق العربي ، في الوقت الذي يهاجم فيه « لويس التاسع » مصر عن طريق « دمياط » ، فلا تستطيع مصر نجدة المشرق ، ولا يتيسر لجند المشرق أن يقف إلى جوار المصريين .

● ولم تقض هزيمة « لويس التاسع » في مصر على الجهود المبذولة لعقد هذا الحلف ، إذ خرجت من الحصن الصليبي في « عكا » سنة ١٢٥٢ م بعثة فرنسية رأسها رجل الدين « جليوم ردبروك » ، وذهبت إلى « قراقورم » ، واستمرت تفاوض في بلاط « الخان » التتري « منكوقا آن » خمسة أشهر كاملة للوصول إلى الإتفاق المنشود .

● وبذل الصليبيون في سبيل هدفهم هذا كل ما يستطيعون ، حتى ماء الوجه وكرامة الرجال . ويحدثنا المؤرخ العربي « ابن أبي الفضائل » في كتابه (المنهج السديد) كيف ذهب « برنس » صليبي إلى مملكة التتر الشرقية ليستنجد بهم ضد المصريين ، وكيف بذل نفسه في مرضاتهم ، وعندما أخذ يعدد لهم ما فتحت مصر من البلاد والحصون وقوة جيشها ، ليصور حاجته إلى الإمدادات إذ بملك التتار يطرح الأمير الصليبي أرضاً ، ويأمر بضربه بين يديه ، ويقول له : « أنت ما جئت إلا لتخوفني منه (أي من « سلطان مصر ») وتنفرني عنه وتملأ قلوب عسكري رعباً منه » ؟ ! . . ولكن الصليبيين يستمرون في المحاولات .

● ويلجأون في سبيل تحقيق هدفهم إلى أقلية دينية مسيحية تعيش في بلاد المغول ، هي الأقلية « النسطورية » ، التي تعتنق المسيحية على مذهب « النساطرة » . . وأمام العداء للعرب والمسلمين اتحد الصليبيون اللاتينيون مع « النساطرة » المغول ، وذلك على الرغم من أن الغرب يرى في مسيحية النساطرة هرطقة وكفراً ، وإن النساطرة الأول قد اضطروا إلى الهجرة من الغرب فراراً بمذهبهم ومعتقداتهم من الإبادة والتعذيب ، ولم يجدوا لهم سوى الشرق وطناً يتيح لهم التسامح وحرية الأديان .

واستغل الصليبيون نفوذ إحدى زوجات « هولاكو » ، وأسمها « دوقوز خاتون » ، وكانت مسيحية نسطورية ذات نفوذ على قلب هذا القائد وعقله . . وبعد مفاوضات استمرت خمسين يوماً في « قراقورم » بين « هولاكو » وبين الأمير الصليبي « هيتوم » الذي كان يومئذ ملكاً على الإمارة الصليبية « أرمينية » على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، والذي كان يتحدث في هذه المفاوضات باسمه واسم الأمير الصليبي « بوهيمند » ملك « أنطاكية » نجح الصليبيون في إقناع التتار بعقد هذا التحالف . وتجهيز الحملة لتدمير بلاد العرب والمسلمين . . بل وأكثر من ذلك نجحوا في أن يقرر « هولاكو » أن يكون نائبه في قيادة الجيش التتري القائد « كتبغا » وهو من قبيلة تترية اعتنقت المسيحية على مذهب النسطوريين ؟ !

وعند ذلك جمع الأمير الصليبي « هيتوم » جيشاً انضم به إلى قوات

« هولاكو » وقدم « البطريق » الأرمني المسيحي كي يمنح البركة للخان الوثني وجنده الزاحفين لتدمير حضارة العرب والمسلمين ؟ !

بغداد . . وما حدث لها

وبعد أن دمر الجيش التتري الدولة « الخوارزمية » في فارس ، بدأ زحفه على العالم العربي بدخول بغداد في ٧ صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٣ فبراير سنة ١٢٥٨ م) حيث قام بمجزرة استمرت ، ولا تزال ، مضرب الأمثال على مر التاريخ . وعلى امتداد أربعين يوماً بأكملها كانت المدينة الجميلة بحضارتها ومكتباتها ، وتحفها ومساجدها ، ميداناً للسلب والنهب والقتل والدمار ، بدءاً من أبواب البيوت ونوافذها حتى القباب الذهبية للمساجد والمزارات ، وبدءاً من الأجنة في بطون الأمهات حتى الشيوخ الطاعنين في السن ، تعرض كل ذلك للدمار والسلب ، والنهب ، والذبح والتقتيل . . حتى ليروى أن أحد جنود « هولاكو » دخل زقاقاً من أزقة المدينة المحتلة ، فأجهز فيه على أربعين طفلاً بحجة الشفقة عليهم والرحمة بهم حين علم أن أمهات هؤلاء الأطفال قد قتلن من قبل ؟ ! وحتى قدر المعتدلون من المؤرخين عدد القتلى في هذه المذبحة من أهل بغداد بثمانمائة (٨٠٠) ألف نسمة ، فيهم الخليفة العباسي ، وأهل بيته ومملكته من الأمراء والوزراء ؟ !

أما الذين نجوا من القتل من أهل بغداد ، فإن المؤرخ العربي « ابن كثير » يصور حالهم في كتابه (البداية والنهاية) عندما يقول : « ولما نودي ببغداد بالأمان ، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا قبورهم ، وقد أنكر بعضهم بعضاً ، فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه ، وأخذهم الوباء الشديد ، فتفانوا ، وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى » ؟ ! وطيرت الأنباء صورة ذلك الهول الذي نزل ببغداد إلى بلاد الشام ومصر وغيرها من الأقطار .

الشام بعد بغداد

وأسرع « هولاكو » إلى الإستفادة من آثار الهزيمة التي حدثت للعرب في

بغداد ، فأرسل إلى حاكم إمارة « حلب » ، الملك « الناصر » ، رسالة يقول فيها إن ما حدث لبغداد إنما هو قضاء الله ، وإننا « قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها ، وهدمنا بنيانها ، وأسرنا سكانها . . كما قال الله : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون) . ودعاه إلى الإستسلام الفوري ، قائلاً له : « إذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه « روى زمين » (ملك الملوك على وجه الأرض) تأمن من شره وتنل خيره . . . » ، ولم ينس « هولاكو » ، في رسالته هذه ، أن يحذر الملك الناصر من الإعتماد على مصر أو تعليق الآمال عليها ، فقال له : « وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا (فروا) بأموالهم وحريمهم إلى « كروان سراي » (محط رحال المسافرين ـ مصر) ، فإن كانوا في الجبال نسفناها ، وإن كانوا في الأرض خسفناها . . . » ؟ !

وأحدثت هذه الرسالة ذعراً شديداً في ربوع الشام . . وظهر العديد من الإتجاهات ، خاصة بعد أن أتبع « هولاكو » تهديده هذا بالزحف على البلاد ، فعبرت جيوشه نهر الفرات وأخذت تعيث فساداً وسلباً ونهباً وتدميراً في القرى والمدن والحصون . .

● فالملك الناصر ، صاحب حلب ، أرسل أمواله ونساءه إلى حصن « الكرك » في جنوب فلسطين . . وعندما اقتربت جيوش « هولاكو » من حلب ظهرت تيارات انهزامية في صفوف عسكره ، وأخذ البعض ، من أمثال الأمير « زين الدين الحافظي » يعظم من شأن هولاكو » ويتحدث عن جيشه الذي لم يقهر ولن يقهر ويدعو إلى مداراته والدخول في طاعته . . بينما رفض هذا المنطق أمراء كثيرون كان على رأسهم يومئذ الأمير ركن الدين « بيبرس البندقداري » الذي صاح « بالحافظي » وضربه وسبه ، وقال له ـ حسب رواية المقريزي في كتابه (السلوك) ـ : « أنتم سبب هلاك المسلمين » ؟ ! . . وانسحب « بيبرس » ومن معه من الأمراء والجنود الذين رفضوا منطق الهزيمة والإستسلام إلى مدينة « غزة » ومن هناك كتبوا إلى سلطان مصر « الملك المظفر قطز » ، واتفقوا جميعاً

على توحيد الجهود للمعركة القادمة الفاصلة ضد التتار » وعندما تم هذا الإتفاق ، انضم « بيبرس » بجيشه إلى جيش مصر . .

● وكان الملك « الناصر » قد بعث إلى مصر بالصاحب « كمال الدين عمر بن العديم » يطلب النجدة لدفع خطر التتار ، ويحكي « ابن تغري بردي » في (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) كيف نزل هذا الوفد في قلعة « الكبش » ، وكيف انعقد في « قلعة الجبل » مؤتمر حضره القضاة والفقهاء والأعيان والأمراء للمشاورة « فيما يعتمد عليه في أمر التتار » ، وكان بين شهود هذا المؤتمر قاضي الديار المصرية « بدر الدين السنجاري » وكذلك أعظم علماء المسلمين في ذلك الوقت الشيخ « عز الدين بن عبد السلام » ، فأفاضا في الحديث ، وكان « الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام » وخلاصة ما قاله : أنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم (الإسلامي) قتالهم ، وجاز لكم (الأمراء) أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم ، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء ، وتبيعوا مالكم من « الحوائص » (التحف) المذهبة والآلات النفيسة ، ويقتصر كل الجند على مركوبه (فرسه) وسلاحه ، ويتساووا هم والعامة . أما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا » ؟ !

وأخذت مصر في الاستعداد لنجدة الشام . . وبعثت بردها الإيجابي إلى الملك « الناصر » مع رسوله « كمال الدين عمر بن العديم » الذي صحبه في عودته إلى « حلب قاضي قضاة مصر « برهان الدين الخضر » .

● غير أن الملك « الناصر » صاحب حلب ، لم يكن على ثقة من الانتصار على « هولاكو » ، كما أنه لم يكن على استعداد للثقة في المماليك المصريين ، وهو الذي ظل لسنوات خارجاً بالشام عن دائرة الوحدة مع مصر ، مسبباً بذلك الضعف الذي أتاح للتتار سهولة الزحف على هذه البلاد .

وعندما سقطت « حلب » بيد « هولاكو » في محرم سنة ٦٥٨ هـ بعد حصار سبعة أيام ، أعمل التتار فيها النهب والتدمير خمسة أيام بلياليها ، وكما

يقول « المقريزي » في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك) : إنهم « استباحوا فيها دماء الخلق حتى امتلأت الطرقات بالقتلى ، وصارت عساكر التتار تمشي على جيف من قتل » وإن الأسرى فيها قد زادوا على مائة ألف من النساء والصبيان . . عندما حدث ذلك لحلب رحل الملك « الناصر » بمن معه من دمشق إلى « غزة » يريد اللجوء إلى مصر ، ولكنه عاد وتردد خوفاً من عقاب « الملك المظفر قطز » ففضل العودة والإستسلام للتتار ، وذلك بعد أن ترك دمشق لتسقط في يد العدو خالية من القوات المقاتلة ؟ ! . . . أما قواته التي كانت قد اجتمعت لديه للقتال ، فإن أغلبها قد سافر إلى مصر منضماً إلى التجهيزات التي كانت قائمة بها إستعداداً للقاء الأعداء . . . ويصف المقريزي حالة الهجرة من الشام إلى مصر بعد سقوط حلب ودمشق فيقول : « وبلغت أجرة الجمل سبعمائة درهم فضة ، وكان الوقت شتاء ، فلم يثبت الناس عند خروج « الناصر » ، ووقعت فيهم الجفلات (موجات الهرب السريع) حتى كأن القيامة قد قامت » ؟ ! . . . كل ذلك لأن الملك « الناصر » لم يصمد في مقاومة الأعداء ، على الرغم من أنه قد اجتمعت لديه ـ كما يقول صاحب النجوم الزاهرة ـ « **أمم عظيمة من العرب والعجم والتركمان والأتراك والمتطوعة** » **يريدون المقاومة والقتال** . . ؟ !

ولقد أدى ذلك إلى أن تصبح أرض الشام ميداناً مفتوحاً أمام جحافل التتار ، فأخذوا في التقدم حتى بلغوا « غزة » مقتربين من حدود مصر .

هولاكو يطلب من مصر الإستسلام

وكانت أخبار سقوط مدن الشام في أيدي العدو قد أحدثت فزعاً شديداً في نفوس الناس ، خاصة بعد أن أصبح الجيش الزاحف على أبواب مصر . . وأراد العدو أن يستفيد من هذا الظرف المواتي للتأثير في نفوس المصريين والجند المجتمع فيها ، كما صنع بالشام بعد سقوط بغداد ، فأسرع « هولاكو » بإرسال رسالة شديدة اللهجة إلى « الملك المظفر قطز » يطلب فيها الاستسلام ، وحمل الرسالة إلى مصر خمسة من الرسل المغول ، وفيها : « من ملك الملوك ، شرقاً وغرباً ، « القان الأعظم » . . . يعلم « الملك المظفر قطز » ، وسائر أمراء

دولته ، وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن اشتكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب . فأي أرض تأويكم ، وأي طريق ينجيكم ، وأي بلاد تحميكم ؟ ! فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . . فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم . . فقد أعذر من أنذر . . . فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمي نحوكم شررها . . . فما بقي مقصد سواكم . . . » ؟ !

ولقد حسمت هذه الرسالة العجيبة موقف التردد الذي ساد بعض أوساط المماليك المصريين في ذلك الحين ، هؤلاء الذين كانوا يأملون أن يقنع التتار بالشام ، وألا تمتد بهم الأطماع إلى الديار المصرية ، فروجوا لنظرية حماية مصر فقط ، واللجوء إليها بعد أن أصبحت الحصن الوحيد الذي بقي للعروبة والإسلام ، باستثناء اليمن والحجاز والمغرب ، وذلك لأن رسالة « هولاكو » لمصر قد أثبتت أن الشام ما هي إلا بوابة مصر ، وأن مصر ما هي إلا قلب الوطن العربي ، وأنه لا استقرار لمغتصب بالشام إلا إذا قهر مصر ، ولا أمان لحكم مستقل بمصر إلا إذا ارتبطت به أقاليم الشام . .

ويحكي صاحب (النجوم الزاهرة) حال الذين استبد بهم اليأس من إحراز النصر على التتار ، فنادوا بعزلة مصر عن المشرق العربي ، وكيف هربوا من البلاد بعد تهديد « هولاكو » لها ، فيقول إن بعض « القلوب قد أيست من النصرة على التتار ، وأجمعوا على حفظ مصر لا غير ، لكثرة عددهم ، واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين ، وأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا معسكراً إلا هزموه . . وهرب جماعة من المغاربة الذين كانو بمصر إلى المغرب ، وهرب جماعة من الناس إلى اليمن والحجاز ، والباقون بقوا في وجل عظيم وخوف شديد ، يتوقعون دخول العدو وأخذ البلاد » .

وقاوم « الملك المظفر قطز » هذا الإتجاه الإنهزامي بقلب شجاع ونفس مشوقة للحرب والقتال . واتخذ لرفع الروح المعنوية ، وجمع الكلمة حول ضرورة الخروج للقاء الأعداء وتحرير المشرق العربي العديد من الوسائل والأساليب . .

● فكان يخطب في الأمراء المترددين ويقول : « يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة (بفتح الغين الغزو) كارهون . وأنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته !! ، فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين » . . ؟ ! فيكسب بهذه الإثارة إلى صفوف القتال أنصاراً من الأمراء المترددين .

● وفي بعض الأحيان كان يلتقي بالأمراء المخلصين لقضية الحرب والقتال ، ويدبر معهم خطة الإجتماع العام بالأمراء المترددين . حتى إذا عقد الإجتماع ، وتحدث إليهم في أمر القتال ، كان التأييد والحماس من قبل أنصاره وأمرائه سلاحاً أدبياً للضغط على هؤلاء المترددين ؟ ! . . واستطاع بذلك أيضاً أن يكسب المزيد من الأنصار لصف المعركة والقتال . .

● وفي أحيان كان يخرج ليلاً في عسكره وأنصاره ، ويصيح في الأمراء قائلاً : « أنا خارج ألقى التتار بنفسي » حتى جاء اليوم الذي « جمعهم فيه ، وحضهم على قتال التتار ، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق وخوّفهم من وقوع مثل ذلك ، وحثهم على استنقاذ الشام من التتار ، ونصرة الإسلام والمسلمين ، وحذرهم عقوبة الله فضجوا - كما يقول المقريزي - بالبكاء ، وتحالفوا على الإجتهاد في قتال التتار ، ودفعهم عن البلاد » .

وهكذا اجتمعت كلمة مصر على الخروج للقاء الأعداء ، وإجلائهم عن البلاد ، واستنقاذ الشام منهم ، رغم الآثار القاهرة للإنتصارات التي أحرزها الجيش التتري الذي لم يكن قد هزم قط حتى ذلك الحين .

الإستعداد للقتال

وعندما اجتمعت كلمة الأمراء على حتمية الخروج للقاء العدو ، وضرورة

قتاله ، أخذت الإستعدادات للمعركة تجري على قدم وساق في كل المجالات . . فلقد كانت كلمة الشعب مجتمعة على ذلك منذ حين . . وبرزت إلى الوجود في جلاء ووضوح تلك الظاهرة التي صاحبت تاريخ مصر على الدوام ، ظاهرة انفراد الجند المملوكي بأمور المنازعات على السلطة والسلطان ، وعزوف العنصر الوطني المصري عن الدخول في هذه المتاهات التي لا تنتهي حلقاتها ، فإذا ما حاق الخطر بالوطن ، ووطئت ترابه أقدام الغزاة أبصرت ساحات القتال دور العنصر الوطني ، وسجلت كتب التاريخ لمحات وإشارات عن مشاركته الفعالة في هذا المضمار . .

فالمماليك كانوا فرسان الإسلام المحترفين للحرب في تلك العصور ، وفي سبيل إتقانهم لصناعتهم هذه كان الشعب قد بذل لهم الكثير من الإمتيازات والعديد من الإقطاعات ، ولكن النفير العام الذي أطلقه « الملك المظفر قطز » للغزو في سبيل الله والوطن ، قد استجابت لداعيه كل العناصر والأجناس التي عاشت في هذا الوطن يومذاك . . وصاحب (النجوم الزاهرة) يصف الذين خرجوا لقتال التتار بأنهم « أمم عظيمة من العرب والعجم والتركمان والأتراك والمتطوعة » . . كما يتحدث « ابن أياس » في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور) عن جموع العرب الذين انضموا إلى الجيش من مديريات « الشرقية » و « الغربية » وكيف اجتمع لهذه المعركة يومئذ « من العساكر ما لا يحصى » . . كما يتحدث « المقريزي » في (السلوك) عن وحدة جند الشام مع جند مصر ، وكيف « خرج الملك المظفر قطز بجميع عسكر مصر ، ومن انضم إليه من عساكر الشام ، ومن العرب ، والتركمان ، وغيرهم » قاصداً قتال الأعداء .

وفي الميدان الإقتصادي ، تحولت موارد الدولة إلى خدمة المعركة ، ويقدم لنا « ابن إياس » صورة دقيقة لكيفية تحويل إقتصاديات مصر لخدمة هدف التحرير ، فيقول إن الملك المظفر قطز « أخذ في أسباب جمع الأموال ، فأخذ من أهل مصر والقاهرة عن كل رأس من الناس من ذكر وأنثى ديناراً واحداً ، وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهراً واحداً ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً ، وأخذ من الترك الأهلية (غير المجندين) الثلث من المال ،

وأخذ على الغيطان والسواقي أجرة شهر . . . فبلغ جملة ما جمعه من الأموال في هذه المعركة ستمائة ألف دينار ، فأنفق على العسكر والعربان » .

وجميل في تاريخ وطننا ، حتى في عصر المماليك أن نلمح للعدل قسمات حتى في مثل هذه الظروف . فلقد أشرنا من قبل إلى حديث الشيخ « عز الدين بن عبد السلام » الذي طلب من الأمراء « أن يتساووا بالعامة » وأن يبيعوا ما لديهم من التحف الذهبية في سبيل المعركة في مقابل مطالبة الناس ببذل كل ما لديهم من أموال . . وفي « ميزانية الحرب » هذه التي حدثنا عنها « ابن إياس » نجد المواطن من العامة يدفع ديناراً ، ومالك العقار والحقل والساقية يدفع أجرة شهر ، يزاد عليها بالنسبة للأغنياء زكاة أموالهم وممتلكاتهم مقدماً . أما الأتراك الذين كانوا يمثلون الطبقة الثرية في ذلك الحين فلقد اقتطعت منهم الدولة ثلث ما لديهم من أموال . ؟ !

غير أن كثرة الجيوش ، وحضور الأموال لم تكن كافية يومئذٍ لزرع الثقة بالنصر في قلوب الجند أو المواطنين . ذلك أن العدو كان بالنسبة لهم أسطورة لم تعرف الهزيمة في يوم من الأيام ، وزحفاً مدمراً خرج من أواسط آسيا وها هو يدق بأقدامه الآن أبواب القاهرة الإفريقية مدمرا كل ما خلف وراءه من حضارات ومدنيات . . ولذلك اجتهد « الملك المظفر قطز » في معالجة هذا الجانب عند الجند والمواطنين . . وفي سبيل ذلك خرق بعض التقاليد المرعية والمتعارف عليها بين المتحاربين . . ذلك أن الرسالة التي بعث بها « هولاكو » إلى مصر طالباً منها الإستسلام قد حملها إلى « قطز » ـ كما قدمنا ـ خمسة من المغول ، وكان مثل هؤلاء الرسل يثيرون من الفزع والرعب بقدر ما يتوقع الناس على يد الجيش التتري من دمار وأهوال . . ولكن « قطز » قرر أن يقتل هؤلاء الرسل ، ويمثل بجثثهم ، ويعرضها على الرأي العام مصلوبة في الأماكن العامة ، كي يكسر حدة الفزع من المغول ، وحتى تنحسر موجة الخوف منهم ، بعد أن تحولت إلى طوفان يهدد بإغراق كل ما صنعت مصر من استعدادات اللقاء والقتال .

وكان أحد الخمسة صبياً استبقاه « قطز » وضمه إلى مماليكه ، أما

الأربعة : فقتل أحدهم في « سوق الخيل » تحت القلعة ، والثاني قرب « باب زويلة » ، والثالث قرب « باب النصر » والرابع « بالريدانية » . . . ثم بعد ذلك ـ كما يقول المقريزي ـ « علقت رؤوسهم على باب زويلة » وهذه الرؤوس أول رؤوس علقت على باب زويلة من التتار » . وكان هذا الحدث الذي يعني احتقار التتار والإستهانة بهم والإصرار على قتالهم وإذلالهم في نفس اليوم الذي نزل فيه « الملك المظفر قطز » من القلعة ، على رأس الجيش ، خارجاً للقاء العدو في ١٥ شعبان سنة ٦٥٨ هـ .

الخروج للقتال

وفي الطريق إلى فلسطين حط الجيش رحاله في مكانين استكمالاً للإستعداد ، أولها « الريدانية » وثانيها « الصالحية » في الطريق إلى المشرق . . وكان في صحبة « قطز » بهذه المسيرة « الملك المنصور » صاحب « حماة » الذي لجأ بجنده إلى مصر ، وها هو يعود مع الجيش الزاحف للقاء التتار ، وكذلك أخوه « الأفضل علي » .

ويحدثنا « ابن تغرى بردي» كيف أرسل « قطز » إلى « الملك المنصور » في معسكر « الصالحية » يطلب إليه أن يهتم بتقشف جنده أثناء المقام وأثناء المسير . وكان الوقت في رمضان ، فكتب إليه يقول : « لا تحتفل في مد سماط (مائدة) ، بل كل واحد من أصحابك يفطر على قطعة لحم في صولقه (المخلاة المعلقة في جنبه الأيمن) . . . » وذلك حتى يحيا الجند حياة جدية استعداداً للقاء الأعداء . .

ومن « الصالحية » تحرك الجيش صوب « غزة » ، وكانت يومئذ بيد « التتار » . . وعندما وصلت أنباء خروج الجيش إلى التتار ، واقترابه من أرض فلسطين ، جمع القائد التتري « كتبغا » ـ وكان في « البقاع » ـ كل ما لديه في جميع أنحاء الشام من جند وعتاد . .

وجعل المصريون على مقدمة جيشهم الأمير بيبرس البندقداري ، وأمره « قطز » بأن يكون طليعة الالتحام بالأعداء . . وفي (غزة) كان أول لقاء

انتهى بانسحاب التتار إلى شاطىء نهر « العاصي » كي يضموا صفوفهم ويجمعوا قواتهم للقاء الفاصل بينهم وبين العرب والمسلمين . .

ورحل الجيش العربي عن « غزة » بعد أن أقام بها يوماً واحداً ، واتخذ ساحل البحر المتوسط طريقاً لـه نحو الشمـال ، والتقى هناك في « عكـا » ببقايا الجند الصليبيين ، الذين هالهم ضخـامة استعـداد العرب ، وقـوة الحشد الـذي خرجوا به للقتال ، وبسيف الرهبة أفسحـوا الطريق للجيش الـزاحف ، ولكنهم أرادوا الغدر به عن طريق الإنضمام إليه حتى يخذلوه ويشيعوا فيه الفرقة وأسباب الهزيمة عند شدة اللقاء . . وكان « قطز » يقظاً للعبتهم هـذه ، فرفض عرضهم هذا ، وطلب منهم ـ كما يقول المقريـزي ـ « أن يكونـوا لا له ولا عليـه » ، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يـريد أذى عسكـر المسلمين رجـع وقاتلهم قبل أن يلقى التتار ، تأميناً لظهر جيش المسلمين .

ثم سار « بيبرس » على رأس جزء من الجيش في مقـدمة الـزحف ، وأخذ في مناوشة طـلائع التتـار ، يقدم تـارة ويحجم أخرى ، ويخوض معهم معارك جزئية صغيـرة ، حتى انتهى الأمـر بمجمـوع الجيشين المتحفـزين إلى الـوقـوف مواجهة عند قرية « عين جالوت » .

المعركة الحاسمة

وبعد طلوع شمس يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ اصطف الجيشان مواجهة في انتظار بدء القتال . . وكان لا يـزال في « قلوب المسلمين وهم عـظيم من التتار » . . لأنهم أمام جيش لم يهـزم هزيمـة محققة حتى الآن ، ولأن انتصـار التتار في هذه المعـركة يعني سقـوط الحصن الأخير للعـروبة والإسـلام . . وامتلأ الـوادي بالمقـاتلين ، وبمن يخدمـون الجند ويساعدون في الحـرب ، وكذلـك بمن يشدون من عزم المحاربين . . وأخذ الفلاحون الفلسطينيون ، من أهل القـرى المحيـطة بميدان المعـركـة يتـوافـدون إلى سـاحتهـا ، ويعلو صياحهم وتهليلهم وتكبيـرهم لإشعال الحمـاسة في الجنـد المسلمين عندما بدأ القتال . . وتعـالت وتتابعت دقات طبول « كوسات » السلطان والأمراء لتتحول إلى تموجات صوتية

دافعة للحماس ومعينة على الإقدام ومانعة من التفكير في أي شيء غير القتال . .

وأبصر « الملك المظفر قطز » أن الجناح الأيسر لعسكر المسلمين قد اضطربت صفوفه ، فتملكته مشاعر الحماس ، وألقى « بالخوذة » إلى الأرض من فوق رأسه ، وصرخ في الجند بأعلى صوته ثلاث مرات : « وا إسلاماه ! . . وا إسلاماه ! وا إسلاماه ! ! » واقتحم بنفسه صفوف القتال ، واستطاع بمن معه أن يسد ثغرة الميسرة فتماسك الجيش وصمد واستمر احتدام الصراع واشتداد القتال . ؟ !

وأخذ « قطز » ينتقل من مكان إلى مكان ، يشجع الجند ، ويحسن إليهم الموت والإستشهاد ، ويجسد لهم المصير الأسود إذا ما انتصر عليهم التتار ، ويباشر بنفسه الكر والفر والقتال . . وقتل الجواد الذي يركبه بسهم أطلقه الصبي المغولي الذي استبقاه من رسل « هولاكو » ؟ ! فترجل وباشر القتال من فوق الأرض ، وعندما رآه على هذه الحال أحد الفرسان الأمراء ، قدم إليه فرسه ، فرفض ، وقال له : « ما كنت لأمنع المسلمين الإنتفاع بك في هذا الوقت ! » . .

وعندما أشعل موقف السلطان هذا الحماس في قلوب الجيش ، استطاع المسلمون زحزحة التتار عن مواقعهم ، فلجأوا إلى حماية التل المجاور لمكان المعركة . . وحمل عليهم المسلمون حملة ثانية أشد من الأولى ، انتهت بإبادة نصف مقاتليهم ، وفرار النصف الباقي إلى « بيسان » . .

وعند ذلك نزل السلطان من فوق فرسه ، ومرغ وجهه في تراب المعركة ، وقبّل أرضها ، وصلى ركعتين في أرض الميدان شكراً لله الذي أعانهم على هزيمة الأعداء . . ثم ركب إلى « بيسان » حيث وجد الأعداء قد جمعوا صفوفاً وعدداً وعتاداً يكاد أن يفوق إمكانياتهم في « عين جالوت » . . ؟ ! ولكن الإنتصار الأول الذي أحرزه الجيش العربي المسلم كان قد قرر مصير هذا الصراع ، فسرعان ما لحقت الهزيمة ثانية بالتتار في « بيسان » كما لحقت بهم في « عين

جالوت » . . ووقع أمراؤهم قتلى وأسرى ، وجاء بقائدهم « كتبغا » مكبلاً بين يدي السلطان ، على حين تعقب « بيبرس » فلولهم « في جماعة من الشجعان إلى أطراف البلاد ، واستوفى أهل البلاد والضياع من التتار آثارهم ، وقتلوا منهم مقتله عظيمة ، حتى إنه لم يسلم منهم إلا القليل جداً » .

ويحكي « ابن أبي الفداء » الحوار الذي دار بين « الملك المظفر قطز » وبين القائد التتري « كتبغا » وكيف قال له « قطز » قبل أن يأمر بقتله : « أيها الرجل الناكث العهد ! . . ها أنت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البريئة ، وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة ، وهدمت البيوتات العريقة بالأقوال الزائفة المزورة ، قد وقعت أخيراً في الشرك » . ؟ !

وأراد « كتبغا » أن يرهب « قطز » فقال له : « لا تنخدع بهذه المصادفة العاجلة ، فإنه حين يبلغ « هولاكو » نبأ وفاتي ، سوف يغلي بحر غضبه ، وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من أذربيجان حتى ديار مصر . . إن لهولاكو ثلاثمائة ألف فارس مثل كتبغا . . » . ؟ !

ولكن « قطز » أجابه إجابة الواثق من أن هذا الصراع قد حسم في « عين جالوت » ، فقال : « لا تفخر إلى هذا الحد بفرسان توران (التتار) ، فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع ، لا بالرجولة والشهامة » . . ثم وضع الأمير جمال الدين « آقوسن الشمسي » حداً لتطاول « كتبغا » على السلطان عندما فصل رأسه عن جسمه كي يطاف به في مختلف أنحاء البلاد . ؟ !

كما يحكي صاحب (النجوم الزاهرة) ذلك الحوار الذي اتخذ العتاب من بعض الأمراء للسلطان على مجازفته بالقتال راجلاً غير راكب أثناء الإلتحام مع الأعداء ، فقالوا له : لو صادفك ـ والعياذ بالله ـ بعض المغول وأنت راجل ، كنت رحت وراح الإسلام ! » وعند ذلك أجاب السلطان : « أما أنا فكنت رحت إلى الجنة ـ إن شاء الله تعالى ـ وأما الإسلام فما كان الله ليضيعه ، فقد مات الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقتل بعده ابنه الملك المعظم توران شاه

وقتل الأمير فخر الدين ابن الشيخ ، مقدم العساكر يوم ذاك (غزو الصليبيين لدمياط والمنصورة) ومع ذلك نصر الله الإسلام بعد اليأس من نصره » . . ؟!

(المغزى والنتيجة)

وعاد الجيش المنتصر، لتستقبله مدن الشام وقراه ، ولتتقدم إلى سلطانه إماراته معلنة عودتها إلى الوحدة مع مصر ، تلك الوحدة التي كان قد انفرط عقدها منذ أن مات صلاح الدين الأيوبي . .

وسجل التاريخ أنه على أرض فلسطين استطاع العرب والمسلمون في « عين جالوت » أن يحسموا لصالحهم جولة من جولات الصراع ضد حضارتهم وتقدمهم واستقلال بلادهم . . وهي الجولة التي هزموا فيها قوة التتار الوثنية العنصرية المتحالفة مع الصليبيين . . كما كان قد سجل من قبل انتصارات صلاح الدين في جولة سابقة ضد الأعداء على نفس الأرض ، أرض فلسطين . .

وفي كل هذه الجولات . . كانت الوحدة هي سبيل استعادة الحق العربي الإسلامي ، وطريق تحرير هذه الأرض من غاصبيها ، كما كان القتال على هذه الأرض، وإحراز النصر فيه، الخيوط التي تنسج من جديد وحدة العالم العربي وتمنحه اليقظة والقوة والتقدم والإزدهار .





بونابرت بالعمامة المملوكية ؟ !

معركة بونابرت
ضد الشخصية المصرية

[١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م]

الأمر المؤكد أن ما كان يدور في خيال بونابرت ، وهو في الطريق إلى مصر ، على رأس حملة عسكرية من ٣٦ ألف مقاتل ، كان مختلفاً إلى حد كبير عما يدور في خيال كثير من الغزاة والمغامرين الذين راودهم الأمل في إخضاع مصر والمصريين .

كان منذ اللحظة الأولى يحاول أن يجعل غزو الشخصية المصرية معركته الكبرى . . بل إنه أعطاها من الأهمية ما فاق أهمية السلاح والجنود .

إن ذكاء بونابرت في هذه الحملة النفسية التي صاحبت الغزو يبدو واضحاً في تخطيطه لغزو الشخصية المصرية ، ليس فقط من خلال نقاط الضعف في هذه الشخصية ، ولكن من خلال نقاط القوة فيها .

وهكذا كان يقول لهم :

« . . مصر ـ أيها المصريون ـ هي الإقليم الحسن الأحسن ، الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها ما يشبهها أو يدانيها » .

ومع ذلك لم يستطع بونابرت العظيم أن يصل إلى العمق الدفين للشخصية المصرية ، ولم تستطع الحملة بالتالي أن تجني ثماراً من أرض مصر حتى بعد أن تم لها الاحتلال بالانتصار على جيش المماليك .

وعندما غادرت الحملة الفرنسية البلاد المصرية في رحلة الاياب .. كانت قد فقدت جنودها الذين جاءت بهم ، وفقدت نهائيا كل الآمال التي راودت قائدها في الاقتراب من قلب الناس على ضفاف النيل .

ومن هذا المنطلق الذي تمثل في شخصية « بونابرت » وأحلامه ، والتي كانت تجسيداً لآمال الاستعمار الفرنسي ومخططاته ، نستطيع أن نبصر الخيط الذي ربط كل تصرفاته حيال المصريين ، وكيف حاول منذ اللحظة الأولى أن يجعل غزو الشخصية المصرية ، معركته الكبرى ، وكيف أعطاها من الأهمية ما فاق أحياناً أهمية السلاح والجنود والقتال ، وكيف اهتم شخصياً بهذه المعركة على جبهة القلوب ، والنفوس ، والأفئدة ، بينما ترك الأغلبية الساحقة من معاركه الحربية في أقاليم البلاد لقواد الحملة الآخرين .

(غزو الشخصية المصرية)

ومنذ المنشور الأول الشهير الذي أعده « بونابرت » ، وهو لا يزال بعد في عرض البحر لم ينزل بجنوده إلى أرض البلاد ، والذي ترجم إلى العربية ووزع على الناس ، نلمح كيف خطط « بونابرت » لغزو الشخصية المصرية ، لا عن طريق نقاط الضعف في هذه الشخصية فقط ، كما يتبادر إلى الأذهان ، وإنما أيضاً عن طريق نقاط القوة فيها ؟ ! وكيف مزج في بياناته وأحاديثه ومواقفه بين هذه العوامل المختلفة والمتناقضة ، واتخذ منها جميعاً ثغرات حاول النفاذ منها إلى نفوس المواطنين المصريين .

ففي منشور الحملة الأولى ، وهو الذي انفرد بروايته الجبرتي ، أصدق وأعظم من أرخ لذلك العصر ، يحاول بونابرت أن ينفذ إلى قلب مصر ونفوس أهلها عن طريق :

١ ـ إثارة ذكريات المجد المصري القديم وبعثها من جديد ، والحديث عن أن مصر هي « الإقليم الحسن الأحسن ، الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها » ما يشبهه أو يدانيه ، وكيف شهدت هذه البلاد « سابقاً .. المدن العظيمة

والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر » وغير ذلك من مظاهر المدنية والعمران والثروة والغنى .

وطبيعي فإن ما كان يهدف إليه بونابرت هو أمر آخر غير تقرير الحقيقة وإنصاف مصر والمصريين ، إذ كان هدفه هو تضخيم الفوارق الحضارية بين هذا الشعب بتاريخه وبين الحكام المماليك الذين كانوا يحكمونه بالإشتراك مع الأتراك العثمانيين في ذلك الحين .

٢ ـ ومن هنا كانت إثارة المنشور لذكريات مصر السوداء عن الحكم المملوكي ، واستنكاره أن ينفرد المماليك بالبلاد . . . « إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين » . . ودعائه في الختام عليهم بعبارة : « لعن الله المماليك » ؟ !

٣ ـ ولقد كان في حسبان « بونابرت » يومئذٍ ذلك التراث وتلك الرواسب التي تركها الحكم المملوكي الطويل في نفوس الناس ، وتلك الطاقة التي أصبحت عادة تتملك النفوس وتحكم القلوب وتقيد الكثير من العقول ، فتحدث إليهم في منشوره الأول عن أهليتهم لخلع سلطة المماليك وسلطانهم ، وذلك « لأن جميع الناس متساوون عند الله ، وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط » وهي مميزات وخصائص لا يملكها المماليك .

٤ ـ كما حرص « بونابرت » في خطته في هذه الحرب النفسية والغزو الذي أراده للشخصية المصرية، على أن يكون إعلاء شأن مصر وأهلها، وتحقير المماليك ولعنهم ، هو لحساب حلمه ، واستعماره ، لا لحساب مصر واستقلالها والشعب المصري وتحرره من كل المغتصبين وسائر القيود .

وبالقدر الذي باعد ما بين المصريين والمماليك كان القدر الذي حاول أن يقرب به بين المصريين والفرنسيين . . ولقد كان يدرك جيداً أن التفكير الديني والروابط الروحية لذلك العصر ، وخصوصاً في الشرق ، كانت لها الغلبة على التفكير القومي الذي لم يكن قد برز بعد في ذلك الحين ، ومن ثم حرص على أن ينعت المماليك بكل النعوت التي تخرجهم من دائرة الإسلام وزمرة المسلمين ، كما حرص على انتحال صفات الصداقة مع الخلافة

الدينية العثمانية ، والحديث عن أن « الفرنساوية في كل وقت من الأوقات ، صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء لأعدائه ، أدام الله ملكه ؟ ! »

بل لقد ذهب « بونابرت » في حربه على هذه الجبهة بالذات إلى ما هو أبعد من هذا ، فقدم نفسه لمصر وأهلها على أنه مسلم ، وأنه مثلهم تماماً ، من حيث الموقف الفكري ، وأيضاً من حيث العمل والتطبيق ؟ !

وهو لم يكتف ـ كما صنع مستعمرو الشرق وغزاته من بعده ـ بالحديث عن أنهم مثل الشرقيين مؤمنون بدين سماوي ، وأنهم مثلهم «أهل كتاب» وإنما افتتح منشوره الشهير بعبارات تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله إلا الله ، لا ولد له ، ولا شريك له في ملكه . . ؟ ! مخالفاً بذلك ما يعرفه الناس عن عقيدته المسيحية في « التثليث » . . ثم تحدث عن إسلامه وتدينه ، وكيف أنه أشد إسلاماً وتديناً من المماليك ، فقال : « إنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى ، وأحترم نبيه ، والقرآن العظيم » ؟ ! ، وأن ذلك ليس موقفاً شخصياً خاصاً به بل إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون » ؟ !

ثم حاول أن يصور للناس أن حملته على ايطاليا إنما كانت خدمة ، من الناحية العملية ، للإسلام والمسلمين ، لأن هذه الحملة قد جعلت الفرنسيين الذين « نزلوا في رومية (روما) الكبرى ، وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام » ، يؤدون خدمة كبرى للإسلام والمسلمين .

(يحتفل معهم بالمولد)

واستمراراً لتنفيذ هذا المخطط أخذ « بونابرت » في الاهتمام بالمناسبات الدينية ، والمشاركة في إحيائها شخصياً . وعندما شعر أن الشعب قد عدل عن الاحتفال بالمولد النبوي في ظل الإحتلال الفرنسي ، وأن ذلك سيحدث في الناس هزة نفسية ، أدرك أنه عمل مبيت ومقصود من أعمال المقاومة السلبية . فتحدث إلى « الشيخ البكري » في ذلك ، وأمر بإقامة الاحتفالات على نفقة

الحملة ، وأن يساهم وجنوده في الاحتفال ، ويحكي الجبرتي في أحداث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ ، فيقول : « وفيه سأل « صاري عسكر » ـ بونابرت ـ عن المولد النبوي ، ولماذا لم يعملوه كعادتهم ؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال . فلم يقبل ، وقال : لا بد من ذلك ، وأعطى له ثلاثمائة ريال فرنساوي معاونة ، وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل ، واجتمع الفرنساوية يوم المولد ، ولعبوا في ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم ، وأرسل « الطبلخانة » الكبيرة إلى بيت الشيخ البكري ، واستمروا يضربونها بطول النهار والليل « بالبركة » تحت داره » .

وشارك « بونابرت » ، في زيه الشرقي ، رجال الدين والتصوف في هذه الاحتفالات . ؟ !

ومثل ما حدث في المولد النبوي حدث في مولد الإمام الحسين ، فعندما حان موعده ، بعد انقضاء المولد النبوي ، عزم المصريون على عدم إقامته ، احتجاجاً على الإحتلال ، وقرروا ألا يقيموه إلا بعد زوال هذه الغمة عن البلاد ، وعودة الأوضاع فيها إلى ما كانت عليه ، وأخبر الجواسيس « بونابرت » بذلك التدبير ، فتدخل في الأمر ، فأقيم الاحتفال في نطاق ضيق ، وحضره « بونابرت » شخصياً .

(يستعين بالقضاء والقدر !)

ولعله لم يكن هناك في تاريخ الغزاة والمستعمرين الذين تعاقبوا على مصر ، والذين هزمتهم مصر ، من حاول استغلال نقاط الضعف التي ألصقتها الخرافة بالدين زوراً وبهتاناً ، كما صنع ذلك « بونابرت » خلال حملته على مصر ، فلقد استخدم في أحاديثه وبياناته ومنشوراته تلك التصورات الضارة والدخيلة على الفكر الإسلامي عن القضاء والقدر ، وتجنب تماماً الإشارة إلى المفهوم الصحيح عند المسلمين الأوائل لهذه العقيدة ، بل ومفهومها الصحيح عند المصريين القدماء . .

ولقد شهد الفكر الإسلامي ، وشهدت حياة المصريين على عهد

« بونابرت » كلاً من هذين المفهومين المتناقضين ، لهذه العقيدة ، على السواء .

فالبطل الوطني « محمد كريم » حاكم الإسكندرية عند دخول « بونابرت » لها ، يرى في عقيدة القضاء والقدر زاداً روحياً يمنح النفس المؤمنة البسالة والعزم لتخوض المعركة ضد الأعداء بروح الفدائيين والشهداء . وما دام (لكل أجل كتاب) فلا معنى للجبن أو التردد في التضحية والفداء ، لأن الحرص على الموت في ساحة القتال هو السبيل إلى الحياة . وهو لذلك يرفض أن يدفع ثلاثين ألفاً من الريالات حكم بها عليه الفرنسيون مقابل وقف تنفيذ حكم الإعدام ضده ، ويجيب القاضي الفرنسي عندما يسأله : (أنك رجل غني ، فما يضيرك أن تفتدي نفسك بهذا المبلغ ؟ !) ، قائلاً « إذا كان مقدوراً علي أن أموت . فلا يعصمني من الموت أن أدفع هذا المال . وإذا كان مقدراً لي الحياة فلماذا أدفعه ؟ ! » ويضرب باستشهاده المثل النموذجي للمقاومة والفداء .

والصبي المصري ، ابن الإثني عشر عاماً ، يخرج من قريته « الفقاعي » ببني سويف ليجعل مهمته الدائمة السطو على معسكرات الفرنسيين وسرقة السلاح وتسليمه لرجال المقاومة الشعبية . وعندما يقع بيد الفرنسيين يرفض الإعتراف على محرضيه وشركائه ، ويقول لهم : إن الذي أمره بهذا العمل هو « الله القادر على كل شيء » ؟ !

ولكن « بونابرت » ، في حربه الفكرية لغزو الشخصية المصرية ، يتجاهل هذه المفاهيم التي عرفها المصريون لعقيدة القضاء والقدر ، ويحاول محاولات كثيرة ومستميتة كي يصور غزوه ومشروعات إمبراطوريته على أنها هي قضاء الله وقدره الذي لا بد من مقابلته بكل الرضى وكل التسليم ، فيتحدث إلى الأمة من خلال « العلماء والأشراف » عقب إحدى ثورات القاهرة ضده قائلاً :

« أيها العلماء والأشراف : أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ، فلا يجد ملجأ ولا مخلصاً ينجيه مني في هذا العالم ، ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله

سبحانه وتعالى . والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير من الله تعالى وإرادته وقضائه ، ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة . وأعلموا أيضاً أمتكم أن الله قدر في الأزل هلاك أعداء الإسلام وتكسير الصلبان على يدي ، وقدر في الأزل أني أجيء من المغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذي امرت به ، ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه . وأعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل ، وأشار في آيات أخرى إلى أمور تقع في المستقبل وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يتخلف . . » .

(يشاركهم في وفاء النيل)

ولم ينس « بونابرت » مناسبات مصر القومية ، وتقاليدها العريقة في الاحتفال « بوفاء النيل » ، ومثلما صنع في الاحتفالات الدينية ، يشارك بنفسه في هذا الاحتفال . ويصف الجبرتي احتفاهم بهذا اليوم في يوم الجمعة الموافق ٥ ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ ، وهو الاحتفال الذي قاطعه الشعب ورفض المشاركة فيه ، وكيف أجبر « بونابرت » « أرباب الديوان » وبعض « العلماء » على الإشتراك في الاحتفال « وركب صحبتهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره إلى قصر قنطرة السد ، وكسروا الحجر بحضرتهم وعملوا « شنك » مدافع » ونقوطاً » ، حتى جرى الماء في الخليج ، وركب وهم في صحبته حتى رجع إلى داره . وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه في المراكب على العادة سوى النصارى الشوام والقبط والأروام والإفرنج البلديين ونسائهم ، وقليل من الناس البطالين » ؟ !

وكما كانت المقاومة المسلحة التي قام بها الشعب سبباً في فناء ثلثي تعداد المقاتلين الفرنسيين الذين جاء بهم « بونابرت » إلى مصر ، فإن المقومات الحضارية لهذا الشعب العريق قد كانت بالمرصاد لخطة الغزو النفسي للشخصية الوطنية ، مما أدى إلى الفشل الكامل لمخطط « بونابرت » هذا ، وتداعى ذلك البناء الذي حلم بإقامته ، وتبددت كل عناصر الأسطورة التي صنعها له العلماء

أجمع ، والتي جاءت تصحبه إلى مصر ، تداعى كل ذلك هنا في مصر ، وعلى ضفاف النيل .

ولقد كان السبيل الذي سلكته الشخصية المصرية إلى تحقيق الانتصار على هذا المخطط البونابرتي ، هو الصمود في وجه المحاولات لغزوها والتأثير فيها ، ذلك الصمود الذي سلك فيه الشعب العديد من الطرق والكثير من الدروب .

(سقوط الأسطورة)

فعلى الرغم من أن الإنتصارات غير العادية التي حققها « بونابرت » في أوروبا ، قبل مجيئه إلى مصر ، كانت كفيلة بتقديمه في صورة البطل الذي لا يقهر ، والقائد الذي لا يستعصى عليه منال ، وعلى الرغم من أن انتصاره في مصر ضد الجيش المملوكي ، وضد العثمانيين كان ساحقاً ، على الرغم من كل ذلك فإن المقاومة الشعبية المسلحة قد قدمت العديد من الأدلة على إمكانية هزيمة الجندي الفرنسي والضابط الفرنسي المسلح جيداً وحديثاً ، بل وقدمت الدليل على إمكانية هزيمة هذا الجيش العصري حتى عندما يكون قتاله تحت القيادة الشخصية والمباشرة لـ « بونابرت » نفسه .

وإذا كان ذلك لم يتمثل في معارك كثيرة ، ولا في لقاءات ذات أثر حاسم في إنهاء الاحتلال ، فإنه قد تمثل في تلك الثورات التي قام بها سكان القاهرة حيث كان « بونابرت » يعيش ، ويمارس القيادة اليومية والمباشرة ضد نشاط الثوار .

وحدث كذلك بطريق السخرية الشعبية والجماهيرية من ذلك القائد الذي دوخ العالم ودك العروش وأذل القادة والجيوش والملوك ، ففي إحدى جولاته المفاجئة ، وأثناء عودته من بيت الشيخ السادات ، أبصرته الجماهير ، فتجمعت من حوله ، وأخذوا في الصياح ، حتى اضطرب أمره ، وداخله الخوف من مغبة ذلك التجمهر ، ولم يكن بيد الناس سلاح يخافه ، بل لم تنطلق حناجرهم بشعارات الاحتجاج على احتلاله ، وإنما اكتفوا بقراءة (الفاتحة) بصوت جهوري مسموع ؟ ! فارتجفت لذلك أعصاب القائد الكبير .

(لا تعايش مع الغازين)

وفي الوقت الذي لا نظفر فيه بكثير من الأمثلة عن الهزائم العسكرية التي حدثت « لبونابرت » مباشرة أثناء غزوه لمصر ، فإن الجبرتي يعطينا مادة غزيرة ومتنوعة لانتصار الإرادة المصرية أمام جبروته، ورفضها الأبي كل محاولاته لإيجاد أي نوع من أنواع التعايش بينها وبين الفرنسيين .

ويحكي الجبرتي كيف « طلب صاري عسكر بونابرتة » المشايخ ، فلما استقروا عنده ، نهض « بونابرتة » من المجلس ورجع وبيده طيلسانات (أرواب) ملونة بثلاثة ألوان ، كل طيلسان من ثلاثة عروض : أبيض وأحمر وكحلي ، فوضع واحداً منها على كتف الشرقاوي ، فرمى بها إلى الأرض واستعفى ، وتغير مزاجه ، وامتقع لونه واحتد طبعه ؟ ! » .

فقال لهم المترجم يغريهم بارتداء شارات وزي الفرنسيين : « يا مشايخ ، أنتم صرتم أحباباً لصاري عسكر ، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة في قلوبهم » . . لم يعبأ العلماء والقادة بهذا المنطق وذلك الإغراء ، فأجابوه : « لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين » ؟ !

(الإنتصار العظيم)

ولعل أحداً لو سأل أكثر الناس تفاؤلاً بالنصر ، يوم دخل بونابرت مصر في ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ م ، وهو اليوم التالي لنزول جيشه إلى البر ، هل سيتمكن هذا الشعب من إجباره على الرحيل بعد عام واحد وبضعة أيام ، في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ م ؟ !

لعل أكثر الناس تفاؤلاً بالنصر يومئذٍ ما كان ليستطيع أن يجيب على هذ التساؤل بالإيجاب .

ولكن روح الشعب العظيم ، ومقاومته الإيجابية العظيمة ، هي التي جعلت القائد الأسطوري الذي دوخ العالم ، والذي حلم بامبراطورية شرقية يتربع على عرشها ، والذي قال : « إن آمالي قد اتجهت إلى الشرق ، واستهوتني

فتوحاته العظيمة ، وصرفتني عن التفكير في أوروبا » ، إن روح الشعب ومقوماته قد دفنت كل هذه الآمال والمشاريع والأحلام ، وجعلت « بونابرت » يفر من مصر بليل ، بل ويعترف بأن على رأس أسباب رحيله « إلى بلاد الفرنساوية » هو « لأجل راحة أهل مصر » الذين قرروا أن لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار ، ولا تستريح لهم نفس حتى يرحل هو وجيشه عن البلاد .

ولم تكن كراهية المصريين « لبونابرت » واحتلاله ، تعني حبهم للنظم المملوكية العثمانية القديمة ، فحتى الفرنسيين أنفسهم قد أدركوا وسجلوا : « أن المصريين يمقتون حكم المماليك ، ويرهبون نير الآستانة ، ولا يحبون حكمها . ولكنهم لا يطيقون حكمنا ، ولا يصبرون عليه إلا بأمل التخلص منه » . .

معركة رشيد

[١٢٢٢ هـ ١٨٠٧ م]

رسم للشيخ عبد الرحمن الجبرتي

لأن الصراع قديم ومزمن بين حضارة الشرق وأطماع الغرب الاستعماري ، بدت صفحاته في التاريخ كالموجات ، تمتد حيناً لتنحسر في كثير من الأحيان .

فالإسكندر الأكبر يزحف على الشرق ، ليقيم إمبراطورية الرومان على أنقاض حرية شعوبه ، ونفوذ الفارسيين . . ثم ينهض الشرق مرتدياً ثوب الإسلام ، متسلحاً بأسلحته المادية والروحية ، كي يحرر الأرض من الرومان البيزنطيين . . ثم تأتي موجة الصليبيين في العصور الوسطى لتسلب من جديد ما استرده العرب والمسلمون . . . وبعد نحو قرنين من الزمان يتصدى لهم صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس ودولة المماليك ليجهزوا على كل أحلام الغزاة الصليبيين . . . ثم يأتي العصر الحديث ، فتبدأ القصة من جديد . . نابليون يتقمص شخصية الإسكندر ويحلم بامبراطوريته الشرقية ، فيفتح للغرب باب الاستعمار الحديث ، ليدخل منه الإنجليز وكل الطامعين ، حتى أبناء الحركة الصهيونية العنصرية الذين يحاولون في القرن العشرين إعادة الروح إلى الكيان الصليبي العنصري الغريب في قلب الوطن العربي ، على أرض فلسطين . . . وهم في جولتهم هذه الحديثة ، يمنون أنفسهم بالنجاح فيما فشل أسلافهم الغزاة منذ أقدم العصور .

(دائماً يخطئون الحساب)

وكثير من الناس يتساءلون : كيف تأتى لهذا الشرق أن يخرج ظافراً من كل المعارك في هذا الصراع الطويل ؟ ؟ وكيف صمدت عناصره الوطنية الأصيلة واستعصت على الذوبان والإبادة والإنقراض ؟ ؟ . . وكيف اتخذت مقوماته الحضارية مكان العامل المؤثر ، حتى في الغزاة ، بدلاً من أن تنهار وتخلي مكانها لمقومات المستعمرين؟؟

كيف لم يحدث ذلك ، ولا شيء منه ، على الرغم من أن هؤلاء الغزاة قد سعوا إليه ، واستهدفوه ، وأعلنوا أنهم قاب قوسين أو أدنى من النجاح في تحقيقه في كل مرة وطئت فيها أقدامهم أرض هذه البلاد .

ونحن نعتقد أن السر الأكبر وراء فشل المستعمرين والغزاة هذا ، كان ولا يزال كامناً في عجزهم عن فهم الروح النضالية السارية في أوصال هذه المنطقة سريان الحياة ، ونسيانهم أو تناسيهم أن غزوهم واستعمارهم لبلادنا إنما أسهم ويسهم في شحذ الهمم ونفض الغبار عن عناصر الأصالة في هذه الأمة ، وإذكاء النيران التي خيل إليهم أنها قد خمدت بفعل المظالم أو الفقر أو التناقضات التي تعيش فيها هذه البلاد .

* * *

ففي مطلع القرن الماضي ، وبعد أن كسب الشعب العربي في مصر جولته ضد حملة نابليون ، خيل للإنجليز أن حظهم في هذا الميدان سيكون أسعد من حظ الفرنسيين . . وعندما اضطرت قواتهم التي جاءت إلى مصر كي تساهم مع العثمانيين في إجلاء جيوش نابليون عندما اضطرت جيوش الإنجليز هذه إلى الجلاء ، ومغادرة الإسكندرية في ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ م ، اصطحبت معها كبير الأمراء المماليك في ذلك الحين «الألفي بك» ، وظل في إنجلترا وقتاً طويلاً يعد معهم ويعدون معه الخطة للسيطرة على البلاد . . وذلك ظناً منهم أن فشل نابليون قد جاء بسبب افتقاره إلى حزب من داخل البلاد يمنحه المساندة والتأييد ، وأن اعتماد إنجلترا على المماليك سيمهد لهم السبيل لنجاح الإحتلال .

ودرس آخر تعلمه الإنجليز من فشل الفرنساويين ، وتوهموا أنهم بتلافيه سيحققون النجاح الذي لم يستطع تحقيقه نابليون .. فلقد احتل نابليون المدن ، وفي مقدمتها القاهرة ، وانتشرت جنوده بالأقاليم ، وخالطوا العنصر الوطني ، ومن ثم تعرض جيشه لمخاطر « الكثافة السكانية » ، وجاءت اللحظات التي ووجه فيها بالثورات المشتعلة ، والأسلحة البسيطة والبدائية تطل على جنوده من كل نافذة وباب .. فأراد الإنجليز بحملتهم التي قادها الجنرال « ماكنزي فريزر » والتي وصلت سفنها إلى الإسكندرية في ١٦ مارس سنة ١٨٠٧ م ، أن يتحاشوا ذلك باحتلالهم مراكز مؤثرة في حياة البلاد ، وفي ذات الوقت بعيدة عن « الكثافة السكانية » لأهلها ، حتى تظل لقوات الغزو التي بلغت في البداية « ٥١٠٠ » مقاتل ميزة التجمع والتمركز ، فلا تبتلعها المدن والقرى والأقاليم ..

وكانت الإسكندرية يومئذ ولاية مستقلة عن مصر تتبع السلطان العثماني مباشرة ، ولا تتبع السلطة القائمة في القاهرة التي كان يمثلها محمد علي باشا في ذلك الحين .. كما كانت ثغور « رشيد » و « دمياط » تابعة تبعية مباشرة للعثمانيين . ولذلك قرر الإنجليز على أن يكون احتلالهم - في البداية - لهذه المراكز البعيدة عن متناول المصريين وحكومة القاهرة ، وجاء في التعليمات التي وجهت إلى أسطولهم في شرق البحر المتوسط أوائل سنة ١٨٠٧ م : إن الهدف ليس احتلال البلاد ، وإنما اتخاذ المراكز المؤثرة ، وخاصة الإسكندرية ، وذلك لإعطاء التأييد والحماية لأحزاب المماليك الذين يرغبون « رغبة صادقة في أن تكون لهم علاقات ودية في كل الأوقات مع بريطانيا العظمى »[1] .

وعندما كان الإنجليز يخططون لتحاشي انتشار قواتهم الغازية في البلاد ، لم تكن خشيتهم بالدرجة الأولى من العنصر الوطني المصري ، وإنما من الجند العثمانيين المرتزقة الذين كانوا يعيشون في مصر ، من الأتراك ، والأرنؤوط ، وغيرهم من الأجناس ... لأنهم كانوا - ككل الغزاة الذين سبقوهم أو أتوا من

---

(١) د . محمد فؤاد شكري [مصر في القرن التاسع عشر] جـ ٢ ص ٥٩٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

بعددهم ـ لا يحسنون التقدير الحقيقي لدور هذا العنصر الوطني في تحطيم كل الموجات الغازية التي جاء بها الأعداء إلى أرض هذه البلاد . . كانوا يزعمون أن هذا الشعب سلبي ، غير محارب ، لا يفكر إلا في الخلاص من حكامه الظلمة الطغاة ، وأنه ينتظر الأجنبي دائماً ليخلصه من هؤلاء الحكام ، ثم يسلم له الزمام . .

وفي تقرير بعث به أحد الوكلاء الإنجليز من القاهرة إلى « السير الكسندربول » في ١٣ ديسمبر سنة ١٨٠٤ م ، ويقول : « إن مصر في حاجة شديدة إلى سيد جديد . وإن أول القادمين سوف يلقى ترحيباً، وإن الأحزاب المناضلة (المتناحرة) فيما بينها سوف تلتف حول « العلم الأجنبي »، ويتوق الفلاحون للحماية الأجنبية تبسط عليهم لتمنع عسف الحكام بهم . وإن قوة اجنبية صغيرة سوف تكفي للاستيلاء على مصر وعلى حكومتها »[1].

وقبيل وصول سفن الحملة الإنجليزية إلى البلاد ، أخذت تقارير قنصلهم في الإسكندرية « مسيت » تتوالى إلى رؤسائه في لندن ، وإلى « الجنرال فريزر » ، حاملة مثل هذه العبارات : « إن السكان يميلون إلى الإنجليز بدرجة طيبة . . . إن الأهلين يرغبون من زمن طويل في أن يحتل الجنود البريطانيون بلادهم ، وهم لن يقاوموهم . . . لقد قلت ، ولا أتردد في تكرار القول بأن سكان مصر أصدقاء للإنجليز ، وأنهم يتوقون للتحرر من نير الأتراك والأرنؤود »[2] .

(الأتراك يستسلمون)

ولقد زاد من اطمئنان الإنجليز إلى هذا الوهم ، الذي توهموه وعاشوا عليه ، إنهيار الجند العثماني بعد وصول الحملة الإنجليزية إلى الإسكندرية . . فحاكم المدينة العثماني « أمين آغا » وكبار التجار والأعيان قد سلموا المدينة للإنجليز ، ووقعوا شروط التسليم في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٧ م ، بعد مناوشات

---

(١) المرجع السابق جـ٢ ص ٥٩٠ .

(٢) المرجع السابق جـ٢ ص ٦٠٢ ، ٦٠١ ، ٧١٣ .

شكلية وتافهة لم يذهب ضحيتها من الأتراك سوى ثلاثة وعشرين جندياً ، ومن الإنجليز سوى ستة من القتلى وثمانية أصيبوا بجراح . . وكانت خطة الإستسلام معدة سلفاً ، بدليل أن « مسيت » قد كتب إلى رئيسه « وندهام » في ٢٩ فبراير ، أي قبل شهر من وصول الحملة ، يقول : « إن حاكم الإسكندرية وكبار العلماء بها قد أكدوا لي تأكيداً قوياً أنه لن يتعرض لي أحد بشيء مهما تكن الظروف والأحوال . . »[1] .

أما انهيار القوات التركية التي كانت تقيم في القاهرة بمجرد وصول أخبار استسلام الإسكندرية ، فإن الجبرتي يصوره أدق تصوير عندما يقول : إنه « لما شاع أخذ الإنجليز للإسكندرية ، داخل العسكر والناس وهم عظيم ، وعزم أكثر العسكر على الفرار إلى جهة الشام ، وشرعوا في قضاء أشغالهم واستخلاص أموالهم التي أعطوها للمتضايقين والمستقرضين بالربا ، وإبدال ما بأيديهم من الدراهم والقروش و « الفرانسة » التي يثقل حملها بالذهب البندقي » و « المحبوب الزر » لخفة حملها ، ثم سعوا في مشترى أدوات الارتحال والأمور اللازمة لسف البر ، وفارق الكثير منهم النساء وباعوا ما عندهم من الفرش والأمتعة » ؟ ! (الجبرتي جـ ٤ . ص ٥٤ . طبعة بولاق) . . ويقدر « يوسف عزيز » الذي كان يعمل ترجماناً للقنصلية الإنجليزية بالقاهرة عدد الجند المرتزقة الأتراك الذين تركوا سلاحهم يومئذ بألف وخمسمائة جندي ، ويقول : « وقد أخفى هؤلاء أنفسهم في بيوت المدينة في الأحياء الأكثر عزلة عن غيرها ولم يجرؤوا على الظهور إلا بعد وصول الأسرى الإنجليز إلى القاهرة » عندما انتصر عليهم الشعب في « رشيد »[2] .

أما الذين لم يلقوا السلاح ويختفوا في البيوت من جنود الأتراك ، فلقد اتخذوا من المحنة وسيلة للثراء وزيادة المظالم الواقعة على كاهل المواطنين ، فكانوا يجمعون الإعانات والتبرعات ، ويخرجون « بالطبل والزمر والبيارق » « ويذهب الجميع إلى بولاق ، يوهمون أنهم مسافرون (للقتال) على قدم الاستعجال بهمة

---

(١) المرجع السابق . جـ٢ ص ٦٠٦ ، ٦٠١ .

(٢) المرجع السابق . جـ٢ ص ٦٢٠ .

ونشاط واجتهاد ، فإذا وصلوا إلى « بولاق » ، تفرقوا ، ويرجع الكثير منهم ، ويراهم الناس في اليوم الثاني والثالث بالمدينة . . . ومن تقدم منهم وسافر بالفعل ، ذهب فريق منهم إلى المنوفية ، وفريق إلى الغربية ، ليجمعوا في طريقهم من أهل البلاد والقرى ما تصل إليه قدرة عسفهم من المال والمغارم و « الكلف » ، وخطف البهائم ، ورعي المزارع ، وخطف النساء والبنات والصبيان . . وفجروا بالنساء وافتضوا الأبكار ، ولاطوا بالغلمان وأخذوهم وباعوهم فيما بينهم »؟! . . وكما يقول الجبرتي ساخراً « وكذلك يفعل المجاهدون ؟! »[1].

أما السلطان العثماني ، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، وقائد هذا الجند ، فلقد اكتفى بأن أرسل في ٦ ربيع الثاني سنة ١٢٢٣ هـ مرسوماً يقول فيه : « إنه بلغ الدولة ورود نحو الأربع عشرة قطعة من المراكب إلى ثغر الإسكندرية ، وأن الكائنين بالثغر تراخوا في حربهم ، حتى طلعوا إلى الثغر ، فمن اللازم الإهتمام وخروج العساكر لحربهم . وقد أرسلنا البيورلديات » إلى سليمان باشا والي « صيدا » وإلى يوسف باشا والي « الشام » بتوجيه العساكر إلى مصر للمساعدة »[2].

وهذا التاريخ الذي أصدر فيه السلطان هذا المرسوم يأتي بعد ثلاثة أشهر من انتصار الشعب المصري على الحملة الإنجليزية في رشيد ؟ ! ، ويأتي بعد أن وصل مندوبون من مصر إلى « الآستانة » في ٢٦ صفر يحملون صناديق بها آذان قتلى الإنجليز في المعارك « بعد تمليحها ودبغها ؟ ! » . . . هذا عن عنصر الأتراك ! ! . .

(والمماليك يخونون)

أما المماليك ، فلقد كان موقفهم موقف الخيانة الصريحة والواضحة والمعلنة . . فهم كانوا يعتبرون معركتهم أساساً ضد محمد علي باشا ونظام حكمه

---

(١) الجبرتي [عجائب الآثار] جـ٤ ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) المصدر السابق . جـ ٤ ص ٥٩ .

الجديد . . ويعدون مشروع الإنجليز لغزو البلاد مشروعهم هم الذي أقام « الألفي بك » في لندن سنوات يشرف على الإعداد له ، وكان الألفي قد جمع جيشاً مملوكياً يزيد على تعداد جنود حملة « فريزر » ، وظل في مديرية « البحيرة » ينتظر قدوم الحملة للانضمام إليها . . ولكن الموت عاجله قبل مجيء الإنجليز بأربعين يوماً في مديرية الجيزة ، ويحكي الجبرتي كيف « حضر الإنجليز بعد ذلك إلى الإسكندرية ، فوجدوه قد مات ، فلم يسعهم الرجوع ، فأرسلوا إلى الأمراء القبليين (مماليك الصعيد) ، يستدعونهم ليكونوا مساعدين لهم على عدوهم ، ويقولون لهم : إنما جئنا بلادكم باستدعاء « الألفي » لمساعدته ومساعدتكم ، فوجدنا الألفي قد مات ، وهو شخص واحد منكم ، وأنتم جمع ، فلا يكون عندكم تأخير في الحضور لقضاء شغلكم ، فإنكم لا تجدون فرصة بعد هذه ، وتندمون بعد ذلك إن تلكأتم »[1] .

واستجاب المماليك لداعي الخيانة ، ولكنهم عجزوا عن الإسهام الإيجابي في نصرة قوات الاحتلال ، وتوجسوا خيفة من الشعب إن هم مروا بقواتهم في قراه من الصعيد حتى الإسكندرية ، بعد أن علم الناس تواطؤهم مع الغزاة . . فأعطوا ولاءهم للمحتل ، وطلبوا منه احتلال مدينة « رشيد » حتى يطمئن قلبهم ، ويعلو صوتهم ، ويجرؤوا على القدوم إليه والانضمام لقواته . . . فكتب « شاهين بك الألفي » إلى « صديقه المحترم جداً » « مسيت » قنصل بريطانيا ، يقول : « إن سائر البكوات عظم فرحهم ، وبخاصة عندما عرفوا أن بريطانيا العظمى قد أعلنت الحرب على الباب العالي من أجل إعادة السلام والهدوء وإرجاع الحكومة المملوكية في مصر » . . . وأما فيما يتعلق بشخصي فواجبك أن تعتقد ، ولك أن تؤكد هذا لكل من يهمهم الأمر ، بأني أعتبر الأمة الإنجليزية الصديق الوحيد لي ، وهي حاميتي الوحيدة كذلك ، ولن أعترف بسواها صديقاً وحامياً لي . . . وسوف يكون طبيعياً إذا بلغني سقوط « رشيد » أن استخلص من ذلك أن الجنود الإنجليز صاروا قريبين ، وسوف أسرع

---

(١) المصدر السابق : جـ ٤ ص ٤٦ .

لـلإنضمام إليهم . . . وأرجو أن تبلغني سريعاً خبر تسليم رشيد ، لأنه كلما تأجل سقوطها أتيحت للعدو فرصة أكبر لتحصين وتقوية نفسه »[1] .

أما إبراهيم بك فإنه يكتب إلى الجنرال « فريزر » في ٢١ ابريل سنة ١٨٠٧ م ، معتذراً عن عدم الإنضمام الفوري إلى قوات الحملة خوفاً من العائلات المملوكية من انتقام « العدو » ، ويعد ، قائلاً : « . . وعندما تستولي أنت على رشيد ، سوف نأتي - إذا وافقت على ذلك - إلى الشرق من القاهرة ، بينما تزحف أنت على شاطىء النيل الغربي لـلإنضمام إلينا ، وترسل إلينا عند وصولك إلى الجيزة ما يفيد ذلك ، فنحضر نحن لمقابلتك في يوم يصير تحديده عند « امبابه » . وهناك تتحد قواتنا معكم ضد العدو . . . ونسأل المولى تعالى بفضل مساعدتكم أن ننال النصر على أعدئنا »[2] .

ولقد فتحت خيانة المماليك هذه ثغرة كبيرة في جدار الصمود الشعبي ، ولم تحرم الشعب فقط من جند المماليك ، وإنما حجبت محمد علي وقواته عن مواجهة الغزو الإنجليزي ، إذ وقف متربصاً بالمماليك ، يخشاهم إن هو شارك في مقاومة الغزاة . . بل وأكثر من ذلك وأهم ، أدت خيانة المماليك إلى سيادة السلبية واللامبالاة في بعض الأوساط ذات النفوذ الشعبي الكبير في ذلك الحين ، تلك الأوساط التي كانت تؤيد المماليك ضد محمد علي ، فاتخذت موقفاً سلبياً في البداية من الإنجليز أنصار المماليك وأعداء محمد علي . . . وكان موقفها السلبي هذا مساهمة إيجابية انضمت إلى العوامل التي رجحت كفة انتصار الإنجليز . .

ففي ٢٨ مارس سنة ١٨٠٧ م ، أي قبل معركة « رشيد » الأولى بأربعة أيام ، يكتب القنصل الفرنسي « دروفتي » الذي اشترك في المقاومة والتحريض على القتال بحكم تناقض مصالح دولته مع إنجلترا ، يكتب عن موقف عمر مكرم ، ويتحدث عن عدم حماسه لمقاومة الإنجليز أصدقائه المماليك ، ويقول : أنه « لا مجال للشك في أن هذا المهيج الشعبي المقتدر قد انحاز إلى

(١) [مصر في القرن التاسع عشر] جـ٢ ص ٦٢٨ ، ٦٨١ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ .
(٢) المرجع السابق . جـ٢ ص ٦٨٧ ، ٦٨٨ .

الإنجليز ، وكسبه هؤلاء إلى جانبهم ، وأنه أراد العثور على وسيلة يأمن بها على سلامة نفسه ، الأمر الذي يفسر مسلكه في هذه اللحظة ، وهو مسلك يكاد يكون طابعه عدم الإهتمام التام »[1] .

والسيد حسن كريت ، نقيب الأشراف في « رشيد » ، ورجل السيد عمر مكرم ، يقف من قوات الحملة موقف اللامبالاة ، فلا يتحمس للمقاومة . . وفي اللحظات الأولى لدخول الإنجليز إلى المدينة ، يبعث برسول من قبله إلى القيادة الإنجليزية ، يطلب منها أن تعين له من جنودها « حرس شرف » لحراسته ؟ !

ويقتدي به بعض أثرياء المدينة فيطلبون من الإنجليز حمايتهم وتأمينهم على ثرواتهم ومصالحهم . . وهؤلاء الأثرياء هم الذين سبق وتذمروا ضد حكومة محمد علي سنة ١٨٠٥ م عندما فرضت عليهم ضرائب قيمتها ٤٠,٠٠٠ ريال ، ووقف معهم في ذلك التذمر السيد عمر مكرم[2] .

ولكن موقف التهاون هذا ، لم يكن هو الطابع العام لموقف القيادات الفكرية والدينية في ذلك الحين . . فلقد سجل لنا الجبرتي موقف المشايخ الذين أدركوا ضرورة وحدة كل عناصر الأمة ضد الغزاة ، فسعوا لتوحيد قوى البلاد ، بما فيها المماليك ومحمد علي ، وذهبوا يفاوضون المماليك في ذلك ، وعندما قال المماليك لهم : « إن الإنجليز أتوا باستدعاء الألفي لنصرتنا ومساعدتنا » ، قال لهم المشايخ : « لا تصدقوا أقوالهم في ذلك ، وإذا تملكوا البلاد لا يبقوا على أحد من المسلمين . وحالهم ليس كحال الفرنساوية : لا يتدينون بدين ويقولون بالحرية والتسوية ، وأما هؤلاء الإنكليز فإنهم نصارى على دينهم ، ولا تخفى عداوة الأديان ، ولا يصح ولا ينبغي منكم الانتصار بالكفار على المسلمين ، ولا الإلتجاء إليهم »[3] فكانوا بذلك الوجه المشرق لصمود الشعب حتى من قبل أن ينتصر في معركة « رشيد » . .

---

(١) المرجع السابق . جـ ٢ ص ٦١٩ .

(٢) د . محمد عمارة [العروبة في العصر الحديث] ص ١٢٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

(٣) [عجائب الآثار] جـ ٤ ص ٤٩ .

(وسلطة محمد علي تنهار)

لم تفلح جهود محمد علي ولا المشايخ في جعل المماليك يتخلون عن ولائهم لحملة «فريزر»، الأمر الذي كان سيتيح لمحمد علي وقواته التي كانت تحارب المماليك في الصعيد أن تشارك في صد قوات الغزاة ، ولم يكن محمد علي قد أجرى بعد تلك التغيرات الإدارية والعسكرية التي اعتمد فيها على العنصر الوطني ، فأحله في عديد من المناصب والدوائر في جهاز الدولة المدنية الحديثة ، ولا كوّن بعد الجيش الوطني المصري على أنقاض فوضى الجند المرتزقة من أخلاط الشعوب العثمانية . . . لم يكن شيء من ذلك قد حدث بعد ، ولذلك فإن جهاز الدولة والسلطة والعسكر الأرنؤودية التي كان يعتمد عليها حكمه قد انهارت هي الأخرى بمجرد أن احتل الإنكليز الإسكندرية ، كما حدث للعساكر العثمانية الأتراك . .

ويصور الجبرتي انهيار جهاز الدولة في « دمنهور » عاصمة البحيرة ، وكيف بذل الشعب جهوداً خارقة كي تتماسك هذه السلطة وتخوض المعركة إلى جانب الأهالي ، ولكن دون جدوى ، فيذكر أنه قد ورد إلى نقيب الأشراف السيد عمر مكرم « مكتوب من أهالي دمنهور . . مضمونه أنه لما دخلت المراكب الإنكليزية إلى الإسكندرية هرب من كان بها من العساكر ، وحضروا إلى دمنهور ، فعندما شاهدهم « الكاشف » (الحاكم) الكائن بدمنهور ومن معه من العساكر ، انزعجوا انزعاجاً شديداً ، وعزموا على الخروج من دمنهور ، فخاطبهم أكابر الناحية قائلين لهم : كيف تتركونا وتذهبوا ، ولم تروا منا خلافاً ، وقد كنا فيما تقدم من حروب « الألفي » من أعظم المساعدين لكم ، فكيف لا نساعد الآن بعضنا بعضاً في حروب الإنكليز ؟ ! . . فلم يستمعوا لقولهم ، لشدة ما داخلهم من الخوف ، وعبوا متاعهم ، وأخرج الكاشف أثقاله وجبخانته ومدافعه ، وتركها ، وعدى وذهب إلى « فوة » من ليلته ، ثم أرسل ثاني يوم من أخذ الأثقال فهذا ما حصل أخبرناكم به »[1] .

ولم يكن حال جهاز الدولة بالقاهرة بأحسن منه في دمنهور . . فرغم

(١) المصدر السابق . جـ ٤ ص ٤٦ ، ٤٧ .

تعليمات محمد علي إلى رجالات دولته بالإستعداد لقتال الإنكليز ، إلا أنهم قد اتخذوا هذا الأمر وسيلة لمزيد من الإثراء والسلب والنهب وجمع الأموال . . فكان « حسن باشا » مثلاً ، يخرج كل يوم في صورة الذاهب للقتال « ويرجع إلى داره آخر النهار ، فيبيت بها ، ثم يخرج في الصباح . . وعساكره وأوباشه ينتشرون بتلك النواحي ، يعبثون ويخطفون متاع الناس ومبيعات الفلاحين وأهل بولاق ، وفي كل يوم يشيعون بأنه مسافر إلى جهة البحيرة لمحاربة الإنكليز»[1] .

أما الذين غادروا القاهرة فعلاً من هؤلاء الباشوات ، فإنهم استباحوا الأقاليم سلباً ونهباً ، « فبونابرته الخازندار » « نزل على القليوبية وفعل ما أمكنه وقدر عليه بالبلاد من السلب والنهب والجور والكلف والتساديف ، حتى وصل إلى المنوفية . وكذلك « طاهر باشا » الذي سافر في أثره ، و« إسماعيل كاشف » المعروف « بالطوبجي » فرض على البلاد جمالاً وخيولاً وأبقاراً وغير ذلك . ويمضي الجبرتي ليقول عن هؤلاء « المحاربين » : « ومن جملة أفاعيلهم أنهم يوزعون الأغنام المنهوبة على البلاد ، ويلزمونهم بعلفها وكلفها ، ثم يطلبون أثمانها مضاعفة ، بما يضاف إلى ذلك من حق طرق المعينين وأمثال ذلك »[2] ؟ ! .

هذه كانت حال الجند المرتزقة الغرباء . . ورجال الدولة العثمانية في مصر ، أمام الغزو الإنكليزي . . الإنهيار التام ، وذلك بالإضافة إلى الخيانة الصريحة للمماليك . .

(الشعب يقاوم وظهره للحائط !)

وعندما أبصر الإنكليز انهيار المؤسسات العثمانية ، العسكرية والإدارية ، وأيقنوا من ولاء المماليك ، شرعوا في تغيير مخططهم القديم الذي قالوا فيه أن هدفهم هو احتلال الإسكندرية فقط لمساعدة المماليك . . فالمماليك طلبوا منهم احتلال « رشيد » حتى يستطيعوا الثقة بالنجاح وينضموا بقواتهم إلى الجيش الغازي . . والقنصل الإنكليزي « مسيت » أخذ يطلب من « فريزر » احتلال

(١) المصدر السابق . جـ ٤ ص ٤٥ .
(٢) المصدر السابق . جـ ٤ ص ٤٧ .

« رشيد » و« الرحمانية » بحجة ضمان حصول الجيش على التموين ، واحتلال « دمياط » لمنع نزول الجنود الأتراك بها . . وكتب « فريزر » إلى رؤسائه يطلب الموافقة على احتلال « القاهرة » بمساعدة المماليك الذين كتبوا إليه يحددون «امبابة» مكاناً للقاء قبل دخولهم معاً إلى القاهرة . .

وبالفعل بدأ الإنكليز حصارهم من جهة الجنوب حول « أبو مندور » في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٧ م بقوات تعدادها ١٤٠٠ جندي يقودها الجنرال « ووكوب » ويساعده البريجادير « ميد » . . وفي حسبانهم أن الطريق أمامهم سهل معبّد ، إذ ليس في هذه المدينة سوى ٢٥٠ جندياً ، انضم إليهم مثلهم ؛ بتسليح رديء وروح معنوية هابطة ، وليس من ورائهم وضع سياسي أو عسكري يبعث على الثقة أو يدعو إلى المقاومة والصمود . . وكانت حسابات الإنكليز حتى ذلك الحين أن الشعب في شوق لانتصار قوات الإحتلال ؟ ! . . ولكنهم كانوا على موعد مع درس من الدروس التاريخية الكبرى التي لقنها هذا الشعب للغزاة والفاتحين عبر التاريخ .

(رشيد في المعركة الأولى)

ففي يوم الثلاثاء ٣١ مارس سن ١٨٠٧ م (محرم سنة ١٢٢٢ هـ) بدأ الأنجليز هجومهم على المدينة ، بعد أن قسموا قواتهم إلى ثلاثة طوابير تهاجمها من ثلاثة جهات من ناحية الحدائق والبساتين على شاطيء النيل . . . ومن الوسط . . . ومن الميسرة . . . ولكن الطابور الأول فوجيء بأن النيران قد أخذت تنهال عليه ، لا من القوات المتحصنة بالمدينة فقط ، وإنما من « الأهالي » الذي اتخذوا مواقعهم في الأحراش على يساره ، ومن الفلاحين الذين اجتمعوا على الشاطيء الآخر لنهر النيل ، ولقد انتهت هذه المفاجأة بإبادة ثلثي قوات هذا الطابور ؟! . . . وعندما تمكن الجنرال « ووكوب »، الذي قاد الطابور الثاني ، من دخول المدينة من إحدى ثغرات الدفاع ، تولى قيادة الطابور الثالث أيضاً بعد جرح قائده البريجادير « ميد » . . وخيل للانجليز أن النجاح قد حالفهم ، في الوقت الذي كان شعب المدينة يعتقد أن المعركة الحقيقية لم تبدأ بعد . . . وفي

ساعة من الزمن انضم الجنود النظاميون الى قوات الشعب المسلحة داخل المنازل والبيوت ، والتحموا بهم في صف واحد لينهال الرصاص على الانجليز من كل مكان . . وفي لحظات تحول الجيش الذي كان يعد للاحتفال بالانتصار إلى جثث من القتلى والجرحى ، وبقايا تجاهد للفرار ، والشعب في أثرهم يضيق عليهم سبل النجاة . . . وأحصى الانجليز خسائرهم في هذا اليوم فبلغت أكثر من خمسمائة ما بين قتيل وجريح وأسير ، من بينهم قائد المعركة الجنرال « ووكوب » الذي قتل برصاصة قناص مصري ، أشعل الغزاة النار في المنزل الذي تحصن فيه . . ولقد تم هذا النصر بفضل « أهل البلدة ومن معهم من العساكر » الذين كانوا « متنبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت . . كما يقول الجبرتي أصدق مؤرخي ذلك العصر[1] . . .

وحاول « فريزر » في تقريره الذي كتبه لوزير حربيته عن هذه المعركة في ٦ إبريل أن يقلل من شأن ما حدث ، وأن يرجع هزيمتهم إلى عدم استكشافهم لمواقع المدينة قبل دخولها ، ولكنه أشار إلى حقيقة هامة عندما تحدث عن أسباب صمود المقاومة ضدهم ، وكيف أن سبب هذا الصمود كان في تجنب اللقاء المكشوف ، واللجوء إلى أساليب أخرى في القتال تفيد المقاومة وتشل فعالية تفوق الإنكليز ، فتحدث كيف تطور الأمر إلى أن أصبح الجنود الإنكليز ، « تحت تسلط العدو وسيطرته ، وهو عدو لا يخشى بأسه عند الإلتحام معه في ميدان مكشوف ، ولكنه يصبح مبعث أخطار جسيمة للغاية إذا هوجم في موضع يفيد منه يقيناً ، ويتلاءم تماماً مع أساليب قتاله ، كذلك الوضع الذي وجد فيه . . »[2] .

ولقد حسم هذا الإنتصار الشعبي الموقف لصالح المقاومة ضد كل عوامل التهادن والقوى التي اتخذت موقف الترقب أو اللامبالاة . . كما نشطت في القاهرة ومدن الأقاليم والقرى حركة التطوع والاستعداد للمعركة الفاصلة التي

---

(١) [عجائب الآثار] جـ ٤ ص ٤٧ .

(٢) [مصر في القرن التاسع عشر] جـ ٢ ص ٦٤٨ .

أخذ العدو يعد لها بتجهيز حملته الثانية على « رشيد » . .

● فالسيد حسن كريت ، نقيب أشراف رشيد ، تحول إلى صفوف المقاومة ، وألقى بثقله ونفوذه في الاستعداد للمعركة . . وبعث إلى السيد عمر مكرم في القاهرة رسالة يطلب النجدة والمساعدة في مقاومة الحصار المفروض على المدينة . .

● وفي ٥ إبريل ، بعد أن وصل الأسرى الإنكليز ورؤوس قتلاهم إلى القاهرة بدأ عمر مكرم في الدعوة إلى القتال وتجهيز المتطوعين بالمال والسلاح « فنبه على الناس وأمرهم بحمل السلاح ، والتأهب للجهاد في الإنكليز ، حتى مجاوري الأزهر ، وأمرهم بترك حضور الدروس وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك إلقاء الدروس »[1] .

● وبمبادرة من الشعب وزعمائه وعلمائه قامت في القاهرة جبهة وطنية لتحصين المدينة ، وتجهيز الدفاع عنها والإشراف على التطوع والسفر لمساعدة « رشيد » . . وكما يقول الجبرتي : انه « حصلت جمعية ببيت القاضي ، وحضر حسن باشا ، وعمر بيك ، والدفتردار ، وكتخدابيك ، والسيد عمر النقيب ، والشيخ الشرقاوي ، والشيخ الأمير ، وباقي المشايخ . . فتكلموا في شأن حادثة الإنكليز ، والاستعداد لحربهم وقتالهم وطردهم . . ويجب أن يكون الناس والعسكر على حال الإلفة والشفقة والإتحاد ، وأن تمتنع العساكر عن التعرض للناس بالإيذاء ـ كما هو شأنهم ـ وأن يساعدوا بعضهم بعضاً على دفع العدو ، ثم تشاوروا في تحصين المدينة وحفر خنادق »[2] . . . ولقد تحولت هذه القيادة إلى جبهة وطنية شعبية حقيقية تقود أعمال المقاومة والاستعداد للإحتمالات . . وفي غياب محمد علي الذي كان لا يزال بالصعيد ، وفي ظل قصور جهاز دولته والمساهمات الكلامية والشكلية لرجالات دولته ، بدأت القيادة الشعبية عمليات التنفيذ لما اتفق عليه في « جمعية بيت القاضي » ففي ٧ إبريل « شرعوا في حفر

---

(١) [عجائب الآثار] جـ ٤ ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق . جـ ٤ ص ٤٨ .

الخندق . . . ووزعوا حفره على مياسير الناس وأهل الوكائل والخانات والتجار وأرباب الحرف والروزنامجي ، وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل من الفعلة ، وعلى البعض أجرة خمسين ، وعشرين ، وكذلك أهل بولاق ، ونصارى ديوان المكس ، والنصارى الأروام ، والشوام ، والأقباط . واشتروا المقاطف والغلقان والفؤوس والقزم وآلات الحفر . . وشرعوا في بناء حائط مستدير أسفل تل قلعة السبتية»[1] . . . وفي اللجوء إلى التمويل الشعبي لأعمال المقاومة هذه، وأيضاً في تحمل الطوائف المسيحية المختلفة نصيبها على قدم المساواة مع المسلمين في أعمال المقاومة دلالات هامة على طبيعة ومضمون هذا العمل الشعبي الكبير .

● وأخذت طوائف المتطوعين لمساعدة رشيد في القتال تغادر القاهرة والأقاليم إلى المدينة التي أحكم الإنكليز ثانية من حولها الحصار . . متطوعون يقول عنهم الجبرتي أنهم من مختلف الطوائف مصريين وعرباً « من المغاربة ، وأتراك خان الخليلي ، وكثير من العدوية ، والأسيوطية ، وأولاد البلد » . . . حتى اجتمع في رشيد منهم « الجم الكثير من أهالي بلاد البحيرة ، وغيرها ، وأهالي رشيد ، ومن معهم من المتطوعة ، والعساكر ، وأهل دمنهور[2] . . والغربية ، وغيرها . .

● أما رجالات حكم محمد علي الذين انهاروا عندما احتل الإنكليز الإسكندرية ، وفروا ، من أمثال حاكم دمنهور ، فلقد حاولوا جني ثمار النصر الأول لرشيد ؟ ! ، فذهب رجال (كاشف) دمنهور من « السعاة إلى مصر بالبشارة ، فضربوا مدافع وعملوا شنكاً ، وخلع كتخدابيك على السعاة الواصلين ، وأسرع المبشرون أتباع العثمانيين، وهم القواسة الأتراك ـ بالسعي إلى بيوت الأعيان يبشرونهم ويأخذون منهم البقاشيش والخلع »[3] . بمناسبة النصر الذي لم يحرزوه ؟ !

● وبعد خمسة أيام من انعقاد « جمعية بيت القاضي » وصل محمد علي إلى

---

(١) المصدر السابق . جـ ٤ ص ٥٠ .

(٢) المصدر السابق . جـ ٤ ص ٥٠ ، ٥٣ .

(٣) المصدر السابق . جـ ٤ ص ٤٧ .

القاهرة ، ووجد القيادة الوطنية الشعبية تنهض بعبء الإستعداد للمقاومة والقتال . . فتوجس خيفة من هذا التحرك الشعبي الكبير ، وحاول عزل العنصر الشعبي عن المعركة وقصر أعمالها على الجند النظاميين ، فعقد اجتماعاً في داره ، وطلب من كتخدابيك وحسن باشا الخروج للحرب ، وظهر اتجاهان في هذا الاجتماع ، اتجاه ممثلي الشعب الذين قالوا له : إننا نخرج جميعاً للجهاد مع الرعية والعسكر » واتجاه محمد علي الذي قال لهم : « ليس على رعية البلد خروج وإنما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر ؟ ! »[1] . . . لكن الشعب كان قد أخذ بيده زمام المبادرة بالفعل ، وقرارات « جمعية بيت القاضي » كانت قد عرفت طريقها إلى التنفيذ والتطبيق ، وفي الوقت الذي تحولت فيه « رشيد » إلى معسكر شعبي يجسد وحدة الأمة وإصرارها على القتال ، كانت « المصادفة » ـ حسب تعبير الجبرتي ـ هي التي قادت بعض رجال محمد علي إلى هذه الناحية ، كي يشهدوا المعركة ، ويساهموا فيها ، ويقطفوا وحدهم ثمار الإنتصار . .

(رشيد في المعركة الفاصلة)

وفي ٣ إبريل تحركت الحملة الإنكليزية الثانية إلى رشيد ، بعد أن جاءتهم الإمدادات والنجدات التي طلبها « فريزر » من « صقلية » ، وبلغ تعداد قواتهم هذه المرة ٢,٥٠٠ جندي تعززهم قوة بحرية هامة ، أي نحواً من ضعف عدد قواتهم في الحملة الأولى . . كما حاولوا الإستفادة من دروس الحملة الأولى ، فضربوا الحصار من حول المدينة متخذين من « إدكو » قاعدة خلفية لهم ، ثم زحفوا إلى « الحماد » ومرتفعات « أبو منضور » ونصبوا مدافعهم فوق التلال المحيطة برشيد . . وكانت خطتهم أن يضربوا المدينة بالمدافع ضرباً مركزاً ، وأن يجبروها على الإستسلام دون أن يدخلوا بجنودهم وسط السكان . .

غير أن هذا التفوق الإنكليزي في العدد والإستعدادات ، وذلك الحذر والتخطيط الجديد لم يغير شيئاً من تصميم الشعب على المقاومة والقتال . . فكانت الخطة الشعبية هي الإستمرار في نفس الطريق الذي حقق النصر في

---

(١) المصدر السابق . جـ ٤ ص ٥١ .

المعركة الأولى ، طريق الإنتصار على العدو بواسطة إلغاء فعاليات التفوق والميزات التي تمتاز بها قواته وأسلحته ومحاربوه . .

● وبدأت المناوشات بين الفريقين . . المحاصرون يصبون نيرانهم على المدينة ، والمقاومة ترد عليهم بالنيران واضطر الإنكليز إلى توسيع دائرة الحصار كي يكونوا بعيداً عن مرمى نيران المواطنين . . فقام بعض أهل المدينة بصنع أنواع من الأسلحة البعيدة المرمى ، حتى قيل إنها كانت أبعد مرمى من أسلحة الإنكليز ؟ !

● ولما لم يجد هذا الحصار ، لجأ الإنكليز إلى سلاح جديد ، فأرسلوا رسلاً إلى داخل المدينة لتقسيم الصفوف وتفريق الكلمة ، وأخذوا يعدون التجار والأثرياء بالحماية والمحافظة على مصالحهم ، ويهددون الناس بأن المماليك في طريقهم لفك حصونهم واستباحة مدينتهم . . ولكن هذا السلاح قد فشل هو الآخر . .

● وبعد أسبوع من بدء الحصار أخذ المواطنون زمام المبادأة في الهجوم ، فأخذت سرايا من فرسان المدينة تخرج للهجوم على صفوف الحصار لاختبار نقاط الضعف فيه ، واكتشفوا أنها في منطقة « الجماد » . . كما أخذوا في جمع المعلومات عن العدو وقواته واستعدادته بواسطة الفلاحين والفلاحات الذين كانوا يخالطون جنوده في شكل عمليات للبيع والشراء في سوق ريفي يبيعون فيه البيض والسمن والدجاج ؟ ! . .

● وفي يوم ٢١ إبريل سنة ١٨٠٧ م شن الوطنيون هجوماً على مواقع العدو عند « الجماد » حيث كان الكولونيل « ماكليود » يتولى القيادة ، ودارت معركة باسلة وحافلة بالمعاني والدلالات استمرت ثلاث ساعات ، وقع فيها الغزاة بين القوات المهاجمة من رشيد وبين الفلاحين من أهل قرية « الجماد » ، وكانت المعركة الفاصلة ، في ذلك اليوم الذي هزم فيه الإنكليز للمرة الثانية ، حيث خسروا ما بين ١٣٠٠ و ١٤٠٠ من جنودهم ما بين قتيل وجريح وأسير ،

وهربت فلولهم إلى غير رجعة نحو الإسكندرية في انتظار الرحيل النهائي عن البلاد . .

● ويصف الجبرتي هذه المعركة ، وأساليب الشعب القتالية المستحدثة التي أبطلت فعالية التفوق الذي امتاز به الأعداء ، ودور الشعب القيادي في كل ذلك ، فيقول : « . . كثر المتطوعون ، ونصبوا لهم بيارق وأعلاماً ، وجمعوا من بعضهم دراهم ، وصرفوا على من انضم إليهم من الفقراء ، وخرجوا في مواكب وطبول وزمور فلما وصلوا إلى متاريس الإنكليز ، دهموهم من كل ناحية ، على غير قوانين حروبهم وترتيبهم ، وصدقوا في الحملة عليهم ، وألقوا أنفسهم في النيران ، ولم يبالوا برميهم ، وهجموا عليهم ، واختلطوا بهم ، وأدهشوهم بالتكبير والصياح . . حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم ، فألقوا سلاحهم ، وطلبوا الأمان ، فلم يلتفتوا لذلك ، وقبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم ، وحضروا بالأسرى والرؤوس ـ على الصورة المذكورة ـ وفرّ الباقون على الإسكندرية »[1] .

● وصورة أخرى من هذه المعركة يقدمها لنا الجبرتي تجسد معنى التضامن العربي يتحول إلى حقيقة مادية تعيشها الجماهير ، فلقد كان في صفوف المقاتلين « من جملة المتطوعين رجلان من أهل « مكة » التجار المقيمين بمصر (السيد أحمد النجاري ، وأخوه السيد سلامة) ، كانا في « الواقعة » بنحو مائة من البدو المغاربة وغيرهم ، ينفقان عليهم ويحرضانهم على القتال ويعينان المقاتلين من الأهالي بما في أيديهما ، ويقاتلان بأنفسهما ، وبذلا جهدهما في ذلك ، وأنهما بعد هزم الإنكليز وسلبهم ، فرقا ما غنماه وما بقي معهما من الأشياء على من خرج خلف الإنكليز ؟ ! »[2] . .

فهي إذاً المبادرة الشعبية التي تجسدت في القيادة الوطنية للمعركة . . والروح القتالية التي ظهرت في جموع الشعب التي تطوعت ودخلت رشيد أو احتضنتها من خلف حصار الأعداء . . والأساليب القتالية الجديدة التي ابتكرها

---

(١) المصدر السابق . جـ ٤ ص ٥٥ .

(٢) المصدر السابق . جـ ٤ ص ٥٣ .

الشعب ليواجه بها تفوق العدو ، ويكسر بها حدة هذا التفوق . . والتضامن العربي الذي تواجد في أرض المعركة بالدم والمال . . هي إذاً التي حققت للشعب انتصاره على الإنكليز في رشيد في معركتي ٣١ مارس و ٢١ إبريل سنة ١٧٠٧ م ، فكسب بهذا النصر جولة ضد أعدائه الذين اضطروا لتوقيع شروط الإنسحاب والجلاء عن الإسكندرية في ١٩ سبتمبر من نفس العام . . . بعد أن جاءوا ومن خلفهم أحلام التوسع والسيطرة التي راودت كل الغزاة لهذه البلاد ، رحلوا ومن ورائهم كلمة قنصلهم « مسيت » التي كتبها في ٢٢ إبريل ، قائلاً :

« سوف يدهش العالم أجمع عند سماعه أن جيشاً أوروبياً قد عجز عن أخذ بلدة مثل رشيد » ، لأنهم كانوا لا يزالون عاجزين عن الفهم والتقدير السليمين لروح الصمود والتحدي التي تميز بها هذا الشعب على مر التاريخ[1] .

(١) [مصر في القرن التاسع عشر] جـ ٢ ص ٧١٢ .

معركة فتح عكا

[١٢٤٧ هـ ١٨٣٢ م]

هناك حقيقة هامة أغفلها ويغفلها عدد من الباحثين والمثقفين الذين تسربت إلى نفوسهم مشاعر اليأس وأحاسيسه بعد قيام إسرائيل ، وشنها الحرب ضد الوطن العربي في سنوات ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ م . . اليأس من قدراتنا القتالية ، وكفاءة الجندي العربي ، والمصري بالذات ، في ميادين القتال . .

ورغم إخلاص العديد من هؤلاء المثقفين العرب لأمتهم ، وحبهم لها ، إلا أن العزلة التي فرضتها عليهم ظروف حياتهم ، كمثقفين ، والتي ابتعدت بهم عن أماكن حياة ونشاط وتجمع الكتل الشعبية الأساسية التي يتكون منها شعبنا ـ فلاحون وعمال ـ إن هذه العزلة قد حرمتهم الرؤية الصادقة لمدى الصلابة والعناد المستترين خلف الطيبة والوداعة والهدوء التي يتحلى بها أبناء هذا الشعب . وهم المنبع الأساسي للمقاتلين الذين حشدتهم بلادنا على خطوط القتال منذ أن أعادت بناء جيشها في أعقاب عدوان ١٩٦٧ م .

وإذا كان تاريخ أية أمة من الأمم إنما يمثل بالنسبة لحاضرها ومستقبلها معالم تهتدي بها ، وتتعلم منها ، وطاقة هائلة تذكي في روحها قدرات بلا حدود . . فإن تاريخ هذه الأمة العربية ، والشعب العربي في مصر بالذات ، حافل بالشواهد التي لا تقبل النقض على أن هذا الشعب الذي احترف صناعة

الحضارة السلمية منذ أقدم العصور ، كان هو الشعب الذي أقام وأنشأ القوات المسلحة الضاربة والقادرة على حماية هذه الحضارة ومنازلة خصومها عبر التاريخ الطويل .

وعلى أن الفترات التي اعترضت ـ شذوذاً واستثناء ـ قيام هذه الحقيقة الصلبة والناصعة ، لم تفقد هذا الشعب قدرته القتالية ولا كفاءة أبنائه في ساحة القتال . . بل لقد استكنت هذه القدرات في أعماقه ، وعاشت في قلبه ووجدانه ، يكتمها ويتفاعل معها صبره العنيد ، حتى تحين لها الفرصة فتنطلق محققة أهدافها ، محطمة أعداءها ، وعند ذلك تصيب الدهشة والذهول كل أولئك الذين انعزلوا عن أعماق حياة هذا الشعب ، ويصيبهم الدوار من هول المفاجأة التي تبدت لهم بعد أن حسبوا هذا الشعب لا طاقة له بالحرب ، ولا قبل لأبنائه بالجد في ميادين القتال . .

هذه الحقيقة التاريخية الشامخة قد غاب وعيها واستكناه أبعادها عن كثير من المخلصين في صفوف المثقفين العرب . . ودعك من الأعداء الحريصين على طمس هذه الحقيقة كي لا تؤدي دورها في بعث هذه الأمة ، وأخذها مكانها الطبيعي بين الأمم والشعوب .

الصحوة القتالية :

ففي العقود الأولى من القرن التاسع عشر شهدت مصر قيام « دولة مدنية » حديثة ، في ظل حكم محمد علي باشا الكبير ، فتخلصت من نظام الإلتزام الاقطاعي ، ومن فرسان الإقطاع المماليك . . وانتهت غربتها وعزلتها عن الحضارة ، تلك العزلة التي فرضها عليها العثمانيون ، فوصلت حاضرها ومستقبلها المنشود بالصفحات المشرقة في تراثها وتاريخها وكذلك بالصفحات الحديثة التي أضافتها وتضيفها أوروبا إلى التراث الحضاري للإنسان .

وكان لا بد لهذه الصحوة بأن تصطدم بأعداء هذه الأمة التقليديين :

- التخلف الممثل في السلطنة العثمانية . .
- والاستعمار الأوروبي ، الذي يرى في صحوة مصر ونهضتها السبيل لبناء وحدة عربية تقيم في مركز العالم قوة كبرى تنهي كل أحلام المستعمرين ،

من الإسكندر ، إلى قمبيز ، إلى هرقل ، إلى نابليون ! . .

ولقد حاول محمد علي باشا الكبير بالجنود المرتزقة من بقايا الأرنؤود، والألبان ، والأكراد . . الخ . . الخ . . حاول أن يصنع القوة المسلحة الضاربة التي تحمي هذا البناء الحضاري الجديد ، فعجزت وتفسخت هذه الشراذم والحثالات . . لأنها لم تكن مؤهلة كي تكون حامية للحضارة . . ووجد محمد علي ، أخيراً، أن الإنسان الذي احترف صناعة الحضارة منذ أقدم العصور، هو الوحيد المؤهل ، في هذه البقعة ، لحماية هذه الحضارة والدفاع عنها ضد كل الأعداء . . ففتح باب الجندية ـ [الجهادية] ـ أمام هذه الأمة في عشرينات القرن الماضي ، بعد أن كان موصوداً ، وبعد أن ظل موصوداً أمامها منذ انهيار الدولة الفرعونية قبل آلاف من السنين ؟!..

عكا يفتحها المصريون :

ومن بين المعارك الكثيرة التي خاضها الجندي العربي المصري المقاتل في ذلك التاريخ تلك المعركة التي دانت له فيها حصون « عكا » المنيعة ، وركعت تحت أقدامه قلاعها الحصينة في ٢٧ مايو ١٨٣٢ م . . بعد أن حاصرها وقاتل العثمانيين فيها ـ ومن ورائهم الإمبراطورية البريطانية ـ ستة أشهر كاملة . .

ولم تكن المعجزة التي حققها المقاتل المصري، بفتحه «عكا»، قاصرة، فقط على أنه فتح المدينة الحصينة التي يضرب بها المثل عبر التاريخ في الاستعصاء على الفاتحين المحاربين ـ ولو اقتصر الأمر على ذلك لكان في الأمر معجزة حقيقية تشهد للجندي المصري بالتفوق في ساحات القتال .

● فهو قد فتح المدينة التي طالما وقف الصليبيون ، بجيوشهم الجرارة المؤلفة من خيرة فرسان العصور الوسطى والمزودة بالأساطيل الحربية التي أعدتها مدن أوروبا التجارية لغزو الشرق ، أمامها عاجزين . . وطالما وقفت هذه المدينة صامدة عنيدة تأبى أن تهزم أو تستسلم لهؤلاء الغزاة . . حتى لقد بلغ الأمر بقوة حصونها ومناعة قلاعها الحد الذي جعل الملك ريتشارد ـ [قلب الأسد] ـ أن يعلن عن جائزة كبرى لكل فارس من الفرسان ومقاتل من المقاتلين إذا استطاع

أن « يهز » حجراً واحداً من سور هذه المدينة الحصين ؟!!. . . نعم ، مجرد « هز » هجر واحد من سورها ، كان يعد نصراً تمنح له الجوائز الكبرى للفرسان المغاوير ؟!. .

● وهي المدينة التي صدت في ١٧٩٩ م ـ أي قبل ثلاث وثلاثين عاما من فتح الجندي المصري المقاتل لها ـ صدت بونابرت ، وجعلته يتراجع مهزوماً من أمام أسوارها وقلاعها ، وهو القائد الذي فتح أوروبا وأذلها ، ثم جاء إلى الشرق كي يجرب حظه في ربوعه ويحقق فيه أحلام المستعمرين . . ردته « عكا » مهزوماً ، رغم رصيده ورصيد جيشه من الإنتصارات .

● وهي المدينة التي زودها العثمانيون بالعدة والعتاد، ومن وراء حاميتها أسطول العثمانيين ، يساعده الأسطول الإنكليزي على أن تصمد المدينة في وجه المصريين . .

فلو اقتصرت ، إذن ، إنجازات المقاتل العربي المصري على مجرد فتح هذه المدينة ، لكان ذلك معجزة حربية تضع ذلك المقاتل في مكانه الصحيح والممتاز بين المقاتلين الشجعان . .

ولكن الأمر لم يقف عند ذلك الحد ، بل تجاوزه إلى دروس في الحرب والقتال بالغة الأهمية ، تحولت إلى تقاليد عسكرية وقتالية أرساها هذا الجيش المصري العربي ، الذي كان يومئذ حديث التكوين !. .

فعلى سبيل المثال ، لا الحصر تضيف هذه المعركة إلى سجل العكسرية والجندية المصرية هذه الدروس والتقاليد :

١ ـ في العلاقة بين القيادة السياسية وبين الجندي المقاتل على أبواب عكا ، كان الإتصال حياً ودائماً ، وباعثا على الحماس والتشجيع باستمرار . . فمحمد علي يكتب إلى الجنود يتحدث إليهم عن دور الجندي في معارك القتال ، وعن قيمة الجهد ، وضرورة « التعب » في التدريب والقتال ، فيقول : « إن هذا « التعب » هو عين الراحة والشرف لكم ، وكلما زاد تعبكم يزداد شأنكم وشرفكم ، لأن هذا شأن العسكري : احتمال الأتعاب والمشقات ، والتقاء

صدمات الأعداء بقوة القلب . وشرف العساكر : الهجوم على الحصون ، وإذاقة من حاربهم شراب المنون ؟ !» فذلك هو السبيل إلى إبراز « السطوة المصرية القاهرة » !! . .

نعم . . لقد تحدثت قيادة مصر السياسية ، يومئذ ، عن أن جهد المقاتل وتعبه وهو الشرف ، وعن أن واجبه هو دك حصون العدو وإذاقته شراب المنون !! وعن أن السطوة المصرية القاهرة ، هي جندها البواسل في ساحات القتال ضد الأعداء! . .

٢ ـ وفي العلاقة بين القيادة العسكرية المباشرة ـ إبراهيم باشا ـ وبين جنوده ، تطالعنا أروع التقاليد في سجل الجندية المصرية . .

فهو يطوف بين جنوده ، يتحدث إليهم في ديمقراطية وحرية وصراحة ، فيسأله أحد الجنود : كيف تطعن في الأتراك ، وأنت منهم ؟! . . فيجيبه القائد على هذا السؤال محدداً الطبيعة القومية للمعركة ، وأهداف مصر واستراتيجية نهضتها الحديثة ، فيقول : « أنا لست تركياً ، فإني جئت مصر صبياً ، ومنذ ذلك الحين مصرتني شمسها ، وغيرت من دمي ، وجعلته دماً عربياً ؟! . . ويضيف يا وره «مصطفى مختار» فيقول : «إننا وإن كنا في الغالب مولودين في تركيا، لكننا قد اكتسبنا الجنسية المصرية بحكم التوطن ، فقد جئنا مصر قبل أن نتجاوز سن الصبا ، فلسنا الآن أتراكاً . . ولقد اندمجنا في أمة أخرى أرقى وأنبل وأزكى . . اندمجنا في تلك الأمة العربية التي سبقت أوروبا إلى الحضارة ، وازدانت أيام عزها وسوءددها بذلك العمران الذي يتجلى للناظرين في المدن الزاهرة التي أنشأتها والعمائر الجميلة التي أقامتها ! . . » .

وفي الأمر اليومي الذي ضمنه القائد خطة الهجوم على « عكا » يحدد للجنود دورهم فيقول : « يجب أن يكون هجومكم مثل النار ! بحيث لا يسبقكم العدو إلى « المحل » ـ [الموقع] ـ الذي تقصدونه ، وبعد وصولكم إلى المحل المقصود ، حالاً تمسكوه ، وتثبتوا فيه ثبات الشجعان ! وأن تسمعوا نداء الضباط بكل دقة وانتباه ، وتعملوا بموجبه ! . . » .

فهو يطلب منهم سرعة الهجوم « كالنار » والتمسك بالمواقع والتشبث بها ، لأن ذلك يبعث اليأس إلى قلوب الأعداء ؟! . . كما يطلب منهم الصرامة في « الضبط والربط بميدان القتال » .

٣ ـ وفي مجال الحياة العسكرية الداخلية للجيش المصري تحكي لنا وقائع هذه المعركة ووثائقها عن ذلك التقليد العسكري المصري الذي طبقه الجيش المصري في ذلك التاريخ . . فلقد كان هناك رصد دائم للجهود التي يبذلها الجنود في ميدان القتال والتدريب ، وبعد المعركة تتم « ترقية » الجنود الذين أجادوا وبرزوا ، إلى « صف ضباط » ـ وبتعبير ذلك العصر : « ضباط عساكر » ـ ومن هؤلاء الجند الشجعان كانت تتكون « الآليات » خاصة هي بمثابة « القوات الخاصة » ذات الكفاءة العالية في القتال ! . .

ونحن لو ذهبنا نستقصي كل الدروس الهامة التي تقدمها لنا وقائع معركة « عكا » ـ والتي سجلتها وثائقها ـ لطال بنا الحديث . . ففيها عشرات الدروس التي تمثل بالنسبة للجندي المصري العربي والجيش الوطني تقاليد قتالية وخبرات عسكرية أرساها هذا الجيش الشجاع ، الذي كان يومئذ حديث التكوين .

وكما قلنا . . فإن دروس هذه المعركة ، مضافة إلى فتح المدينة الحصينة ، التي استعصت من قبل على مشاهير الفاتحين ، كانت ولا تزال شاهد صدق للروح القتالية عند أبناء هذا الشعب العربي العظيم .

بل وأكثر من ذلك . . **فإن تحرير « عكا » كان دائما المهمة التي اقتصر انجازها على جيش مصر! . .**

○ حررها جند صلاح الدين الأيوبي ، الذين زحفوا من القاهرة ١١٨٧ م . .

○ ثم حررها جند مصر الذين قادهم الملك الأشرف ١٢٩١ م . .

○ ثم حررها جيش مصر الوطني ، بقيادة إبراهيم باشا ، ١٨٣٢م . .

واليوم .. فإن بها حنيناً للحرية والتحرير .. فهل يتخلى الجندي المصري العربي عن دوره التاريخي هذا ؟! ..

هيهات .. هيهات .. فإن هذا الجندي يشارك « عكا » وكل المدن العربية الأسيرة ـ ذلك الحنين والشوق للحرية والتحرير ؟ ! .

وثائق

الانتصار المصري في عكا

الأمر الذي لا شك فيه أن الحرب التي خاضها الجيش المصري في بلاد الشام بقيادة « إبراهيم باشا » والتي بدأت في ٢٩ اكتوبر ١٨٣١ م كانت حرباً تحريرية ، استخدمت فيها الأمة العربية جيش مصر ، كقوة ضاربة ، كي تزيح عن ضميرها وكاهلها ليل الحكم العثماني الذي استمر أكثر من ثلاثة قرون .. ومن ثم كانت الدولة الموحدة التي قامت كثمرة لهذه الفتوحات ، والتي شملت سورية الكبرى ، وأغلب أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وامتد نفوذها وتأثيرها إلى العراق ومنطقة الخليج العربي ، وذلك بالإضافة إلى مصر والسودان ... إن هذه الدولة الكبرى كانت أولى تجارب وحداتنا القومية العربية في العصر الحديث .

فكل المعارك التي خاضها الجيش المصري كانت ضد القوات التركية وضد الأسطول التركي ، وضد القوات الإنكليزية التي استعان بها الأتراك في ١٨٤١ م لتقويض دعائم هذا البناء .

وكل الدسائس التي حيكت ضد هذه التجربة الوحدوية قد صنعها المستعمرون وجواسيسهم ، والأتراك وعملائهم ، وأمراء الإقطاع المحليون الذين ساءتهم الإصلاحات الإقتصادية ومجالس الشورى التي أقامها النظام الجديد .

ولقد كانت المعارك الحربية التي خاضها الجيش المصري ، أثناء حملته هذه ، صفحة مشرقة للجندي العربي المصري ، وذلك رغم حداثة عهده بالجندية النظامية (الجهادية) ، التي حرمه من شرفها الأتراك ومن قبلهم المماليك ، وأنظمة أخرى كثيرة عبر التاريخ .

وهذه المعارك المجيدة التي خاضها الجيش المصري ، والتي ركعت نتيجة لها أمامه إمبراطورية كانت يومئذ مهيبة ومترامية الأطراف ، سجلتها ، وسجلت الحديث عنا العديد من الأبحاث والدراسات . . كما سجلتها وثائق لا يدري عنها الكثيرون شيئاً ! . .

وهنا نقدم مجموعة من هذه الوثائق تتصل بواحدة من معارك هذه الحرب ، تلك التي فتح بها الجيش المصري العربي حصون مدينة « عكا » ، التي ظلت طوال تاريخها الحربي الطويل عصية على أشهر الفاتحين . .

ومن بين وثائق هذه المعركة التاريخية نختار خمس وثائق تتحدث بنفسها عن ظروف هذه المعركة وتطوراتها ، وتقدم لنا العديد من الدروس واللمحات . .

● الوثيقة الأولى :

ذلك الخطاب الذي بعث به محمد علي باشا إلى الجيش المحاصر لعكا ! . . وهو خطاب يحمل العديد من المعاني التي تستحق العديد من الوقفات ، وذلك مثل :

● حديثه عن دور الجندي في معارك القتال ، وعن قيمة الجهد وضرورة « التعب » الذي عليه أن ينهض به ، وذلك عندما يقول : « إن هذا التعب هو عين الراحة والشرف لكم ، وكلما زاد تعبكم بمحاربات جسيمة مثل هذه ، يزداد شأنكم وشرفكم ، لأن هذا شأن العسكري : احتمال الأتعاب والمشقات ، والتقاء صدمات الأعداء بقوة القلب . وشرف العساكر : الهجوم على الحصون ، وإذاقة من حاربهم شراب المنون » .

● وهو في هذا الخطاب يتحدث عن الجيش المصري ، والقوة المصرية ، ويصف هذا الجيش وهذه القوة بأنها « السطوة المصرية القاهرة » محركاً بذلك في نفوس الجنود الأمجاد الكامنة والمفاخر التي حققت لهذا الشعب الصمود والانتصار على الغزاة عبر التاريخ الطويل .

● ولا ينسى محمد علي أن يحدث الجنود عن انتصاراتهم السابقة في « الحجاز » و « السودان » و بلاد اليونان » . . وأن يقول لهم أنهم اليوم أمام حصون قد استعصت على مشاهير الفاتحين ـ وفي مقدمتهم « نابليون بونابرت » ـ ومن ثم فإن التاريخ يستعد كي يفتح لهم صفحة ضن بفتحها على الكثيرين .

● الوثيقة الثانية :

ذلك المنشور ، أو الأمر اليومي ـ بلغتنا الحالية ـ الذي وجهه قائد الجيش « إبراهيم باشا » إلى جنوده المحاصرين للمدينة . . والذي حدثهم فيه عن الإخفاق الذي حدث لهم في معركة خاضوها لاقتحام الأسوار ، وهو هنا يحرص على أن يضرب لهم من تاريخهم العسكري ، وخاصة في حروب اليونان ، أمثلة كثيرة على أن الإخفاق الجزئي وحتى « الهزائم » التي تحدث لهم في معركة أو أكثر، لا تعني عدم حصولهم على النصر النهائي على الأعداء . . تلك خبيرة الحرب ،وتجربتهم هم في اليونان ، يعيدها عليهم قائدهم ليتزودوا بها ، روحاً معنوية عالية في حربهم للأعداء .

● الوثيقة الثالثة :

تلك الخطة الهجومية التي أعدها القائد « إبراهيم باشا » ونشرها على جنوده المهاجمين لحصون « عكا » ، والتي تعد من أغنى وثائق هذه المجموعة بالدروس والخبرات . . ففيها :

● يلفت نظر جنوده إلى ما في سرعة الهجوم« مثل النار » من أمور تشل قدرات العدو على التصرف ، وتجعل المبادأة والمبادرة في جانب المهاجمين . .

● وما في الثبات والاستماتة في الاحتفاظ بالمواقع التي يكسبون احتلالها من بعث لروح اليأس في نفوس الأعداء . .

● وإلى ضرورة « الضبط والربط » أثناء المعركة ، والالتزام بتوجيهات الضباط والقادة ، لضمان جماعية التصرف والحركة .

● كما يعلم « إبراهيم باشا » جنده أنه وهو القائد ، معهم أثناء الهجوم على حصون الأعداء . .

● وأخيراً . . يقدم لنا حقيقة هامة ، عندما يعد الجنود بأن مكافأتهم على النصر ستكون تحويل تشكيلاتهم العسكرية الحالية إلى « ضباط عساكر » أي « ضباط صف » بلغة عصرنا ، ويضرب لهم مثل « آلاي الارديان » الذي هو خلاصة الجند المنتصر والشجاع من بين ستة عشر « آلاي » . . . وهذه الحقيقة الهامة تعلمنا أن « الترقية من تحت السلاح » لأبناء الشعب المقاتلين هي مسألة عريقة في تاريخنا العسكري ، طبقت ومورست على نطاق واسع وبشكل جماعي منذ ذلك التاريخ .

● **الوثيقة الرابعة :**

هي نموذج من خطابات التهنئة ورسائل « البشرى » التي بعث بها « إبراهيم باشا » إلى مختلف الأنحاء بعد تمام النصر لجنده على الأعداء الذين « **ليس لهم طاقة على الثبات أمام عساكرنا ، ولم يحتملوا شدة حربنا** » .

● **الوثيقة الخامسة :**

وهي الأخيرة في هذه المجموعة ، وهي تحكي لنا تقليدا عظيماً سلكه جيشنا في ذلك التاريخ ، عندما أمر قائده بتدوين كل ما يحدث على خط القتال ، حتى التفصيلات والجزئيات ، وأن تطبع مطابع الجيش ذلك ، حتى يكون محلاً للدراسة واستخلاص النتائج ، لتطوير ما هو جيد ، وتلافي النواقص والعيوب ، وأيضاً كي يكون هناك معيار صادق لترقية المجيدين ومعاقبة المقصرين . . .

وهذه المعلومات التي كانت تدونها قيادة الجيش ، على هيئة (مذكرات) نستطيع أن نستخلص من صفحاتها - التي تحكي أحداث أيام أربعة من أيام الحصار لعكا - العديد من الخبرات والدروس والمعلومات ، وذلك مثل :

البطولات الفدائية التي كانت تحدث من الجنود المصريين عندما يقتحمون

النيران المشتعلة في ذخائرهم ومعداتهم ، فيطفئونها قبل أن تتمكن من إحداث الخسائر والإصابات في الأرواح .

● الجهد الشاق الذي يبذله الجنود في حفر الخنادق المتعرجة ـ والتي كانوا يسمونها « طريق النار » ـ ، والاستفادة من الأخطاء ، وتعديل الخطط تبعاً للدروس المستخلصة ، وتطوير الأسلحة ، وإحكام التصويب بعد دخول التجارب في هذه الأمور .

● وفي (المذكرات) التي دونت أحداث يوم الخميس (١١ رجب سنة ٢٤٧ هـ) نجد تقريراً مفصلاً عن جبهة الأعداء ، وتحصيناته ، وروحه المعنوية ، ونقاط الضعف في جنوده وعتاده ، وذلك من خلال الإستفادة من معلومات أحد الذين وقعوا في الأسر ، عندما التقى به « إبراهيم باشا » . . واستطاع أن يحصل منه على كثير من المعلومات .

ا ـ فالقائد التركي في المدينة المحاصرة « عبد الله باشا » قد لجأ إلى الرشوة وترتيب الأجور اليومية للأهالي والجنود ، وذلك حتى يرفع من الروح المعنوية التي أخذت تنهار أمام الحصار وسمعة الجيش المصري وإصرار قائده . .

ب ـ أما أهالي المدينة فإنهم قد شرعوا في التمرد على الأتراك ، وارتفعت الأصوات والصيحات مطالبة بإلقاء القبض على « عبد الله باشا » وتسليمه للمصريين . .

ج ـ وعساكر الترك قد أخذ الرعب يستولي على قلوبهم ، ولم يعد أمامهم أمل في الصمود ، بل لقد أصبحت أمنيتهم هي الفرار بأنفسهم وترك المدينة وحصونها ، بل وترك ما لديهم من أمتعة وعتاد . .

ولم يكن جيشنا الظافر يدون هذه المذكرات وتلك المعلومات عن جبهة العدو كي تحتفظ بها قيادته للدرس فقط ، وإنما كان يذيع على جنوده كل ما يهمهم من هذه المعلومات . . وهو بذلك كان يقيم أجهزة للتوجيه ورفع الروح المعنوية في صفوفه ، مما يتلاءم مع شرف الغاية التي كان يحارب في سبيلها في ذلك التاريخ . .

وبعد . . . فإن هذه الوثائق ، علاوة على دلالاتها المحددة الخاصة بحياتنا العسكرية في القرن التاسع عشر ، تثير قضية أكبر وأشمل تتعلق بضرورة إعادة الكتابة للعديد من صفحات تاريخنا ومعاركنا والمنعطفات الهامة في حياة هذا الشعب عبر تاريخه الحضاري الطويل . . . لأننا إذا علمنا أن الوثائق التي نقدم لها الآن هي خمس وثائق جاءت ضمن أكثر من أربعة آلاف وثيقة خاصة بالسنوات العشر التي توحدت فيها مصر والشام يومئذٍ (١٨٣١ ـ ١٨٤١ م) . . وأن هذه الوثائق جميعها لم يحدث من قبل أن استخدمت في كتابة التاريخ الحقيقي لهذه التجربة التوحيدية . . . إذا علمنا ذلك بدت أمامنا الصورة المجيدة التي يمكن أن تكون عليها صفحات تاريخنا إذا هي اعتمدت على الحقائق المستمدة من مثل هذه الوثائق . . وأثر ذلك في تكوين ضمير أمتنا ، والزاد الذي يتزود به جيلنا الراهن كي يصنع الحاضر والمستقبل اللائقين بماضي هذه الأمة العريق والمجيد . .

والآن . . . ندع القارىء مع هذه الوثائق الخمس التي تحكي حصار الجيش المصري « لعكا » وانتصاره على حصونها التي قهرت « نابليون » . . . وهي الوثائق التي نقدمها كما هي ، بأسلوبها ، الذي لم تستطع ركاكته اللغوية أن تحجب الحقيقة الرائعة المستكنة فيه . . .

١ ـ من محمد علي باشا إلى الجيش المصري المحاصر لعكا[1]

أيها العساكر الفتيان ، عساكر الجهادية[2] الشجعان :

إنه من المعلوم (محاصرة) عكا اقتضى لها أشغال تعبة ، ومشقات صعبة ؛

(١) تاريخ هذا الخطاب ٢٠ شعبان سنة ١٢٤٧ هـ (سنة ١٨٣٢ م) وهو منشور بكتاب (الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا) . جمع وضبط : الدكتور أسد رستم . ص ١٠٥ ، ١٠٦ من المجلد الأول . طبعة بيروت ، منشورات كلية العلوم والآداب . بالجامعة الأمريكية سنة ١٩٢٩ م

(٢) العساكر الجهادية هم الجند المصريون النظاميون ، تمييزاً لهم عن المتطوعة من عربان مصر وأهل الشام .

بحفر الطرقات الغارية[1] ، وبناية الطوابي والمتاريس . وهذا جميعه مباشرين عمله أنتم لحد الآن بكل رغبة ونشاط .

إلا أنه واجب عليّ بأن أيقظكم وأنبهكم دائماً إيقاظ الوالد إلى أولاده ، وهو أن هذا التعب هو عين الراحة والشرف لكم ، وكلما تزايد تعبكم بمحاربات جسيمة مثل هذه ، يزداد شأنكم وشرفكم ، لأن شأن العسكري : احتمال الأتعاب والمشقات ، والتقاء صدمات الأعداء بقوة القلب ، وشرف العساكر الهجوم على الحصون ، وإذاقة من حاربهم شراب المنون .

فها الآن قد قرب سقوط عكا ، واستيلائكم عليها بالسطوة المصرية القاهرة ، وعند ذلك تنالوا الإسم الشهير عند الكبير والصغير ، بقوة الشكيمة ، وشدة العزيمة نعم . . إن وقائعكم المشهورة « بالحجاز » و« المورة » تشهد لكم ، ولكن بما أن إسم عكا كبير ، واستحكام تحصينها بين الأنام شهير ، الذي بواسطة طوبيجتنا واتقانهم قد غدا إسمها الكبير الآن صغيراً ، وحصونها مدمراً حقيراً ، فلأجل أن تطأ أسوارها بأرجلكم ، ويتحدث الركبان بروية من تبقى من الجيوش المختلفة فيها بفعلكم ، أطلب منكم أن تضاعفوا تلك الغيرة ، وتجتهدوا بالحق والإنصاف ، وتعلموا أن الثبات على هذا الإجتهاد هو الشرف والفخر ، لا الإقامة بالراحة على نيل مصر .

وبحوله تعالى وقوته ، بعد إتمام الترتيب المشروح به حسب المرام ، تدخلها العساكر المصرية بالعنوة والإقتدار ، والغلبة والإفتخار ، وإذ ذاك تنالوا الإسم الذي قصر عن نواله غيركم ، وأنتم تفخروا بي ، وأنا بكم ، فبناء على ذلك أصدرنا لكم هذا الخطاب إلى الديوان النبر عسكري بصحراء عكا ، ليحيط علم كل منكم مضمونه ، وتعلموا بموجبه . والسلام عليكم ورحمة الله .

---

(1) الطرقات الغارية هي الخنادق المتعرجة ، كانوا يستعينون بتعرجاتها على عدم اكتشاف العدو لهم أو إصابتهم أثناء سيرهم فيها .

٢ ـ من ابراهيم باشا إلى جنوده المحاصرين لعكا[1]

إن هجومكم بهذا النهار على قلعة عكا ، وطلوعكم على البرج المهدوم بأسرع وقت قد صيرني ممنون منكم ، لأن هجومكم هجوم الجدعان ، وإنما عدم توفيقكم بفتح القلعة المذكورة ، فهذا سببه عدم رعايتكم أمرنا بالهجوم ، لأننا قد أمرنا الضباط بأنهم يسوقوا العساكر على الهجوم : ارطه بعد ارطه ، فالمذكورين استعجلوا ، وساقوا العسكر سوية ، فعجلت الضباط ، وحرزاتكم أنتم صاروا سبباً لذلك .

ولكن . . لا تتأسفوا فيما حصل ، لأنه بحمد الله تعالى أنتم جرى عليكم مواقع أكثر من هذه ، وهي :

أولاً : واقعة « سليمان آغا عقل » ، « ومصطفى آغا » ، « وحاج عمر آغا » في محاصرة « نوارين » . . وبعدها الذي فتح « نوارين » القديمة و«نوارين» الجديدة وجزيرة « نوارين » أنتم ، ثم : ودخلتم بلاد « المورة » جميعها بقوة حربكم وسيوفكم .

ثانياً : واقعة الذي في « سولنك » وبعدها وفقكم الله بفتح « سولنك » إنه طوليكوس ، وجزيرة « واسيلي » وعدتم إلى « المورة » أيضاً بصولتكم المصرية[2]

فواقعهة هذا النهار في عكا ، مثل الوقائع السابقة المذكورة . يعني إذا كنتم بهذه الهجمة ما توفقتم بفتح عكا ، لا بد إن شاء الله من فتحها بقوة حربكم وشجاعتكم ، وتصولوا في بلادها كما صلتم في « المورة » . فيلزم تنتبهوا إلى مسح سلاحكم وتنظيف أثوابكم وأكلكم وشربكم ومنامتكم . والسلام .

---

(١) تاريخ هذا المنشور ١٠ شوال سنة ١٢٤٧ هـ (سنة ١٨٣٢ م) . المصدر السابق . المجلد الأول . ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) حدثت هذه الوقائع في بلاد اليونان سنة ١٨٢٧ م

٣ ـ من ابراهيم باشا إلى جنوده . خطة الهجوم على حصون عكا[1]

إنه بحسب ما تعهد فيكم من الشجاعة والرجولية ، والحروب التي أجريتموها في الحجاز قبل الآن . طلبنا حضوركم هذا الطرف ، فحضرتم . وقد انتخبناكم الآن بمأمورية الهجوم على عكا ، من دون كافة العساكر ، وبحسب توفيقكم وحسن إقبالكم تصادفت بمأموريتكم بالهجوم بالوقت التي صارت عكا فيه خالصة ، وعدمت القوة من الحصن والعسكر ، فلذلك ننبه عليكم ونيقظكم بأنه : بحال ما تؤمروا بالهجوم ، تمسكوا بنادقكم بأيديكم ، ويكون هجومكم مثل النار ، بحيث لا يسبق العدو ويمسك المحل الذي تكونوا أنتم قاصدينه قبلكم ، وبعد وصولكم إلى المحل . المقصود ، حالا تمسكوه ، وتثبتوا فيه ثبات الشجعان ، ولا تخشوا من مجيء الأعداء عليكم ، لأنهم إن جاءوا بالسيوف ، فحراب بندقكم أطول من سيوفهم ، وإن جاءوا بالبندق فالنار الدائمة التي متعلمينها أنتم من مدة إحدى عشرة سنة إلى الآن إذا أجريتوها فعلى قواس كل واحد من الأعداء أحدكم يقوس عشرة .

وبخصوص الجسارة ، فعساكر الترك نحن نعلمها طيب ، إن ما عندها نصف جسارتكم .

فها أنا عسكر ، ماشياً بالهجوم معكم ، فينبغي أن تحفظوا تنبيهنا هذا :

أولاً : في سرعة المشي بالهجوم ، وقوة الثبات في القعاد بالمحلات التي تمسكوها حسب الاقتضاء .

ثانياً : إنكم تسمعوا نداء الضباط بكل دقة وانتباه ، وتعملوا بموجبه ، ولا تعملوا شيء من عقلكم . فإن حفظتم هذا التنبيه فأنتم بحول الله تعالى المنصورين ، وتتوفقوا بفتح قلعة عكا التي صارت الآن بحال الضعف ، وإن شاء الله تعالى بعد توفيقكم بفتوحها نجعل الايكم بتمامه ضباط عساكر الاي

---

(١) تاريخ هذا المنشور ٢٢ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ هـ (سنة ١٨٣٢ م) . المصدر السابق ـ المجلد الأول ـ ص ١٣٣ . ولقد جاء في (المخطوطة الحنيشية) التي نقل عنها في ص ٣٦٨ ما نصه : « وانفتح من شدة الضرب أربعة محلات في السور ، ثم كتب ابراهيم باشا كتابه ، وطبعت في المطبعة ، وتفرقت على العساكر ، وهذه صورتها حرفيا . »

ورديان ثاني ، وتصير علايقكم[1] ونياشينكم وكساويكم مثل الآي الأورديان التي تجمع من ستة عشر آلاي حتى حصل على هذه النعمة ، فأنتم مزيغين تحصلوا عليها بآلايكم بتمامه ، فاحفظوا مقام هذه الغاية ، واحفظوا تنبيهنا هذا ، واعملوا بموجبه .

٤ ـ ابراهيم باشا يبلغ الأمير بشير الثاني بفتح عكا[2]

افتخار الأمراء الكرام ، مراجع الكبراء الفخام ، حضرة أخينا الأمير بشير . . . حفظه الله تعالى . .

عب[3] التحية والتسليم ، بمزيد الإعزاز والتكريم .

المنهى إليكم ، أنه أمس ، تاريخه : يوم الأحد المبارك ، قد هجمت عساكرنا الظافرة ، بالقوة والسطوة القاهرة ، على عكا . . وفي الحال صعدوا إلى أسوارها[4] وتملكوها ، ووطئوا أبراجها الرفيع بأرجلهم ، وداسوها بقوة الحرب والنار الدائمة .

وبما أن الأعداء لم يتملكوها من حيث أن ليس لهم طاقة على الثبات أمام عساكرنا ، ولم يحتملوا شدة حربنا ، فحالاً رفعوا الرايات البيض ، وطلبوا الأمان ، ومن حيث أن العفو صدقة ، فرحمة منا على الحريم والأطفال وفقراء الأهالي الذين داخل عكا ، قد أنعمنا بالأمان على الجميع ، وأخرجنا « عبد الله باشا »[5] ، وكتخداه[6] ، ودائرته على اوردينا المنصور ، واستولينا على عكا قهراً ، والحمد لله رب العالمين .

فلأجل إعلان هذه البشرى الموجبة السرور والأفراح للجميع ، حررنا

---

(١) علائق : المؤن والتموين للمقاتل ولعدته من الخيل إذا كان فارساً .

(٢) المصدر السابق . المجلد الأول . ص ١٣٧ ـ ١٣٨

(٣) أي بعد التحية

(٤) أسوارها

(٥) قائد الجيش التركي في عكا

(٦) نائب قائد الأتراك

لكم مرسومنا هذا من ديوان معسكر عكا ، لتعلنوا مضمونه بالجنك والسرور ، وتداموا على الدعوات الخيرية بدوام دولة سعادة أفندينا ولي النعم والدنا المعظم . والله يحفظكم .

تحريراً في ٢٧ ذي الحجة سنة ١٢٤٧[1] .

الإمضاء

خالص الفؤاد ابراهيم

والي جدة والحجاز وساري عسكر عكا حالا

٥ ـ مذكرات قيادة الجيش المصري المحاصر لعكا[2]

الأربعاء ١٠ رجب ١٢٤٧ هـ ١٨٢٢ م

* صورة أعمال نهار الأربعاء في ١٠ رجب : تركب ثلاثة قبوسات ، كلتهم[3] الواحدة : عشرين أقة ، و . . كلتهم كل واحدة أربعة عشر أقة في متاريس مسكرنجي آلاي . . . أي أن العسكر المختص بمحافظة جسم والي الأمر فابتدوا بالضرب على عكا ، ويأتوا بالضرب على الصور[4] ، فظهر مبناه رديء للغاية .

* وقد ضرب من عكا قنبرة[5] ، فنزلت من قرب كلل القبوسات المحضرين للضرب فأخذت نارها بالكلل ، وفقعت ثلاث عشر كله ، وبالحال تفرغ من

---

(١) سنة ١٨٣٢ م

(٢) المصدر السابق . المجلد الأول . ص ٨٩ ـ ٩٤ . وفي « المخطوطة الحبيشية » المنقولة عنها هذه المذكرات ، مذكور في ص . ٣٣ « وأما ابراهيم باشا كان يصحب معه مطابع تطبع كل ما يحدث في كل يوم ، وقد أمر أن يكتب ما يصنعوه في كل يوم ، وهذه صورة أعمال نهار الجمعة في ١٠ رجب »

(٣) الكله ، جمعها كلل نوع من القذائف ترسل مشتعلة بالنيران .

(٤) السور .

(٥) قنبلة .

الطبوجية محمد جاويش الإسكندراني ، وأحمد ، ومحمد نفرين . . قرب الماء ، وهجموا على الكلل الوالعة فتائلها ، وأطفوها بالماء ، هؤلاء الفتيان الشجعان . . . ومن الكلل التي احترقت ما صاب أدنى ضرر لأحد أبداً .

* ثم بهذه الليلة تقدم عمر بيسك بمتاريس الآي الثالث عشر إلى التربة(1) ، لحد مقام النبي صالح ، فكان شغلهم بهذه الليلة قليل .

* الآلاي الثامن : كذلك اشتغلوا في فتح طريق الفار(2) ، لحينها يصل إلى مقام النبي صالح ، وصار له ليلتين يشتغل ولم يزل ما وصلوا .

* الآلاي العاشر : يحضر متاريس من جهة اليمين إلى ناحية البحر ، فبهذه الليلة كان شغلهم قليل ، لكون أن همتهم كانت جزئية .

* أشغال الآلاي الحادي عشر : بالحقيقة إنها عظيمة ، لكون أن متاريسهم الثلاثة مع طرقات الفار « أي خندق مموج يعملوه طريق حتى لا يراهم أحد من الأصوار » فاللازم جميعه تمموه ، ووصلوا لقريب من قلعة عكا .

* ثم إن القنابر التي تنضرب على عكا كانت أول الأمر طبانها ردية ، وأكثرها تفقع قبل وصولها ، والآن تصلحت ، وصارت ما تفقع القنابر إلا بعد وصولها إلى المحل المقصود .

الخميس ١١ رجب ١٢٤٧ هـ ١٨٢٢ م

أعمال نهار الخميس : خرج اثنين من عكا ، أصلهم من حيفا ، قندجية ، وكان خروجهم من حد الدباغة صوب البحر ، وصلوا إلى قرب القراغول ابراهيم باشا ، فتكلموا معهم بالتركي فما عرفوا جاوبوهم ، فبالحال أرموا عليهم النار فمنهم واحد نفذ في محلة حيفا والثاني تقدم إلى المتاريس لجهة النزم النظام ومصباح الخميس جابوا المذكور لقدام ابراهيم باشا فسأله : من أين كان الخروج ؟ فعرض كما هو مشروح . فمن بعد ذلك سأله عن أحوال عبدالله

---

(1) المقبرة .

(2) الخندق المتعرج .

باشا ، وعن الشيء الذي حصل نهار الجمعة لما صار الشنك[1] فكان الجواب :

إن عبد الله باشا موجود في البرج الكبير ، والنظام ودائرته وبقية العساكر والطبجية الذين موجودين في عكا متفرقين على الأسوار والأبراج . وعدد الله باشا نزوله من البرج صدفة . وأما قبل أن صار الشنك نهار الجمعة ، فرأى الضباط وبقية العساكر محوضين[2] جميعهم ، فسألهم عبد الله باشا : ايش السبب لهذه الضوضة[3] ! فقدموا له أسباب توجب خوفهم لأنهم نظروا عياناً عساكر ابراهيم باشا ، وسمعوا عن الإقتدار الذي موجود بنفس ابراهيم باشا . ومن بعد ما أعرضوا عن ذلك استلقا خواطرهم ، وجعل إلى الطبجية في كل نهار ستة قروش ، ومن هناك في التدريج .

وأما قاضي عكا : جعله عبد الله باشا ضابطاً على أولاد البلد ، وعين لكل نفر يومية قرشين ونصف . ونهار الجمعة الذي صار الشنك فيه ـ على موجب تخبير الذين عارضين عنه ، أعرض إلى ابراهيم باشا ـ أنه راح من الطبجية من القنابر والمدافع ما ينوف عن المايتين ، ومن بقية باقي العسكر مقدار ماية نفس ، وسبب أن الطبجية راح منهم هذا المقدار إقامة المذكورية وراء المدافع على الصور ، وأغلب القنبرجية[4] يرموا القنابر على الصور ، وأما الخراب الذي حاصل بالبلد أكثر ما يكون على سراية سليم باشا ، ومن غربي البلد بالمواطي إلى جهة البوابة على الخزينة ، وأخيراً : عندما خرج عسكر عبد الله باشا قاصداً كبس المتاريس ، وارتجع بالثاني ، قتل منهم نحو أربعون نفر ، وإن حميد آغا الهوارة انجرح برجله .

ومن حرب يوم الجمعة الثانية الواقعة في ٥ رجب حينما وقع حرب الصونتيا[5] أي المركب ، صارت القنابر والكلل تتساقط على القلعة مثل المطر ، وقتل ذلك النهار من الطبجية والعساكر التي على الأسوار أناس كثيرون ،

(١) محاولة ضرب المدينة
(٢) قلقين .
(٣) الضوضاء
(٤) رماة القنابل
(٥) الأسطول .

ومن أولاد البلد أيضاً ، ومنهم من مات تحت الردم ، حتى أن الحريم خرجت من البيوت بالصراخ والعويل ، ويقولون : إمسكوا عبد الله باشا وسلموه . وإنه اشتمل على قلوب العساكر خوف كثير . وثاني يوم صار حرب الضونيا ، واجتمعت الطبجية ، وطلبوا أنهم يطلعوا من القلعة ، وأن لا طاقة لهم ولا جلد على الوقوف قدام القوة الذي على عكا ، وللوقت أرضاهم عبد الله باشا بزيادة المائضة[1] وجعل لكل نفر منهم ومن العسكرية يومية ستة قروش ، ومع ذلك لم تزل العساكر في قلق زائد ، ويريدون الخروج من عكا بأنفسهم سالمين ويتركون جميع امتعتهم ، والأهالي حاصلين على جوع عظيم ، وإن عبد الله باشا رتب إلى رجال الأهالي لكل نفر قرشين ونصف ، وجعل عليهم القاضي رأساً . ثم .. وأخيراً أيضاً أن عبدالله باشا مع حريمه يتدارى في برج الخزنة لا يخرج أبداً ، وفي بعض الأوقات يطلع كتخداه لمناظرة[2] الأبراج ، وهو مقيم جهة برج كريم ، ونزلت قنبرة من الخارج على كنيسة الموارنة هدمتها ، ونهب العسكر كافة الأواني الموجودة فيها . فهذا الذي قرروه القندجية الذي تقدم الشرح بخروجهم .

* * *

* ثم .. من يم المتاريس تم جميع اللوازم له ، من المدافع والقنابر وقنبرات وصواريخ ضاهرة مستجدة ، من حد الشيخ مبارك الذي تحت تل الفخار بالقرب من داخل الجبخانة لحد عز الدين بشط البحر ، ومن طرف المتراس الذي على شاطىء البحر جهة عز الدين صدر الأمر : المتراس من مطرح ما نحن ذاكرين لحد عمار السرايا ـ التي كان عمرها سابق وهدمها أحد الأغوات ـ تقدم إعراض[3] : إن الجبخانات صارت كفاية في المتراس ، وأما الكلل والقنابر بعد بيلزم فحالاً صدر الأمر الشريف إلى كبار العساكر ، فأمر اللوا أن يأذنوا عسكر النظام بجلب المطلوب من رملة حيفا ، فحالاً أشهروا

---

(١) الأجر .

(٢) للنظر في أحوالها والتفتيش عليها

(٣) اقتراح .

الأمر على عسكر النظام المنصور ، وتوجهوا إلى الرملة ، وقد كان في ليلة واحدة[1] اثني عشر ألف قطعة من كلل وقنابر ، وكل زلمة[2] حمل قطعة ، وطابية العشر مدافع الذي شرع بعمارها بجهة اليمين بجانب البحر قدام برج كريم قد خلصت بهمته العالية بمأمورية أمير لواءي الفاردي سليم بك الفرنساوي وقاسم آغا المهندس وأربعة بلوكات من الطبجية مع بكباشهم وعربانات المدافع تحضروا ، فالطابية المذكورة والمدافع أمر بجلبهم أمير لواء بك سليمان .

* (أتم) **عساكر الآلاي الثاني عشر** هذه الليلة بناية المتاريس وخلاص طرقات الغار اللازمة .

* **متاريس الآلاي العاشر** . بهذه الليلة بواسطة اجتهاد عساكره اتصلت مع متاريس الآلاي الثاني عشر ، وشغل عساكر الآلاي المذكور بهذه الليلة ما عليه كلام .

* **إنما أمير لواء علي بك وابراهيم آغا** : فالموقا إليهما من عدم محبرتهم بهذه الليلة لا خلصوا الطابية ولا حضرا المدافع .

* **الآلاي الثامن** : بالحقيقة إن الآلاي المذكور قوي ، حصل منه عدم همه بشغل طرقات الغار اللازمة لمتاريس

* **الآلاي الثاني عشر** : متاريسه تقدمت لجانب بين الشيخ صالح ، وشغل العسكر بهذه الليلة بتحصيل متانة متاريس وطرقات الغار ، وانجرح واحد من الأنفار من عسكره في يده بالرصاص من ضرب عكا .

الجمعة ١٢ رجب ١٢٤٧ هـ ١٨٣٢ م

نهار الجمعة في ١٢ رجب : العشر مدافع الذي أمر بإجابتهم أمير لواء سليمان بك إلى الطابية التي بجانب البحر قد أحضرهم حسب مأموريته ونازلهم في طريق الغار .

---

(١) بحصر .

(٢) شخص .

* **الآلاي الثاني عشر** : قد خلص شغل المتاريس وطرقات الفار اللازمة بالتمام ، وبهذه الليلة اشتغل شغل طيب ، بكل اجتهاد ، ولكن بورنجي بلوكباشي الآلاي المذكور عمل قلة عقل زائدة ، لكونه فضلاً عن أن يجتهد بتتيجة العساكر من المتاريس ، بل قد أخرجهم خارج المتاريس بالإجتهاد بالشغل ، فبواسطة قلة عقله هذا قد فقد من العساكر بالرصاص من الضرب من عكا بسبب قلة شغله .

* **الآلاي الثامن** : بسبب قلة شغله بالليلة الماضية أخذت الحمية في أمور لواء عمر بك وتوجه لمتاريس الآلاي المذكور وحطوا الشغل وبواسطة ذلك فاز العسكر بالطلوع من المتاريس لجهة يمين مقام النبي صالح ، ومن حيث أن تلك الجهة مكشوفة ، فضرب عليهم من عكا مدفع رشاش فانجرح البلوكباشي الاونجي واثنين من الأنفار ، وجرح البلوكباشي من كون أنه خفيف في ضهره فما زال يشغل الآلاي الثالث عشر حتى خلص من شغل المتراس وطرقات الفار وطلب جوالق لكي يملأهم تراب ويعملهم مزاغل البندق ، فأعطيت له جوالق ، وبهذه الليلة يعمل مزاغل .

* أمير لواء الغارديا سليم بك قد أمر العساكر من الآلاي الغارديا بجلب الثلاثة مدافع إلى الطابية الذي بنت مخصوصة إلى ثلاث قبوسات ، وأحضروهم ، وفي هذه الليلة يتركبوا على عرباناتهم بالطابية المذكورة .

* **طابية القبوسات** . . . . التي تنسب أولاً إلى الصلحة ، بهذا النهار نزلت عليها خميرة من عكا ، فكسرت تلك المدافع ، وقتلت طوبجي واحد وجرحت اثنين .

السبت ١٢ رجب ١٢٤٧ هـ ١٨٢٢ م

* **أعمال نهار السبت في ١٣** ونهار السبت أطلعوا مدفع كبير من البحر طوله عشرة أذرع ، وكانوا الساحبين به للبر عشرين كديش[1] وثلاثماية رجل ، وأن يوضعوه بالمتراس عند النبي صالح .

---

(١) سائق مدفع .

* ابراهيم آغا قائمقام الآلاي الثامن ، المأمورين لنقل العشر مدافع إلى الطابية المستجدة الكائنة بجانب البحر قبال برج كريم . فمن همة محمد اغا نقل ستة مدافع ، وأما ابراهيم آغا فما نقل غير مدفعاً واحداً ، وبحيث إهماله حكم عليه أن يحبس في قراقول خمسة أيام . وأما أشغال العساكر ، بسبب زيادة إشراقة القمر ، ما استطاعوا على التمادي بالشغل في طرق الفار .



محتويات الكتاب

توزيع
دار قتيبة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ـ ص.ب : ١٣٤١٤
بيروت ـ ص.ب : ١٣٥٠١٦